تلقّي غرض المديح
في كتب النقد الادبي العربي القديم
حتى 656هـ

رسالة تقدم بها الطالب

مشكور حنّون كاظم الطالقاني

الى
مجلس كليّة التربية/ جامعة بابل وهي جزء من
متطلبات نيل شهادة الماجستير في آداب اللّغة العربيّة

بأشراف
أ.م.د. قيس حمزة الخفاجي

1426هـ ***2005م***

Haring The Peruse Of Laudations

In The Old Books of Arabic Literary Criticism Until The Year of 656 Farhijran

A thesis Submitted to the Council of The College of The Education In Partial Fulfillment of The Requirements For the Degree of Master of Arts In Arabic

By

Mashkoer Hanoon Kadhim Al-Talikany

Supervised by

ASS. Prof. Dr. Qais Hamza Al-Khafajy

2005 ***1425***

X الاهداء x

الى :

مَنْ رضا الله لِرضاها...

نفسي وأهلي فِداها...

سيدتي الزهراء (ع).

H ثم g

الى مَنْ عَرفتُهُ أخا وصديقاً...

فكان سبباً في تحقيق طموحي...

استاذي الدكتور قيس الخفاجي

مشكور الطالقاني

بسم الله الرحمن الرحيم

قرار لجنة المناقشة

نحن أعضاء لجنة المناقشة نشهد أننا قد اطلعنا على هذه الرسالة المرسومة بـ(**تلقّي غرض المديح في كتب النقد الأدبي العربي القديم حتى 656هـ**) التي أعدها الطالب (**مشكور حنون كاظم الطالقاني**) وقد ناقشنا الطالب في محتوياتها وفيما له علاقة بها، وهي جديرة بالقبول بتقدير ( ) لنيل شهادة الماجستير في آداب اللغة العربي.

عضو اللجنة :
الاســـم:
الدرجة العلمية:
الإمضـــاء:
التـــاريخ:

عضو اللجنة :
الاســـم :
الدرجة العلمية:
الإمضـــاء:
التـــاريخ:

عضو اللجنة (المشرف) :
الاســـم:
الدرجة العلمية:
الإمضـــاء:
التاريـــخ:

عضو اللجنة :
الاســـم :
الدرجة العلمية:
الإمضـــاء:
التـــاريخ:

أصادق على ما جاء في قرار لجنة المناقشة

عميد كلية التربية:
الاســـم:
الدرجة العلميـة:
الإمضـــاء:
التأريـــخ:

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة.....	أ-ت
الفصل الاول: تلقي الممدوح لغرض المديح.....	56-2
تلقي الممدوح الجاهلي لغرض المديح.....	8-3
تلقي الممدوح الاسلامي لغرض المديح.....	12-9
تلقي الممدوح الاموي لغرض المديح.....	31-13
تلقي الممدوح العباسي لغرض المديح.....	56-32
الفصل الثاني: تلقي الناقد لغرض المديح...	122-58
تلقي الناقد لغرض المديح الجاهلي.....	71-59
تلقي الناقد لغرض المديح الاسلامي.....	72
تلقي الناقد لغرض المديح الاموي.....	85-73
تلقي الناقد لغرض المديح العباسي.....	122-86
الفصل الثالث: تلقي المتذوق لغرض المديح.....	167-124
تلقي المتذوق لغرض المديح الجاهلي.....	136-125
تلقي المتذوق لغرض المديح الاموي.....	145-137
تلقي المتذوق لغرض المديح العباسي.....	167-146
الخاتمة.....	171-169
المصادر.....	180-172
ملخص الرسالة باللغة الانكليزية.....	

المقدمة

الحمد لله الذي أختار من عبادهِ اقواماً شرّفهم بحملِ كتابهِ وأوجبهم العمل بما فيه، وأجزل لهم العطاء والرضوان على ذلك، والصلاة والسلام على نبيّه المصطفى الأمجد محمد بن عبد الله (ص) وعلى آله وصحبه المنتجبين الأخيار...

وبعد...

لقد عني العرب بالنقد بصورة متدرجة نحو السعة والتعمق وكان النقد لديهم مع ذلك من الدراسات المهمة لانه اساس التذوق أدبهم وجماله واستبيان سر هذا الجمال وقوته.

وهو يعالج عند أمة ما ادبها وما خلقته عبقرية ادبائها وشعرائها. فهو اذاً يتعامل مع الموضوعات والاغراض الشعرية التي أُنتجت لاجيال تلك الامة. فالناقد قد يحاول تعرف هذا الادب بالتعامل معه وتحليله وتعليل سبب ظهوره عند الانسان، من خلال تعدد زوايا النظر واختلافها.

وهذه الدراسة تتناول موضوعاً في النقد العربي اراه جانبا مهماً فيه. وجاءت اهميته من خلال الاستقراء في قسم من المؤلفات النقدية والبلاغية التي عرفنا منها عمق هذا الموضوع ومدى تداخله الدقيق مع غيره. وهذا الموضوع هو: تلقي غرض المديح في كتب النقد الادبي العربي القديم، – أي كما رأوه هم- حتى سقوط بغداد 656هـ.

وقد حاول الباحث في هذه الدراسة أن يقدم صورة عن هذا التلقي من خلال الممدوح والناقد والمتذوق. وقد اتبع الباحث منهجاً يعتمد على الاستقراء والتصنيف والتحليل.

ودرس الباحث في هذه الدراسة ما صدر من احكام نقدية لاعلام سواء أكانوا ممدوحين أم نقاداً أم شعراء أم فلاسفة أم علماء آخرين.

ولكي نصل الى ما قاله هؤلاء كان يجب علينا ان نعنى بكل ما أدلى به نقادنا وعلماؤنا مستعينين بكتبهم ومؤلفاتهم التي حاولنا الوصول من خلالها الى وجهات نظرهم.

ومن دراسة هذا الموضوع ومن عنوانه (تلقي غرض المديح في كتب النقد الأدبي العربي القديم حتى 656هـ) يظهر ان لهذا البحث عدة غايات كان منها:

الكشف عن كيفية التلقي عند العرب انفسهم ثم ان هذه الظاهرة هي من أسس بناء التراث الادبي العربي الأصيل.

فضلاً عن ان هذا الموضوع ذو صلة بفن من الفنون الادبية المهمة وهو المديح. وقد وجدنا ان مثل هذا الموضوع لم يحض بالعناية التي تليق به من الباحثين المعاصرين لذلك شرعنا بدراسته ليكون فاتحة توجه نقدي لباحثين آخرين. وقد اخضعنا هذه الدراسة للجانب التاريخي الذي يفيدنا بتتبع الزمن وللرجوع الى طائفة مهمة من كتب النقد والبلاغة وغير ذلك من المصادر التي تتعرض للحديث عن هذا الموضوع. لذلك كان موضوع الرسالة يقوم على استقراء المرويات والوقائع والاحداث واستنباطها وتصنيفها وتحليلها. ومن هنا فقد أقمت بناء هذا الدراسة على مقدمة وثلاثة فصول تناولت فيها مختلف جوانبها. اذ تحدثت في الفصل الاول منها عن التلقي النقدي لدى الممدوح وفيه أربعة مباحث اولها يتحدث عن تلقي الممدوح للمديح الجاهلي، في حين تخصص المبحث الثاني في تلقي الممدوح للمديح الاسلامي. أما الثالث فكان للممدوح الاموي وآخر المباحث وهو الرابع تحدث عن تلقي الممدوح للمدح العباسي.

اما الفصل الثاني فقد تناولت فيه تلقي الناقد لغرض المديح. وقسم على مباحث شابهت مباحث الفصل الاول من حيث التقسيم الزمني.

وقد جاء الفصل الثالث من هذه الدراسة ليتناول التلقي النقدي للمتذوقين ورؤاهم النقدية العربية لغرض المديح وبالمباحث السابقة نفسها.

واعقبت تلك الفصول بخاتمة بينتَ فيها اهم النتائج التي توصلت اليها من خلال الدراسة، وبقائمة تضمنت المصادر والمراجع التي اعتمدها البحث، واخيراً بخلاصة باللغة الاجنبية (الانكليزية).

وافاد البحث من مجموعة من الدراسات التي لها صلة كالدواوين والمجموعات الشعرية كما افاد من عدد من الكتب الادبية والبلاغية القديمة والحديثة . ولاشك في ان المصادر التي رجع اليها الباحث كانت احدى الصعوبات التي واجهته، ولاسيما في وقت شهد فيه البلد احداثاً سياسية خطيرة اسفرت عن احتراق وفقدان اكثرها، مما دعا الباحث الى السير في طريق تحفّها المخاطر من مختلف الجوانب من اجل الحصول على كتاب أو ديوان شاعر من الشعراء. وبذلك لا تخفى المعاناة التي رافقت عملية اكمال استقراء مصادر الدراسة.

ولابد من الحديث عن أمر آخر هو أن هذا العمل ما كان له أن يرى النور لولا فضل الباري سبحانه وتعالى عليّ ، وفضله بأن هيأ لي مشرفاً قديراً عرف بصبره وبغزارة علمه وهو استاذي الدكتور قيس الخفاجي. فقد رافقني في رحلتي مع البحث في كل خطوة كنت اخطوها وكان لملاحظاته العلمية السديدة الأثر البالغ في انجاز هذا العمل وظهوره على هذه الصورة فله مني المودة الكثيرة والشكر العظيم داعياً له المولى القدير ان ينعم عليه بالصحة والتوفيق.

كما اعترف بفضل اساتذتي الذين كان لسؤالهم الدائم وحرصهم الشديد وتشجيعهم لي الفضل الكبير في انجاز هذه الدراسة واخص منهم بالذكر الاب الدكتور علي ناصر والاب الدكتور عدنان العوادي والاخ الاكبر الدكتور عبد الوهاب حسن والدكتور رحيم الحسناوي والدكتورة هناء جواد والدكتور عامر عمران والدكتور عبود الحلي والدكتور محمد الخطيب، واشكر موظفي قسم اللغة العربية ووحدة الدراسات العليا ووحدات المكتبة في جامعة بابل وجامعة كربلاء وفي قضاء الهندية لتعاونهم معي ومع الباحثين الاخرين. وبذلك تكون كلمات الشكر التي اتقدم بها اليهم عاجزة عن وصف مشاعري تجاههم فحفظهم الله وجزاهم عني خير الجزاء. كما اقدم شكري الى من صحبتني في رحلتي مع هذا البحث تمسح العرق وتمضغ الصبر وتجدد الامل زوجتي.

واقدم شكري الى الأخوة في الدراسات العليا لرفدهم البحث بالمصادر.

وشكري ايضاً الى الاخت نهلة السيلاوي التي قامت بطباعة الرسالة وأخراجها بهذا الشكل.

وأتقدم بالشكر والعرفان الى السادة رئيس واعضاء لجنة المناقشة لمن تجشّم منهم عناء السفر ومشقة الطريق، وإبداء الملاحظات السديدة خدمة للمكتبة العلمية والادبية.

واخيراً أقول انني لا أدعي الكمال في ما جئت به في هذه الدراسة، لأن الكمال لله وحده سبحانه وتعالى. ولكن حسبي أنني بذلت فيه قصارى جهدي.

فان اصبت في أكثره فمن عند الله، وإن أخطات في بعضه فمن عند نفسي والحمد لله ولي التوفيق.

الباحث

كان المديح احد الفنون الشعرية البارزة، فالشاعر يمدح رئيس القبيلة، وفرسانها، وساداتها. وقد مجّد الشعراء ممدوحيهم بمديحهم الذي يضعونه على طاولتهم، لما أبدوه من صنيع يستحق الذكر والتنويه، فهو أقرب ما يكون الى الحمد والعرفان. وهذا ما سيتضح من خلال التجوال مع الشواهد الشعرية.

وربما قال الشاعر مدحته من أجل التكسب، فكان الشعراء يتصلون بأرباب البلاطات، فيمدحونهم ويخلعون عليهم الصفات المدحية كالكرم والشجاعة والعدل والعظمة.

وهذا التكسب جعل الشاعر لايفكر كثيراً بما في الممدوح من صفات سمو وكمال حَقَّةٍ في بعض الأحيان، بقدر ما يفكر به من عطاء ونوال. وبعبارة اخرى إنّ الشاعر يضفي على ممدوحه صفات كمال لم تكن فيه.

وقد يعرب الممدوح خلال تلقيه للمديح عن الاستجابة أو الرفض، ونتيجة لذلك، فالممدوح يتصرف باكرام الشاعر مادياً أو معنوياً مرة أخرى أو بالاعراض عنه مرة ثالثة.

وفي هذا الفصل، ومن خلال استقراء الوقائع والاحداث التي رويت في كتب النقد سنتبين طرائق الاستجادة والعوامل المؤثرة فيها وتجلياتها والمعوقات التي تحول دونها. وسيتابع الباحث ذلك ابتداءً بالممدوح الجاهلي كاشفاً عن تلك الطرائق والمؤثرات والتجليات والمعوقات بحسب ما يحتمله النص . وكذلك مع الممدوح الاسلامي والاموي والعباسي.

تلقي الممدوح الجاهلي لغرض المديح

من خلال اطلاعنا على كتب النقد الادبي القديم، تم الوقوف على وقائع ومرويات يستشف من خلالها مراد البحث.

فقد ذكر أن النابغة الذبياني جاء يمدح النعمان بن المنذر فقال[1]:

تراك الأرض إمّا متَّ خَفّاً وتحيى إنْ حييت بها ثقيلا

فلم يستحسن النعمان قول النابغة. فقال له: إن هذا البيت إنْ لم تتبعه بما يوضح معناه كان الى الهجاء أقرب منه الى المديح[2] فهذه احدى صور النقد في الجاهلية وهي تدل

[1] ديوان النابغة الذبياني:98.
[2] ينظر: الموشح، المرزباني: 58، 46.

على أن الممدوح ذو مكانة ثقافية واجتماعية شكلت عاملاً مؤثراً في عملية تلقي المدح والاستجابة له، فالشاعر لم يكن موفقاً في بعض ابيات قصيدته، لأن الفاظه خالفت المعاني التي رمى اليها، فهناك غموض في معنى البيت. وهذا موضع غير مناسب للممدوح تنبه عليه الممدوح نفسه. وقيل أن كعب بن زهير استدرك على النابغة ببيت يوضحه فقال:

وذاك بأن طلبت العز منها فتمنع جانبيها أن يزولا

فجاء النابغة به الى ممدوحه فأرضاه، وأخذ منه مائة ناقة سوداء[3]. فقد عبّر الممدوح عن استجادته لبيت النابغة بطريقة مادية (العطاء) بوصفه طريقة من طرائق استجادة الممدوح الجاهلي لغرض المديح، بعد ما أتبعه ببيت آخر يوضحه.

وانشد النابغة الذبياني النعمان بن المنذر –بعد أن دخل عليه- "قصيدته التي على الباء والتي على العين وكان يوم تَرِدُ فيه النعم السود بأرض العرب ولم يكن بعير اسود إلاّ له. فأمر له منها بمائة بعير، معها رعاؤها ومظّالها وكلابها"[4]. وما هذا العطاء الاّ استحسان مِنهُ للقصيدتين اللتين وقعتا أَجَلّ موقع من نفس الممدوح.

أما القصيدة التي على الباء فمنها قوله[1]:

اَلم تر أن الله أعطاك سَوْرَةً ترى كلّ ملك دوُنها يتذبذبُ
بإنكَ شمسُ والملوكُ كواكبُ اذا طَلَعَتْ لَمْ يَبدُ مِنهُنَ كوكبُ

اما التي على العين فمنها قوله[2]

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإنْ خِلْتُ أنّ المنتأى عنك واسعُ

وقال:

خطاطيفُ حجن في حبال متينةٍ تمد بها أيدٍ اليك نوازع

ومما أجاده الشاعر في قصيدته البائية هذه؛ التشبيه، حتى تغنّى ببهاء الملك وزهوه حين شبهّه بالشمس، وشبّه الملوك بسائر الكواكب. وفي هذه القصيدة العينية، نجد الشاعر يقلّب الصورة ليعطينا الجانب الآخر، الذي وجده أهلاً للمدح وهو سطوة الملك واتساع سلطانه، حين شبهه بالليل الذي لايمكن الهروب منه.

فقد جمع الشاعر طرفي الدهر، وهما الليل والنهار في قصيدتين ، لينسج منها حلّتين يهديهما لممدوحه الذي استجاب لهذه الهدية بمثلها.

ولما أنشده قصيدته التي منها[3]:

أخلاقُ مَجْدٍ تجلّت مالَها خطرُ في البأس والجود بين الحلم والخفر
متوج بالمعاني فوق مفرقه وفي الوغى ضيغم في صورة القمر
إذا دهى الخطب جلاّه بصارمه كما يجلّى زمان المحل بالمطر

---

(3) ينظر: مواقف في الادب والنقد، د.عبد الجبار المطلبي: 201، ومقالات في تاريخ النقد العربي، د. داود سلوم: 33، ونشأة النقد الادبي حتى نهاية القرن الاول الهجري، د. احمد يوسف: 25-26.

(4) الشعر والشعراء، ابن قتيبة: 62-63.

(1) ديوان النابغة الذبياني: 17.

(2) م.ن:81

(3) ديوان النابغة الذبياني:73

"وعلى هذا الشعر حشا النعمان بن المنذر فم النابغة دراً" [4] وقد قيل تهلل وجه النعمان سروراً، بعد أن وقعت موقعاً حسناً في نفسه فأمر أن يحشى فم النابغة دراً وكسي أثواب الرضا، وكانت جباب أطواقها الذهب بقصب الزمرّد، ثم قال النعمان: هكذا فليمدح الملوك[1].

وفي هذا النص أعرب الممدوح عن استحسانه لأبيات النابغة بطريقة معنوية (تَهَلّلَ وجهه سروراً) وقوله (هكذا فليمدح الملوك) هذا من جهة ، ومن جهة أخرى بطريقة مادية (الدّر والاثواب). فتمثل النقد هنا بثلاث جوانب، الانطباعي، القولي، المادي.

وكان الاعشى يَفِدُ على ملوك الحيرة ويمدح الاسود بن المنذر أخا النعمان. وَمِنْ مَدْحِهِ له قصيدته[2]:

ما بكاء الكبير بالاطلال و سؤالي و هل ترد سؤالي
دمنة قفرة تعاورها الصيـ ف بريحين من صبا و شمال
حلّ اهلي بطن العميس فيادوا لي وحلّت غلوية بالسّخالِ
[...]
أنت خير من ألف ألفٍ من النا س إذا ما كبت وجوه الرجال

فقال له الممدوح وكان في قلبه شك من شعره، لعلك تستعين على شعرك هذا، فقال له الاعشى : احبسني في بيت حتى أقول، فحبسه فقال قصيدة أولها[3]:

أأزمعت من آل ليلى ابتكارا وشطت على ذوى هوى أن تزارا

وقيل أن الشاعر لَمْ يُوفق في ذلك الابتداء لأنه جاء بما ينغّص الممدوح بقوله (ما بكاء الكبير). فينبغي أن تكون الابتداءات حسنة لأنها أول ما تقرع الاسماع وهي من دلائل البيان[4]. ومثل هذا الاستهلال لايتناسب ومنزلة الممدوح مما يجعله من معوقات استجابة التلقي. وقد عيبت ابتداءات ونصوص كثيرة أخفقت في نيل رضا الممدوح واثارة استحسانه واعجابه، لهذا يجب على الشاعر اذا أراد ذكر الديار والاطلال أن يتحرز مما يتطير منه المتلقي كذكر البكاء ونعي الشباب في المدائح والتهاني[1].

ومما عابه الممدوح قيس بن معد يكرب على الاعشى قوله[2]:

ونبئتُ قيساً وَلَم آتــه وقد زعموا ساد أهل اليمنْ
فجئتك مرتاد ماخبروا ولولا الذي خبروا لم ترنْ

---

[4] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق: 2/ 19.
[1] ينظر: فن المديح وتطوره في الشعر العربي، احمد أبو حاقة : 11.
[2] ديوان الاعشى: 30، وينظر: الشعر والشعراء: 115.
[3] ديوان الاعشى: 45، وينظر: الشعر والشعراء: 115.
[4] ينظر: البديع في نقد الشعر، اسامة بن منقذ: 219، والاستهلال فن البدايات في النص الادبي، ياسين النصير: 22-24.
[1] ينظر: عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي: 123، والموشح: 371، وكتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري: 451/2، والبديع في نقد الشعر: 285.
[2] ديوان الاعشى:25وفيه(ولم أبْلُه) بدلاً من(ولم آته) و"كما زعموا خير أهل اليمن".وينظر:الموشح:72-73.

فلم يقع هذا المدح موقعه في نفس الممدوح، مما جعله عيبا على الاعشى لأن في البيت الاول خطأ معنوياً ولأن الزعم في الجاهلية عيب، اذ جعل الشاعر سيادة قيس على أهل اليمن زعماً لا حقيقة والزعم (مطية الكذب) وذلك لان المعرفة في فهم الالفاظ وفي استعمالها كان يتحراها كل عربي فقد جاءت هذه الالفاظ مخالفة للمعاني ثم أنها لاتنسجم ومنزلة الممدوح الأجتماعية. وهذا –أي الزعم- يشكلُ عائقاً لاستجابة تلقي المديح. وان مكانة الممدوح الاجتماعية، -بوصفها عاملاً مؤثراً في تلقي المدح- جعلته يتنبه على ذلك العائق ولما علم الاعشى أن قيسا استنكر ذلك عليه، أبدله قائلاً:

ونبئت قيسا ولم آته على نأيه ساد اهل اليمن[3]

ولما أَسَرَ الحارث بن ابي شمر الغساني شأساً أخا علقمة مع جماعة من الرجال، أتاه علقمة متوسلاً بقصيدة يمدحه بها أولها[4]:

طحا بك قلبٌ في الحسان طروبُ بُعيْدَ الشباب عصَر حان مشيبُ

حتى إذا بلغ الى قوله:

الى الحارث الوهاب أعملت ناقتي لكلكلها والقصريين وجيبُ
اليك –أبيت اللعن- كان وجيفها بمشتبهات هولهنّ مهيب
هداني اليك الفرقدان ولا حِبٌ له فوق أعلام المتان علوب
فلا تحرمَنّي نائلاً عن جنايةٍ فإنى امرؤ وسط القِباب غريب
وفي كُلِ حيّ قد حبطتَ بِنعمةٍ فحُق لشأسٍ من نَدَاكَ ذَنوبُ

فقال الحارث: نعم واذنبهُ، واطلق له شاساً أخاه، وجماعة اسرى بني تميم ومن سأل [...][1]. وهكذا كان للشاعر تأثير كبير في ممدوحه فقد وقعت هذه القصيدة موقعاً جليلاً في نفسه فأشفع في اطلاق أخيه وسبعين رجلاً من بني تميم. وقد سلك الشاعر في مدحته الاسلوب التقليدي في المدح من مقدمة طللية الى وصف الرحلة وشكا الى ممدوحه مالاقاه وناقته من عناء، ليصل الى المدح، وابتعد الشاعر عما يثير حفيظة الممدوح من الفاظ ومعان لها صلة بالتشاؤم أو التطير، فقد كان حذراً في مدحه لانه كان محكوماً بدافعي الخوف، والرجاء: الخوف على أخيه شأس من بطش الحارث، ورجاء الشاعر أن يرى ممدوحه في القوم رأياً آخر وهو العفو عنهم، وكان له ما أراد.

وفي هذا النص نستشف ان الممدوح قد استجاد الشعر وأعرب عن ذلك باطلاق سراح شأس ومن معه لتأثره بهذا المدح، هذا اولاً. وتبين لنا أيضاً ان الشاعر ذو مكانة ثقافية ودراية واسعة في غرض المديح مما جعله يبتعد عن كل ما يعيق التلقي والاستجابة كأبتعاده عن الالفاظ التي لاتصلح للمدح، ومما يُتطير منه كالابتداءات غير الموفقة والمعاني التي هي على صلة بالتشاؤم.

---

[3] ينظر: الموشح: 73، وتاريخ النقد الادبي عند العرب، د. عبد العزيز عتيق: 22، ودراسات في نقد الادب العربي من الجاهلية الى نهاية القرن الثالث، د. بدوي احمد طبانة: 64.

[4] ديوان علقمة: 33.

[1] ينظر: الشعر والشعراء: 95. والعمدة : 57/1 وقد زاد فيه الأبيات الاربعة الاخيرة. وفيه (بالحسان) وليس (في الحسان).

وفي ضوء ذلك يتضح أن الممدوح الجاهلي كان يعرب عن استجادته وتلقيه لغرض المديح بطرائق معنوية (هكذا فليمدح الملوك)، و(نعم واذنبة) مرة، وبالتصرف مرة أخرى : (العفو عن الأسرى).

وبطريقة مادية (عطاء الابل، والثياب والدر).

وقد أثرت في تلقي المديح عوامل منها المكانة الاجتماعية والثقافية للممدوح والمادح. ومنها ما تنبّه اليه النعمان بن المنذر عندما مدحه النابغة الذبياني في قوله له:

تراك الأرض إما مُتّ خفا ...

فأراد من الشاعر أن يوضح معناه ببيت آخر لأنه كان الى الهجاء أقرب.

ومنها أيضاً ما يتعلق بالمكانة الثقافية للمادح ومثالها تشبيه النابغة للممدوحه بالشمس وباقي الملوك بالكواكب حين قال:

بانكَ شمسُ والملوكُ كواكب...

وثمة معوقات حالت دون استجابة وتلقي غرض المديح تتمثل بالمواضع غير المناسبة ومنها الاستهلال غير الموفق من مثل قول الاعشى لممدوحه:

ما بكاء الكبير بالأطلال ...

كذلك منها الالفاظ التي لاتنسجم ومنزلة الممدوح وتشكل خطأً معنوياً مثل قول الأعشى:

ونُبّئتُ قيساً وَلَمْ آتـهِ وَقَدْ زَعموا سَادَ أَهل اليمنْ

تلقي الممدوح الاسلامي لغرض المديح

وبعد أن انتهينا من الكشف عن تلقي المديح عند الممدوح الجاهلي، سنحاول الكشف عن التلقي لدى الممدوح الاسلامي من خلال استقراء مارُوي من وقائع بين المادح والممدوح.

ذكر ابن سلام أن أبا طالب كان "شاعراً جيد الكلام، وابرع ما قال قصيدته التي مدح بها النبي (ﷺ):

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل"[1].

وقد روى أن الرسول الكريم (ﷺ) "استسقى يوماً فسقي فقال: لله در أبي طالب لو كان حياً لقرّت عينه من الذي ينشد؟ فقال عليّ [عليه السلام] كأنك أردتَ قولَ أبي طالب:

وأبيض يُستَسقى الغمامُ بِوجهه ثِمالُ اليتامى عِصْمَةُ للأرامِلِ"[2]

فالراوية تشير الى أن الرسول اعرب عن استجادته لبيت أبي طالب بطريقة معنوية لفظية بقوله: (لله درّ أبي طالب) وقوله هذا يُعدُّ دعاءً. ومثل هذا الدعاء لم نألفه في العصر الجاهلي.

والرسول الكريم (ﷺ) له قصّة مع كعب بن زهير في مدحه إياه بقصيدته المشهورة بالبردة[3]:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يُفدَ مكبولُ

التي نالت اعجاب الرسول الكريم (ﷺ) وتأثره بهذا الشعر العذب. ويقال أنه لما بلغ قوله:

إنّ الرسول لنورُ يستضاءُ به مهند من سيوف الله مسلول[*]

اشار الرسول (ﷺ) الى من عنده أن يسمعوا هذا الشعر[1]. حين وصل الشاعر الى قوله:

كلُ ابن أنثى وان طالتْ سلامتُهيوماً على آلةٍ حدباء محمولُ

نبئت أن رسول الله أوعدنــي والعفو عند رسول الله مأمولُ

نهض المصطفى (ﷺ)، ورمى بردته عليه وأعطاه الأمان[2]. وما هذا الا تعبيرُ عن استحسانه هذا المديح واعجابه الدال على ذوقه الفتي وحسه المرهف في الادب والنقد.

لقد تمكن الشاعر من الوصول الى تحقيق مراده من ممدوحه صاحب المكانة الاجتماعية الرفيعة بفعل التطور الفكري والحضاري اللذين احدثتهما بيئة الاسلام لما صاحبها من تطور عقلي وفكري وهذا يعد عاملاً مؤثراً في تلقي المديح والإستجابة له.

وقد ترجمت هذه القصيدة الى لغات مختلفة وحظيت بالاهتمام اكثر من غيرها وهذا دليل على ثقافة الشاعر ومنزلته الاجتماعية التي جاءت من تطور المجتمع[3]. ولاشك في أننا نلمس بعضاً من هذا التطور الذي طرأ على شعر كعب في بعض الفاظه ومعانيه التي

---

(1) طبقات فحول الشعراء، ابن سلاّم: 244/1، وديوان شيخ الأباطح ابي طالب: 6.

(2) م.ن: 244/1.

(3) شرح ديوان كعب بن زهير:6، وينظر: تاريخ النقد الادبي عند العرب – من العصر الجاهلي الى القرن الرابع الهجري، طه احمد ابراهيم: 30.

(*) ورويت في بعض المصادر (مهند من سيوف الهند) وابدلها الشاعر عندما قال النبي (ﷺ) قل من (سيوف الله).

(1) ينظر: طبقات فحول الشعراء 102/1، والأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني : 15/ 345.

(2) ينظر: طبقات فحول الشعراء: 100/1، والشعر والشعراء: 59.

(3) ينظر: تراثنا الأدبي، ابراهيم أبو الحشب: 105، وفن المديح: 126، والمديح، سامي الدهان: 73.

جاءت تحمل نفحات دينية واضحة أضفت على الشعر صفة الهدوء والرصانة والخلق الحميد والسير بطريق العفّة والوفاء، زيادة على أنّ الاسلام حَمَل المثل العليا التي أضافت الى شعر المديح مادة ومعاني لم يألفها العصر الجاهلي من قبل[4].

وقد ذكر أن اعرابيا وقف على دار الامام علي بن ابي طالب [عليه السلام] فدفع اليه الامام حلقه فلما اخذها قال:

كسوتني حُلّةً تُبلى محاسنها ... فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إنّ الثناء ليحمي ذكر صاحبه ... كالغيث يحَمي نداه السهلَ والجَبلا
لاتزهد الدّهر في عرف بدأت به ... فكلُ عبدٍ سيُجْزى بالذي فَعَلا

فقال الامام علي [عليه السلام][1] بعد استجادته هذه الأبيات: "ياقنبر أعطه خمسين ديناراً. أما الحُلّة فلمسألتِك، وأما الدنانير فلأدبك، سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: (أنزلوا الناس منازلهم" وقد عبّر الامام [عليه السلام] بطريقة مادية تمثلت (بالعطاء المادي) وبطريقة لفظية تمثلت في قوله: (واما الدنانير فلأدبك).

ومن أجواد العرب في العصر الاسلامي، عُرابة الاوسي الذي مدحه الشماخ بن ضرار (ت33هـ) بقوله[2]:

رأيتُ عرابة الأوسي يسمو ... الى الخيرات منقطع القرين
إذا ما رايةُ رفعت لمجد ... تلقاها عرابةُ باليمين
اذا بلغتني وحملت رحلي ... عرابةُ فاشرقي بدم الوتين

فلم يبال الشاعر بهلاك ناقته، ثقة بجود ممدوحه وكرمه، إلاّ أن الممدوح لم يستحسن قوله (اشرقي بدم الوتين) فكشف عن ذلك بقوله: بئس ما كافأتها به[3]. وقول الشاعر في ناقته جاء في موضع غير مناسب لتلقي المديح، وبالتالي فهو معوق لاستجابة المديح وتلقيه. ولكن باحثا معاصراً يرى أن الشماخ بدوي خشن، ولم يجد هذا المعنى الاّ بهذه العبارة، ويراه صادقاً في احساسه وفي ترجمة خشونته بينما كان الممدوح (عرابة) مدنيا لذا لم يرض. وكان لابد من اختلاف التقدير لأختلاف البيئتين والمزاجين[4].

وذكر ابن رشيق، (ت 456هـ) أنه بذل له في سنة شديدة، وَسَق بعير تمرا. وقيل أن عرابة صحبة وسأله عما يُريد، فقال أريدُ أن أمْتَارَ، وكان معهُ بعيران، فأنزله وأكرمهُ واوقر لَهُ بعيريه تمرا وبراً، فقال فيه هذه الأبيات[5].

وذكر أن الشعراء حضروا عند المهلب بن ابي صفرة فكان من بينهم المغيرة بن حبناء الذي أنشده:

حان الشجا دون طعم العيش والسهر ... واعتاد عينك من إدمانها الدّررُ

---

(4) ينظر: فن المديح: 132-133.
(1) العمدة: 29/1.
(2) ينظر: ديوان الشماخ: 335، والشعر والشعراء: 146، والعمدة: 41/1.
(3) ينظر: الموشح: 98.
(4) ينظر: مواقف في الادب والنقد: 141.
(5) ينظر: الشعر والشعراء: 146، والعمدة : 41/1.

واستحقبتك امور كنت تكرهها لو كان ينفع منها النأي والحذرُ

وحين فرغ من انشاده قال له المهلب: هذا الشعر لا ما نتعلل به منذ اليوم، وأمر له بعشرة ألاف درهم مع فرس[1]. وهذه الجائزة ما جاءت الاّ عن استحسان الممدوح لهذه الأبيات الذي تمكن الشاعر من أن يَسُّر قلبَه بها. فأكرَمَهُ بلفظ ومادة. وهذه من طرائق الاستجابة لتلقي المديح.

وفي ضوء ما تقدم تبين لنا أن تلقي المديح في العصر الاسلامي قد طرأت عليه بعض التغيرات أو التطورات في طرائق التلقي والعوامل المؤثرة فيه، ومعوقات الإستجابة، فقد تجلت لنا طرائق استجادة جديدة لم تصدر عن الممدوح الجاهلي من مثل؛ الدعاء مثل :(لله در ابي طالب). هذا من جهة اللفظ أما من جهة العطاء المادي فقد تطور من عطاء إبل وما يلحقها الى عطاء الخلع والدنانير والدراهم.

ومن جهة تصرف الممدوح تعبيراً عن الاستجادة، برز الأمر بسماع الشعر كما حدث مع كعب في مدحته الرسول (ﷺ) واعطائه الأمان. وقد أثّرت في مثل هذه الطرائق في تلقي المديح، عوامل منها: التطور الفكري والحضاري الذي أحدثه الاسلام في المجتمع العربي والمكانة الثقافية والاجتماعية للمادح والممدوح. ومما يوضح ذلك قصيدة كعب بن زهير التي حملت الفاظاً ومعاني اسلامية دالة على التطور الفكري والحضاري. وعامل آخر هو مكانة الشاعر الثقافية التي راعى من خلالها المنزلة الاجتماعية للنبي (ﷺ)، وذوقه المرهف.

إن هذه الالفاظ والمعاني الجديدة التي لم يألفها العصر الجاهلي والتي جاء بها كعب شكّلَتْ تجليا من تجليات التغير في الالفاظ والصّفات المدحية.

تلقي الممدوح الاموي لغرض المديح

وحين نصل الى العصر الاموي نجد قصيدة المديح لم تجر على نمطها القديم بسبب اختلاف الحياة وانتقال العرب الى اقاليم جديدة، وتأسيسهم دولة دينية تعتنق مثالية جديدة، كما أن في هذا العصر أخلاقية تُسْتَمّدُ من الايمان بالله ورسوله. لذا فان الممدوح الاموي كان يُدْلي ويقول ملاحظاته النقدية عندما يتلقى مدحه الشاعر معبراً عن تلك المدحة بالقبول أو الرفض بالطرائق المعهودة لأستجابة المديح، والتي ستكشف عنها من خلال الوقائع والمرويات التي سندرسها في هذا العصر.

فقد رُوِيَ أن الصولي قال "أخبرنا أبو العيناء عن الاصمعي قال: اجتمع جرير والفرزدق عند الحجاج (ت90هـ) فقال: من مدحني منكما بشعر يوجز فيه ويحسن صفتي فهذه الخلعة له. فقال الفرزدق[1]:

فمن يأمن الحجاج والطير تتقي عقوبته إلاّ ضعيف العزائم.

وقال جرير[2]:

---

[1] ينظر: حلية المحاضرة، الحاتمي: 338/1.

[1] ديوان الفرزدق: 204.

فمن يأمن الحجاج أما عقابه فمر و أمـا عقـده فوثيـق
يسرُ لك البغضاء كل منافق كما كلّ ذي دين عليك شفيق

فقال الحجاج للفرزدق: ما عملت شيئاً أن الطير تنفر من الصبي والخشبة؛ ودفع الخلعة الى جرير"[3]. وقيل أن الحجاج قال والطير تتقي الثوب وتتقي الصبي ماجئت بشيء[4] وفي رواية أنه قال: "والطير تتقي عقوبته كلام لاخير فيه لان الطير تتقي كل شيء : الثوب والصبي وغير ذلك، خذها ياجرير"[5].

فنجد أن الممدوح استحسن ذلك من جرير فقال (خذها ياجرير) ولم يستحسن من الفرزدق لأنه لم يجيء بشيء وهو أقل مكانة ثقافية –كما يرى الحجاج- وربما يعود الأمر الى اختلاف الذائقة اللغوية بين المادح والممدوح هنا بسبب عدم تمكن الفرزدق من ايصال الشفرة الكلامية والسياق اللغوي اذ كان الفرزدق يقصد الطير التي في السماء فلن تنالها اليد. واذا كان كذلك فالفرزدق اكثر ثقافة من ممدوحه.

ومدح جرير الحجاج بقصيدة اخرى وكان من حسن حظه أنه استجاد شعره فقد قال في مدحه إياه[1]:

صَبَرْتَ النّفسَ يا ابنَ أبي عَقيلِ مُجاهدةً فكيفَ تَـرى الثَّوابا
[...]
اذا سَعَـرَ الخليفةُ نارَ حـربٍ رأى الحّجـاجَ أثقبها شهابا

فنالت اعجاب الممدوح وأعرب عن هذا الاعجاب بأكرامه ودنوه، وايفاده الى عبد الملك[2].

ويروى أن ذا الرمة أنشد بلال بن أبي بردة قصيدة منها[3]:

رأيتُ الناسَ ينتجعونَ غيثاً فقلتُ لصيدحَ انتجعي بلالاً

فلما سمع بلال بهذا البيت غضب وقال: يا غلام اعلفها قتاً ونوى. أراد بذلك قلة فطنة ذي الرمة للمدح، وفي رواية أخرى قال: ياغلام مُرْ لها بقت ونوى. أراد أن ذا الرمة لايحسن المدح[4]. وقوله هذا يعني أن بلالاً لم يستجد هذا الشعر وأراد القول إن مكانة الشاعر الثقافية والاجتماعية بسيطة ولم تكن بالمستوى الجيد. وهذه الالفاظ التي جاء بها الشاعر خالفت معانيها لانها لاتليق بمنزلة الممدوح من أجل ان (صيدح) اسم ناقته.

ويتضح من كلام الممدوح انه لم يستحسن المدح. وقد أثرت في ذلك المكانة الثقافية المتدنية للمادح والمكانة الاجتماعية للممدوح. اما الالفاظ فكانت في غير موضعها المناسب وهي من معوقات التلقي والاستجابة. ولو خاطب الشاعر نفسه لكان اقرب الى التوفيق.

ونجد الممدوح الأموي يسجل ملاحظاته النقدية حين يتلقى المدحة من خلال طرائق الاستجابة. ومثل هذه الملاحظات النقدية كانت تحاول أن تضع أصلاً من اصول المخاطبة

---

(2) ديوان جرير:315.
(3) كتاب الصناعتين : 107/1.
(4) ينظر: الموازنة، الآمدي: 1/ 44-45، وسر الفصاحة، ابن سنان: 256.
(5) الموشح: 113.
(1) ديوان جرير: 21.
(2) ينظر: الشعر والشعراء: 232.
(3) ديوان ذي الرّمة:64.
(4) ينظر: الموشح: 281.

للممدوحين وكل بحسب منزلته والمعاني التي تحسن فيه ولا تحسن في غيره[1]. ولم يفلح بعض الشعراء في مخاطبة ممدوحيهم كجرير (ت110هـ) بن عطية مادحاً بشر بن مروان[2]:

قد كان حقك أن تقول لبارق يا آل بارق فيم سُبَّ جريرُ

فقال الممدوح: أما وجد ابن المراغة رسولاً غيري؟ وقيل انه قال: أما وجد ابن اللخناء رسولاً غيري[3]. فالشاعر ممثل شعبي في ذوقه وموقفه يرى في الخليفة مايراه في شيخ القبيلة فقد ظن أن الدنيا لم تتغير والزمان لم يتطور. والخلاف في هذه الرؤيا جعل المادح يكلم الأمير كما يكلم ابن عمه وأخاه في حين يرى الأمير نفسه فوق الناس وان فيه شيئاً ميّزه عنهم هو الترف والسيف[4]، بوصفهما المكانة الاجتماعية التي صارت عاملاً مؤثراً في عملية التلقي.

وقد عبّر الممدوح عن عدم استجادته بطريقة لفظية قائلاً: (أما وجد ابن المراغة رسولاً غيري) وأراد قلة فطنة الشاعر الذي لم يراع مكانة ممدوحه ، لأنه جاء بالالفاظ التي لا تتفق ومنزلته الاجتماعية وبالتالي فهذه معوقات لتلقي المديح واستجابته.

وانشد ابن قيس الرقيات عبد الله بن مروان مدحته التي منها[5]:

إنّ الحوادث بالمدينة قد أوجعنني وقرعن مرْوَتِيَهْ
وجبنني جبّ السّنام ولم يتركن ريشا في مناكبيهُ

فقال عبد الملك: أحسنت لولا أنك أخنثت في قوافيك[6] وهذا يعني أنه لم يستسغ القافية اللينة الرخوة مما جعلها عائقاً في عملية التلقي. وقد احتجّ الشاعر بكلام الله ردّاً على تعليق الممدوح فقال "ماعدوت كتاب الله ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيه ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيه﴾[1]"[2]. وهذا مما يكشف عن مكانة الشاعر الثقافية التي اختلفت عن مكانة ممدوحه جرّاء تأثره بالتبدل الفكري والحضاري الذي أحدثه الاسلام. وهذا التباين بين موقفيهما يدل على اختلاف ذائقة المادح عن ذائقة الممدوح التي تُعدّ عائقاً لاستجابة تلقي المديح.

ويستمع عبد الملك ايضاً الى ابن الرقيات في قوله مادحاً له:[3]

إنّ الاغرَ الذي أبوه أبو العا صي عَلَيه الوَقارُ والحجبُ
[...]
يَعتدلُ التاجُ فوْقَ مَفرِقِه على جَبينٍ كأنّه الذّهبُ

---

(1) ينظر: نقد الشعر، قدامة بن جعفر: 26، ومحاضرات في تاريخ النقد عند العرب، د. ابتسام مرهون الصفار: 65.
(2) ديوان جرير: 233.
(3) ينظر: الموشح: 189، وسر الفصاحة: 250.
(4) ينظر: مقالات في تاريخ النقد العربي: 71.
(5) ديوان عبيد الله ابن قيس الرقيّات: 98.
(6) ينظر: الشعر والشعراء: 272، والموشح: 295، وكتاب الصناعتين: 2/ 471.
(1) الحاقة/ 28-29.
(2) كتاب الصناعتين: 471/2.
(3) ديوان عبيد الله ابن قيس الرقيات:5، وورد فيه: "إن الفنيق الذي أبوه أبو العاصي عليه الوقارُ والحجب".

ويوازن عبد الملك بين هذا القول وقوله في مصعب بن الزبير[4]:

انّما مِصعبٌ شهابٌ مِن الله تَجلّتْ عنْ وَجهه الظّلْماء
مُلكُهُ ملكُ عزةٍ ليسَ فيه جبروتٌ ولا به كبرياءُ

وينكر عبد الملك على ابن الرقيات مدحه بمثل هذه الصفات ولم يستحسنها معبراً عن ذلك بقوله: أتمدحني بالتاج كأني من ملوك العجم وتمدح مصعباً كما تمدح الخلفاء فأعطيه المدح بكشف الغمم وجلاء الظّلم، واعطيتني من المدح ما لافخر فيه[5].

ويتضح من النص أن الممدوح قد تنبّه على الصفات المدحية في مصعب التي تنطوى على نفحات اسلاميّة، فوجدها افضل من تلك الصفات الدنيوية التي امتُدِحَ بها[6]. ومثل هذا الأمر يدل على وعيه الثقافي ومكانته الاجتماعية هذا من جانب العوامل المؤثرة في التلقي أما من جانب الصفات التي طالب بها الممدوح فهي تجليات التغير في المديح، التي عكسها التطور الزمني والحضاري.

وقد رسم عبد الملك بن مروان الصورة المفضلة للمديح حين قال للشعراء: تشبهوني مرة بالأسد ومرة بالبازي او بالصقر. ألا قلتم كما قال الاشقري:

ملوكُ ينزلونَ بكل ثغرٍ إذا ما الهامُ يومَ الروعِ طارا
رزانُ في الأمور ترى عليهم من الشيخ الشمائِل والنجارا
نجومُ يُهتدى فيها إذا ما أخو الظلماء في الغمرات حارا[1]

فالممدوح يحبذ مثل هذه الصفات التي أشار اليها لانها تقع موقعا حسناً من نفسه، فالعمل والسعي من أجل الرعية والشجاعة وحماية الامة؛ وكل هذه الصفات من مكونات الخليفة الناجح[2]. وقيل انه قال: ألا قلتم كما قال ابن خريم في بني هاشم[3]:

نهاركم مكابدةُ وصومُ وليلكُمُ صلاةُ واقتراءُ
وليتم بالقران وبالتزكي فاسرعَ فيكمُ ذاك البلاءُ[4]

فعبد الملك استحسن هذه الابيات وعبّر عن ذلك بطريقة لفظية بقوله: ألا قلتم كما قال ابن خريم.

ومن النصيّن نجد أن الممدوح لايريد أن يوصف بصفات جسمانية وانما بصفات معنوية اخلاقية اسلامية مثلت تجليات تغير في صفات المديح[5]. وقد تنبه الممدوح على ذلك نتيجة التطور الفكري والحضاري الذي طرأ على المجتمع الاسلامي.

وقد وجد عبد الملك مراده حين وجّه الشعراء الى صورة المديح الحَسن عند الاخطل، في مدحته التي أولها[6]:

خفَّ القطينُ فَراحوا منكَ أو بكروا وأزْعَجَتهُم نوى في صرفها غِيَرُ

---

[4] ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: 91.
[5] ينظر: على سبيل المثال: نقد الشعر 66 و 189، والموشح: 294، وكتاب الصناعتين: 104/1.
[6] ينظر: تاريخ النقد الادبي عند العرب: 134-135، ونشأة النقد الادبي: 69.
[1] ينظر: الأغاني: 272/25.
[2] ينظر: نشأة النقد الادبي: 80، والنقد الادبي، أحمد أمين: 2/ 466.
[3] ديوان ايمن بن خريم: 23.
[4] ينظر: الاغاني: 25/ 272 و 20/ 310، والشاعر الاسلامي تحت نظام سلطة الخلافة، داود سلوم: 74.
[5] ينظر: نقد الشعر: 85، ونشأة النقد الأدبي: 82.
[6] شعر الاخطل: 192.

وهذه النظرة اكدتها الفلسفة الاسلامية من خلال القيم الجمالية الروحية لأن جمال الشكل يتغير والجمال الروحي هو الثابت.

فقال عبد الملك مستحسناً هذا الشعر: ويحك يا أخطل أتريد أن اكتب الى الآفاق أنك اشعر العرب، وأمر له بجفنة كانت بين يديه فملئت دراهم وألقى عليه خلعاً، وخرج به مولى لعبد الملك على الناس يقول هذا شاعر أمير المؤمنين هذا أشعر العرب[1].

وقد أعرب الممدوح في هذا النص عن استجادته للمدح بطرائق متنوعة: لفظية (ويحك...) ومادّية (الدراهم والخلع) ومن خلال التصرف (خرج به مولى...) وَمَن يتأمل مديح الأخطل يجد أن معاني المديح وصفاته قد تنوعت في هذه القصيدة، فنرى الشاعر يصف ممدوحه بأنه خليفة الله مرة:

الخائضُ الغمرُ والميمون طائرُهُ خَليفةُ الله يُستَسْقى به المَطَرُ

وبأنه إمام مرة اخرى:

الـى امامٍ تغادينا فواضِلُـهُ أظفرهُ الله فليهنئ لَهُ الظَّفرُ

ثم ينتقل فيصف خُلُقه:

وما الفرات اذا هبَّ الرياحُ لَهُ تمرى أواذيّهُ العِبرَين بالزَّبد[*]

هذه القصيدة بنيت كبناء النابغة في مدحه للنعمان بن المنذر[2]، الا أن التغير في المعاني والصفات المدحية يعدّ من تجليات التغير في المديح والاستجابة له.

وقد قيل أن الممدوح تطير من ابتداء الاخطل ومخاطبته بكاف الخطاب بقوله: "منك" في مطلع القصيدة، فقال الممدوح: لا بل منك، معرباً عن عدم استجادته لان الشاعر استهل قصيدته بابتداء غير موفق، وهذا مما لايتناسب ومنزلته الاجتماعية مما يعدّ عائقاً لتلقي المدح. ولما أحس الشاعر بعدم الرضا، ابدل بقوله (منك) كلمة (اليوم). فقال:

خفّ القطين فراحوا اليوم أو بكروا وازعجتهم نوى في صرفها غير[3]

وقال الشاعر يمدح عبد الملك أيضاً:

شمس العداوة حتى يستقادَ لهم واعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

فقال عبد الملك بعدما نالت هذه القصيدة اعجابه: هذه المزمرة والله لو وضعت على زبر الحديد لأذابتها ثم أمر له بخلع فخلعت عليه حتى غاب فيها وجعل يقول: إن لكل قوم شاعراً، وإن الأخطل شاعر بني أميّة. وهذا البيت هو أسْيَرُ ما قيل في المدح[1].

وقد أعرب الممدوح عن اعجابه بهذه القصيدة بطريقتين مادية اذ خلع عليه، ومعنوية اذ اطلق عليها (المزمرة) ثم قوله والله لو وضعت على زبر الحديد لأذابتها. وهذا ينم عن تمكن الشاعر من ايصال مدحته الى ممدوحه والنفاذ الى قلبه فقد أختار الفاظاً ومعاني تليق بالممدوح.

ويروى أن كثيّراً أنشد في عبد الملك يمدحه[2]:

---

[1] ينظر: الاغاني: 287/8.

[*] تمري= تحلب، الأواذي= الامواج، العبرين = الشاطئين.

[2] ينظر: التطور والتجديد في الشعر الاموي، د. شوقي ضيف: 141، والمديح: 19.

[3] ينظر: الموشح: 266، والمثل السائر في ادب الكاتب والشاعر، ابن الاثير: 2/ 237-238.

[1] ينظر : الاغاني: 7/ 369، والعمدة: 2/ 139.

فَما تَركوهَا عُنوَةً عنَ مَوَدَّةٍ وَلكن بِحدّ المشرفي استَفَـالَها

وقد كان عبد الملك يعجب بهذا الشعر. ولكن الاخطل قال لعبد الملك: ما قلته أحسن من هذا وهو[3]:

أهلوا من الشهر الحرام فأصبحوا موالي ملك لا طريف ولا غصب

فقد جعلته لك حقاً في حين جعلك كُثّيرُ أخذته غصبا. فقال صدقت. وقيل أن عبد الملك قال للاخطل: كيف تسمع الشعر؟ قال: هجاك ياأمير! قال : بل حسدته[4]. وتكشف هذه الروايةِ عن قدرة الاخطل على فهم النص المُموّه بالمديح الظاهر وهو ماليس بمدح. وقد جاز على بصير بالشعر كعبد الملك إلاّ أن هذا يعني أن الشاعر كثيّراً يمتلك خبرة ثقافية، ومهارة كبيرة جعلته يرسم الاطار الذي يتحرك فيه، ومن خلاله يمدح بني أمية لأن ذلك لا يكون إلاّ لذوي المهارات. ومما يؤكد حذقه ومهارته اجابته حين سأله الامام الباقر [عليه السلام] عن امتداحه لعبد الملك فأجاب: لم أقل له يا أمام الهدى انما قلت ياشجاع والشجاع: حيّة، ويا أسد، والأسد: كلب فتبسم الامام [عليه السلام][1].

ونستنتج من ذلك أن المكانة الثقافية للمادح كانت تفوق مكانة ممدوحه بدليل أنه لم يكشف عن المديح المبطن في حين تمكن الاخطل من ذلك. وهذه المكانة هي من احدى العوامل المؤثرة في تلقي المديح. فالامام [عليه السلام] يتابع الحركة الثقافية والأدبية ويلتقي الشعراء ويوجههم.

وذُكِر أن كثيّرا انشد ممدوحه عبد الملك بن مروان مدحته[2]:

على ابن ابي العاص دلاصُ حصينةُ أجادَ المُسَدّى سَرْدَهَا وَأَذَالها

يؤودُ ضعيف القوم حملَ قتيرِهِا ويستظلعُ القرم الأشم احَتَمالها[*]

فقال عبد الملك: أفلا قلت كما قال الاعشى في معد يكرب[3]

وإذا تجيءُ كتيبــةٌ ملمومَـةٌ شهباءُ يخشى الذائدوان نِهالَها

كُنتَ المقدّمَ غيرَ لابــسَ جُنّةٍ بالسّيفِ تَضربُ مُعْلِماً أبطالَهـا[**]

فأنه أحسن من قولك[4].

فلم يستحسن الممدوح هذا الشعر لكون التحصن في الحرب ليس ممدوحاً دائماً لأن "مذاهب العرب المحمودة عندهم، الممدوح بها شجعاتهم؛ التفضل عند اللقاء وترك التحصن في الحرب وانهم يرون الاستظهار بالجبن ضرباً من الجبن وكثرة الاحتفال

---

(2) شرح ديوان كثير: 149.

(3) شعر الاخطل:673.

(4) ينظر: الموشح: 236، والاغاني: 315/7.

(1) ينظر: أمالي المرتضى، الشريف المرتضى: 1/ 287 ودراسات في الادب الاسلامي والاموي-الشعراء نقادا، عبد الجبار المطلبي: 196-197 و210.

(2) شرح ديوان كثيّر:152.

(*) القتير= رؤوس المسامير، يستظلع= يقوى على حملها.

(3) ديوان الأعشى: 33.

(**) كتيبة=قطعة عسكرية، المقدم=الشديد الاقدام، جُنّة= الدرع، النهال= العطشان.

(4) ينظر: وطبقات فحول الشعراء:541/2، نقد الشعر: 69-70، وسر الفصاحة: 257.

والتأهب دليلاً على الوهن"[5] لهذا أنكر عبد الملك على صاحبه أَنه وَصَفَهُ مُدَجّجاً بالسلاح ومتحصناً بالدروع والدلاص. وقد دافع الشاعر عن مدحه قائلاً: وصفتك بالعزم والحزم، ووصف الاعشى ممدوحه بالطيش والرعونة[1]. فعبد الملك أراد المبالغة في مدحه دون الاقتصار على المدح الواقعي.

ففي وصف الاعشى دليل قوي على شجاعة صاحبه لأنه لم يلبس الجنة والدرع[2].

ومما تقدم يتضح أن الممدوح اعرب عن عدم استجادته لمدح كثيّر بقوله: قول الاعشى في معد يكرب احسن من قولك. وهذا الحكم ناتج عن ذائقته التي ذهبت به الى أن المدح بالصفات المغالى بها هي اجود وافضل من الصفات الواقعية، في حين ذهبت ذائقة كثير الى العكس من ذلك معللاً بأنه وصفه بصفة العزم والحزم، ووصف الاعشى ممدوحه بالطيش والخرق. وهذا اختلاف بِيّنُ في ذائقتيهما، مما يعدُّ عائقاً في استجابة تلقي المديح.

وبغض النظر عما رسمه كل من الشاعرين الاعشى وكثيّر للممدوحمها فإن حجّة الشاعر لاقناع ممدوحه (عبد الملك) بجودة معناه تمثل الموقف الاجتماعي المنطقي الصحيح، لأن العزم والحزم من الصفات التي ينبغي أن تتوفر في الممدوح لتكون صفة له ولاسيما اذا كان خليفة كعبد الملك[3].

وهذا جرير بن عطية مدح الحجاج فأكرمه وادناه واوفده الى عبد الملك الذي كان يغبط الحجاج عليه ويتمنى ان لو صار اليه، فقد أرسل اليه مع ابنه محمد ولما وصلا الى عبد الملك أنشده جرير مدحته التي يقول فيها[4]:

الستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راحِ

وقد اعجب بها عبد الملك فأعطاه مائة ناقة وثمانية من الرعاء[5]، فعبّر الممدوح عن استجادته بطريقة ماديّة لهذه المدحة والتي مكنت الشاعر من ايصال رسالته المدحية

الى ممدوحه. وهذا هو الغرض من مدح الملوك.

واذا كان عبد الملك يستحسن هذا القول من جرير ويضعه في حقل الاستجابة والاستحسان فأنه ينكر عليه بعض اشعاره التي مدحه بها من مثل قوله[1]:

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم اليّ قطينا

فعلق الممدوح: أما ترون جهل جرير! يقول لي ابن عمي، ويقول: لو شئت ساقكم. أما لو قال: لو شاء ساقكم، لأصاب ولعلي كنت أفعل[2].

وفي رواية اخرى يقول: ما زاد ابن المراغة على أن جعلني شرطيا. أما أنه لو قال: لو شاء ساقكم لسقتهم كما قال[3]. واختلفت الروايات في هذا الخبر فمنهم من قال أنه

---

(5) الوساطة، القاضي الجرجاني: 32.
(1) ينظر: طبقات فحول الشعراء :542/2، ونقد الشعر: 70، والوساطة: 32.
(2) ينظر: الموشح: 231.
(3) ينظر: محاضرات في تاريخ النقد عند العرب: 66.
(4) ديوان جرير:77.
(5) ينظر: طبقات فحول الشعراء: 2/ 418، والشعر والشعراء: 232، والاغاني : 8/ 66.
(1) ديوان جرير:477.
(2) ينظر: الشعر والشعراء: 234، والموشح: 190-191، وعيار الشعر: 92.

في يزيد بن عبد الملك[4] ومنهم قال: قيل ذلك في عمر بن عبد العزيز[5]. والنص يشير الى أن الممدوح لم يستحسن بيت جرير لقوله (هذا ابن عمي) و (لو شئت ساقكم). فقد جاء التعبير بالرفض لان الشاعر لم يوفق في هذا اللفظ الذي بدأ يمس منزلة الممدوح ومكانته الاجتماعية –بوصفها عاملاً مؤثراً في التلقي- وهذا عائق في استجابة تلقي الممدوح لمادحه فمن قلة الفطنة ونبوّ الذوق ان يجعل الشاعر ممدوحه شرطياً[6].

ولكن جابر عصفور يقول: لا مفرّ من أن نلمح تناقضاً "بين المطالبة بالصدق والحرص على مخاطبة الملوك بما يستحقونه من جليل المخاطبات، أو الحرص التوجه لكل طبقة بما يشاكلها لا بما هي عليه في ذاتها، ومن الممكن في هذا المجال أن يتخلى الناقد عن مطلب الصدق وعن الغاية الأخلاقية"[7]. فكأن الشاعر لم يفطن الى التقاليد

الاجتماعية المغايرة لحياة الصحراء، لكنه فيما بعد صار مضطراً للالتزام باسلوب رسمي في مخاطبته المسؤول. ومن هنا استمد قول (لكل مقام مقال)[1].

وكانت هناك حلقات للنقد في مجالس الخلفاء فيتعرض فيها للشعراء ممن حضر هذه المجالس، وكان الخلفاء انفسهم ينتقدون الشعراء الذين لم يحسنوا مخاطبة الخلفاء بما يستحقون فهذا عبد الملك يستنكر على جرير شعره الذي مدحه به ومنه:[2]

أتصحو أم فؤداك غير صاح [عشية هم صحبك بالرواح]

فلم يستجد عبد الملك منه هذا وقال لجرير: بل فؤادك يا ابن الفاعلة. وكأنه استثقل هذه المواجهة، وإلا فقد علم أن الشاعر إنما خاطب نفسه[3].

فلم يوفق جرير في ابلاغ رسالته المدحية للمرسَل اليه لأن مثل هذه الابتداءات جاءت باسلوب كاف المخاطب والخليفة ذواقة للشعر. فضلاً عن أن حسن المطالع من لوازم الشعر الجيد[4]. فينبغي للشاعر ألا يقابل ممدوحه بمثل هذا الابتداء لانه أول مايقرع الاسماع[5] وبه يُستدل على ما عنده من أول وهلة فليجعله حلواً سهلاً وفخماً جزلاً.

واذا كان جرير لم يوفق في بعض شعره في مدح عبد الملك فإن ذا الرمة هو الآخر سلك الطريق نفسه، فذكر أنه أنشد قصيدته البائية وقد ابتدأ[6]:

---

[3] ينظر: الاغاني: 8/ 59.
[4] ينظر: الموشح: 120.
[5] ينظر: عيار الشعر:92.
[6] ينظر: مقالات في النقد الادبي، محمد مصطفى هدّارة: 179، والنقد الأدبي: 2/ 465.
[7] مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي، جابر عصفور: 71.
[1] ينظر: الشاعر الاسلامي تحت نظام سلطة الخلافة: 21-22.
[2] ديوان جرير:76.
[3] ينظر: الموشح: 374، والعمدة: 13/2، وسر الفصاحة: 176، وأثر القرآن في تطور النقد الى آخر القرن الرابع الهجري، محمد زغلول: 194.
[4] ينظر: نشأة النقد الادبي: 85-86، والنقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري، د. نعمة رحيم العزاوي: 278.
[5] ينظر: المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر:237 وجواهر البلاغة، احمد الهاشمي: 196و 419.
[6] ديوان ذي الرّمة:1.

"مابالُ عينك منها الماء ينسكب كـأنه من كلى مفرية سربُ

وقد كانت بعين عبد الملك ريشة وهي تدمع أبداً فتوهم أنه خاطبه أو عرّض به فقال: وما سؤالك عن هذا يا جاهل!! فمقته وأمر بإخراجه"[1] وقيل أنه قال (بل عينك)[2]. ولم يوفق الشاعر في ابلاغ رسالته لممدوحه لانه اغلق مفتاح القصيدة بهذا الابتداء الذي تطير منه الممدوح، فكان على الشاعر أن يراعي مقتضى الحال والمقام ويتجنب في اشعاره "ومفتتح أقواله مما يتطير به أو يستجفى من الكلام والمخاطبات كذكر البكاء ووصف اقفار الخطوب ... في القصائد التي تتضمن المدائح والتهاني وتستعمل هذه المعاني في المراثي ووصف الخطوب الحادثة؛ فان الكلام اذا كان مؤسسا على هذا المثال تطير منه سامعه وان كان يعلم ان الشاعر انما يخاطب نفسه دون الممدوح..."[3]. ومثل هذا الاستهلال يقف عائقاً في تلقي واستجابة المدح.

زد على ذلك أنه نغّص الخليفة حين استخدم لمخاطبته هذه الكاف التي استثقلها وغضب منها وهذا ما حذر منه ابن طباطبا العلوي الشعراءَ.

وقيل له اقلب كلامك فدخل ثانية وأنشد بعد أن أ صلح بيته الى:

ما بال عيني منها الماء ينسكب...

حتى أتى على آخرها فأجازه وأكرمه[4]. وبذلك تغير سياق القصيدة وسياق الكلام. فالشاعر الفطن هو من "ينظر في احوال المخاطبين فيقصد محابهم ويميل الى شهواتهم، وإن خالفت شهوته، ويتفقد ما يكرهون سماعه فيتجنب ذكره"[5].

فَتَغَيّرُ سياق الكلام في الشعر هو من تجليات التغير في عملية التلقي والاستجابة لشعر المديح فالشاعر لم يحسن انتقاء الالفاظ في مخاطبة ممدوحه، فلم يراع منزلته الاجتماعية كخليفة في المرة الأولى.

وعلى هذا الاساس يجب على الشاعر أن يجتهد ويجد في اظهار الصورة المثلى لابتداءاته لانها من دلائل البيان[1]، وعليه الاحتراز عند التشبيب من ذكر ما يتصل في بعض نساء الممدوح أو ما يتعلق به. وممن وقع في مثل هذه الاخطاء الشاعر أرطأة ابن سهية عندما دخل على عبد الملك وأنشده قصيدته التي يقول فيها:[2]

رأيتُ الدهر يأكل كلَّ حيّ كأكل الأرض ساقطة الحديد
وما تبغي المنية حين تغدو سوى نفس ابن آدم من مزيد
واحسب أنها ستكرّ يوماً توفّي نذرها بأبي الوليد

فامتعض عبد الملك قائلاً: ما تقول ثكلتك أمك؟ فقال: أنا أبو الوليد يا أمير، وكان عبد الملك يكنى أبا الوليد أيضاً. فلم يزل يعرف كراهة شعره في وجه عبد الملك الى أن

---

(1) العمدة: 222/1 وينظر: عيار الشعر: 19، والوساطة: 1/ 129، والموشح: 71 و 374.
(2) ينظر: سر الفصاحة: 175.
(3) الموشح: 371، وينظر: عيار الشعر: 122، وكتاب الصناعتين: 451/2.
(4) ينظر: الموشح: 374.
(5) العمدة: 1/ 223.
(1) ينظر: البديع في نقد الشعر: 219.
(2) ديوان أرطأة:

مات[3]. فليتجنب الشاعر مثل هذه المواضيع التي تُشْكِل تلقي المديح، وليجعل ما يتطير منه لنفسه وما يستحب من الوجدان لممدوحه، كقول القائل:

ولا تحسبن الحزن يبقى فإنه شهاب حريق واقدُ ثم خامدُ
ستألف فقدان الذي قدْ فقدتـه كإلفك وجدان الذي أنت واجدُ[4]

وذكر أن عبد الرحمن بن ام الحكم قال للفرزدق عندما دخل عليه:

يا أبا فراس دعني من شعرك الذي ليس يأتي آخره حتى ينسي أوله، وقال قل فيّ بيتين يعلقان بالرواة وأنا أعطيك عطية لم يعطها أحد قط قبلي فغدا يقول[5]:

وانت ابن بطحاوي قريش وإنْ تشأ تكن من ثقيف سيل ذي خدر غمر
وانت ابن سوّار اليدين الى العلى تكفت بك الشمس المضيئة للبدر

فنالت اعجاب عبد الرحمن فقال له أحسنت وأمر له بعشرة آلاف درهم [6].

وهكذا تمكن الشاعر أن يتوصل الى قلب عبد الرحمن بأبلاغه رسالته المدحية لينال منه جائزته المادية والمعنوية. فخلع الشاعر صفات مدح على ممدوحه خرج بها الى المديح المغالي فاضفى عليه من الصفات مالم تكن فيه، ولكنه حافزُ، وقولُ ساعةَ طمع.

ومما يتعلق بالاطالة في المدح؛ فهل هي من الاعمال الموفقة للشاعر؟ وعلى هذا يجيب جرير. فقد روى أنه قال يا بني اذا مدحتم فلا تطيلوا الممادحة فإنه ينسي أولها، ولا يحفظ آخرها[1]. أما النسيب فله اهمية كبيرة وهو جزء مهم من موروث قصيدة المديح، وعلى الشاعر أن يتبع أصوله، فلا يطيل في مقدمته ويسهب في الغزل على حساب المدح، بل ينبغي عليه أن يناسب في اجزاء القصيدة طولاً وقصراً، لئلا يعاب عليه صنعه[2]. ومثال ذلك الشاعر الذي جاء الى نصر بن سيار (ت131هـ) بأرجوزة كان تشبيبها مئة بيت ومديحها عشرة. فقال له نصر: والله ما أبْقيت كلمة عذبة ولا معنى لطيفاً الاّ وقد شغلته عن مديحي بتشبيبك فإن اردت مدحي فاقتصد في النسيب. ولم يستحسن منه ذلك فغدا عليه وأنشده:

هل تعرف الدار لام عمرو دع ذا وحبّر مدحة في نصر

والممدوح لم يرض بذلك فقال: لاذاك ولا هذا ولكن بين الأمرين[3] وكان نصر شاعراً –كما يذكر احسان عباس- ونقده للراجز يؤكد حقيقة ما ذهب اليه ابن قتيبة من المحافظة على مبنى القصيدة والملاءمة بين اجزائها[4]، لكون القصيدة شبيهة بأجزاء

---

[3] ينظر:عيار الشعر:123و167، وكتاب الصناعتين:1/ 152-153، وتاريخ النقد العربي، د. محمد زغلول: 160/1.
[4] ينظر: كتاب الصناعتين:1/ 153.
[5] ديوان الفرزدق:
[6] ينظر: العمدة: 2/ 128-129.
[1] ينظر: العمدة: 2/ 128.
[2] ينظر: م.ن: 2/ 128.
[3] ينظر: الشعر والشعراء: 76/1 والعمدة: 123/2.
[4] ينظر: تاريخ النقد الادبي عند العرب – نقد الشعر من القرن الثاني الهجري حتى القرن الثامن، د.احسان عباس: 112.

الأنسان فلكل وظيفته[5] ، حتى تكون الصورة المدحية جميلة بعين المتلقي لذا فالشاعر البارع من "سلك هذه الاساليب وعدّل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر، ولم يطل فيمل السامعين ولم يقطع وبالنفوس ظمأ الى المزيد"[1].

ونصر بن سيّار يريد من الشاعر ان يوف مقدار ما يلزم من التشبيب في قصيدة المديح وما يلزم من المديح ذاته فيها، وجهله بذلك يعرضه للتخلف عن الفحول[2].

واذا كانت قصيدة المديح تفتتح بالغزل فيجب ان لا يطيل الشاعر بالمطلع الغزلي ويبعد ممدوحه عن الملل والسأم من الاطالة وقد جعل ابن رشيق ذلك عيبا حيث يقول: "ومن عيوب هذا الباب أن يكثر التغزل ويقل المديح"[3]. وهذا ما سلكه ذو الرمة فكان اغلب الناس ينكرون شعره؛ الأسرافهِ في الوقوف على الديار ووصف الناقة. وهذا اسلوب غير محمود، لأن الممدوح متعطش للحمد والثناء، فإن تأخر عليه المدح، سئم وملّ[4]. ومن الناس من هم على خلاف هذا، فلم يجعلوا لكلامهم بسطاً من النسيب بل يهجمون على اغراضهم مكافحة ويتناولونها مصافحة[5]. وهذه من تجليات التغير في مبنى القصيدة جاءت من تبدل النظام الفكري والحضاري واختلاف البيئة الزمانية والمكانية. فهي اذاً عوامل أثرت في عملية تلقي الممدوح واستجابته للمديح.

وكان ممن أراد أن يمدح فهجا، شاعر بني أميّة الأخطل الذي أراد مدح سماك الأسدي فقال:[6]

نِعْمَ المُجيرُ سماك مِن بني أسد بالمرج إذ قَتَلَتْ جيرانها مُضَرُ

[...]

قد كنتُ أحسبُهُ قيناً وانبؤهُ فاليوم طُيّرَ عن أثوابه الشررُ

فقال له سماك: "يا أخطل ، أردت مديحي فهجوتني"[7]

فلم يوفق الشاعر في مدحه[1] لأنه جاء بألفاظ لاتوافق معانيها، مما جعلها عائقاً في التلقي. وقد تنبّه الممدوح على ذلك بفعل مكانته الثقافية ودرايته.

ومدح نصيبُ سليمان بن عبد الملك الذي أعرض عن مدح الفرزدق غاضباً لأنه أشاد بأبيه، فقد أشار نصيب للخليفة أنه قال أبياتا على هذا الروي وانشده[2]:

أقول لركب صادرين لقيتهم قفا ذات أوشال ومولاك قاربُ

قفوا خبروني عن سليمان انني لمعروفه من اهل ودّان طالب

فعاجوا فأثنوا بالذي انت اهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

هو البدر والناس الكواكب حوله ولا تشبه البدر المضيء الكواكب

---

(5) ينظر: العمدة 2/ 117.
(1) زهر الاداب وثمر الالباب، أبو اسحق ابراهيم بن علي الحصري القيرواني: 3/ 654-662.
(2) ينظر: الأسس الجمالية في النقد العربي، عز الدين اسماعيل: 194.
(3) العمدة: 123/2.
(4) ينظر: النقد الادبي واثره في الشعر العباسي، د. ناصر الحاني: 103.
(5) ينظر: العمدة: 231/1.
(6) شعر الاخطل: 673-674.
(7) طبقات فحول الشعراء : 471/2، وينظر: كتاب الصناعتين: 92/1.
(1) ينظر: أسس النقد الادبي عند العرب، د. احمد بدوي: 209 ، ودراسات في نقد الادب العربي: 244.
(2) شعر نصيب بن رباح: 59.

وقد نال هذا الشعر اعجاب سليمان. فما كان منه الا أن عبر عن استجابته له لفظاً فقال: أحسنت. كما عبر مادياً عن هذه الاستجادة؛ فأمر له بجائزة[3]. وقيل انه قال: "يا غلام، أعط نصيباً خمسائة دينار وألحق الفرزدق بنار أبيه"[4].

ومما يؤخذ على بعض الشعراء نبو ذوقهم وعدم تخير المعاني المناسبة لمقام ومنزلة الممدوح مثل قول أبي النجم في هشام بن عبد الملك، فقد روي انه جلس يوماً في صحن داره وفتح بابها وأذن بدخول الناس للمجلس وأمر أبا النجم بالأنشاد فأنشد[5]:

الحمد لله الوهوب المجزل...

فاستحسنها هشام وأخذ يعبر عن اعجابه بها تصفيقاً، بوصفه طريقة جديدة من طرائق التلقي المعنوية. ولما بلغ الى قوله:

حتّى إذا الشّمسُ جَلاَها المجْتَلي بَيْنَ سِماطي شفقٍ مُرعْبَلِ

صَفْواءَ قدْ كادَتْ وَلمّا تفْعَلِ فَهيَ على الأفْقِ كعينِ الأحولِ

أمر هشام بوَجْءِ رقبته واخراجه. وكان هشام أحول[1]. فلم يوفق الشاعر في ارضاء ممدوحه لأنه خرج الى مالايتفق والظرف الخاص بالممدوح ، فجاء بلفظ يثير حفيظة الممدوح مما شكّل عائقاً لاستجابة التلقي.

وجاء في الاغاني أن نصيباً الشاعر حين يكون عند هشام يخلي له المجلس فينشده مراثي بني أمية فيبكيه . لكنه ذات يوم مدحه فقال[2]:

إذا استبق الناس العلا سبقتهم يمينك عفواً ثم حلّت شمالها

وقد أعجب هشام به غاية الاعجاب فصار يتلقى مديحه بالاستحسان قائلاً: يا أسود لقد بلغت غاية المدح فسلني فقال الشاعر: يدك بالعطاء أجود وابسط من لساني بمسألتك. فقال: والله هذا أحسن من الشعر وكساه واحسن جائزته[2].

وهذه القصيدة وانْ خرج بها الشاعر الى المنطلق المتخيل والمبالغة لكنه حقق مراده.

وقد رسم نصيب للشعر والشعراء سبيلا خيراً وجعل الصدق اهم معاييره، ومما يدل على ذلك إنشاده لابراهيم بن هشام الذي لم يرض منه مدحه فقال له:

ما هذا بشيء، أين هذا من قول أبي دهبل لابن الازرق[4]:

ان تغد من منقلي نخلان مرتحلا يرحل من اليمن والمعروف بالجود

فردّ الشاعر عليه فقال: لئن تأتونا برجال مثل ابن الازرق نأتكم بمديح أبي دهبل أو أحسن، فان المديح والله انما يكون على قدر الرجال[5].

---

[3] ينظر: الشعر والشعراء: 197، البيان والتبيين، الجاحظ: 83/1، والكامل في اللغة والأدب، المبرّد: 105/1-106.

[4] العمدة: 1/ 74.

[5] ديوان ابي النجم:30.

[1] ينظر: الشعر والشعراء: 302-303. والموشح : 334 و335، وتاريخ النقد الادبي عند العرب: 236، والشاعر الاسلامي تحت نظام سلطة الخلافة: 82-83.

[2] شعر نصيب بن رباح: 118.

[2] ينظر: الاغاني: 245/1.

[4] شعر ابي دهبل:105.

[5] ينظر: الاغاني: 1/ 362-363، ونشأة النقد الادبي: 151.

واجمالاً يمكن القول بأن طرائق الاستجابة او عدمها عند الممدوح الاموي قد تعددت اشكالها بين معنوية ومادية. فالمعنوية من مثل قولهم: احسنت لولا انك اخنثت في قوافيه، واتمدحني بالتاج كأني من ملوك العجم، وما سؤالك عن هذا يا جاهل، واما ترون جهل جرير يقول لو شئت، وأردت مدحي فهجوتني... هذا في حالة عدم الاستجابة. اما في حالة الأستجابة فكان الممدوح يعرب بقوله: ويحك يا أخطل أتريد أن اكتب الى الآفاق أنك أشعر العرب، وأحسنت، وصدقت، وما الى ذلك. ومما تصرف به الممدوح اعرابا عن استجادته؛ التصفيق والتحفز.

أما المادية فقد تنوعت بين دفع الخلع والدراهم والدنانير والرعاء والعبيد والنوق وكانت تؤثر في عملية التلقي عوامل منها المكانة الاجتماعية والثقافية للمادح والممدوح التي من امثلتها مخاطبة جرير لبشر بن مروان:

قد كان حقك أن تقول لبارق يا آل بارق فيم سبُّ جرير

فكان الممدوح يرى في نفسه شيئاً ميزه عنهم هو السيف والترف. فلم يراع الشاعر منزلة ممدوحه الاجتماعية. وقلة فطنة المادح تعد من العوامل المؤثرة في الاستجابة.

اما من ناحية مكانة المادح الثقافية فتتمثل بقدرة الاخطل على فهم النص المموه بالمديح الظاهر وهو ماليس بمدح، كذلك خبرة الشاعر كثيّر بتمويه الشعر على عبد الملك في قوله:

فما تركوها عنوةً عن مودة...

ومن العوامل المؤثرة الاخرى تطور النظام الفكري والحضاري الذي يتضح من خلال مطالبة الممدوح للشعراء أن يمدحوا بالصفات الأسلامية كما يمدح الاشقري وابن خريم بني هاشم فلا يريد التشبيه بالاسد والباز وغيرهما.

واذا كانت هذه من العوامل المؤثرة في التلقي والاستجابة للمديح فثمة معوقات أثرت في الاستجابة والتلقي أيضاً وهي على قسمين؛ الاول يتعلق باختلاف الذائقة اللغوية والنقدية للمادح والممدوح من مثل التباين بين ذائقة الشاعر عبيد الله بن قيس الرقيات في قوله:

إنّ الحوادث بالمدينة قد اوحعني وقَرَعْنَ مَرْوتَيةْ

وذائقة الممدوح عبد الملك بن مروان الذي لم يستسغ القافية الرخوة. أو عدم استحسان الحجاج قول الفرزدق:

فَمن يأمن الحجاج فأما عقابه فَمُرٌ وأما عقده فوثيق

اما القسم الثاني من المعوقات فيشمل المواضع غير المناسبة للمديح، ومنها: الاستهلال غير الموفق، ومثاله: استنكار عبد الملك لقول جرير:

أتصحوا أم فؤادك غير صاحٍ...

وكذلك قول الاخطل لعبد الملك:

خفّ القطين فراحوا منك او بكروا...

ومن هذه المواضع أيضاً الالفاظ المخالفة لمعانيها والتي لاتتناسب ومنزلة الممدوح، كما في مدح الاخطل لسماك الاسدي:

نعم المجيرُ سماك من بني أسد بالمرج اذ قَتَلَتْ جيرانَها مُضرُ

قد كنت احسبه قينا وانبـؤه فاليوم طير عن أثوابه الشرّرُ

وهذه الالفاظ هي أقرب الى الذم فقال له الممدوح: يا أخطل أردت مدحي فهجوتني.

وقد برزت تجليات تغير عملية استجابة المديح وتلقيه، ومنها التغير في الصفات المدحية والسياق والبنية.

اما الصفات المدحية فهي الصفات النفسية التي فضّلها عبد الملك على الصفات البدنية التي كانت العرب تمدح بها وقد تمثلت بقول ابن قيس الرقيات لعبد الملك:

يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنّه الذّهبُ

وقوله لمصعب:

أنما مصعبُ شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماءُ

اما تغير السياق فمن مثل: قول ذي الرمة لعبد الملك:

ما بال عينك منها الماء ينسكب...

فكان من الصحيح ان يقول: ما بال عيني منها الماء ينسكب...

ومن تجليات التغير الأخر تغير بنية القصيدة كما هو واضح في مدحة الشاعر الذي جاء الى نصر بن سيار بإرجوزة أطال في نسيبها كثيراً ولم يمدح إلاّ بعشرة أبيات.

تلقي الممدوح العباسي لغرض المديح

وبعد هذه الجولة في رياض من القول في الوقائع والمرويات التي مررنا بها من خلال استقرائنا لها في العصر الجاهلي والاسلامي ثم الاموي نجد انفسنا بازاء مدحة العصر العباسي. ولذا نروم الكشف عن تلقي الممدوح العباسي لهذه المدحة من خلال دراسة ماروي من أحداث ووقائع بين المادح والممدوح في كتب النقد القديم.

ومدح مطيع ابن اياس معن ابن زائدة (ت:151 هـ) بقصيدة فصيحة جيدة فلما سمعها معن قال: يا ابن إياس، إن شئت أثبناك وإن شئت مدحناك. فاستحيا مطيع من اختيار الثواب وكره اختيار المدح، وهو محتاج، فكتب الى معن هذه الأبيات[1]:

ثناء من أمير خيرُ كسب لصاحب مغنم واخى ثراء

ولكن الزّمان برى عظامي ومالي كالدراهم من دواء

فلما قرأها معن ضحك وقال: صَدَقَ ما مثل الدراهم من دواء وأمر له بصلة[2] فاشار الممدوح بطريقة لفظية واخرى معنوية استحسانا لشعره.

ونرى الممدوح نفسه لم يستجد قول ابن مطير الأسدي عندما وفد عليه وانشده مدحته التي منها[3]:

أتيتك إذ لم يبق غيرك جابرُ ولا واهب يعطي اللّهى والرغائبا

فرفض هذا المدح بقوله: يا أخا بني أسد ليس هذا بالمدح[4]. ولم يستحسن الممدوح هذا لأن الشاعر جعل الممدوح آخرَ مَنْ سألهم من أهل الكرم، فلم يقدمه على غيره والدليل قوله (أتيتك اذ لم يبق غيرك جابر...) فلم يحسن الشاعر اختيار معانيه فشكّل ذلك عائقاً

---

[1] ديوان مطيع بن إياس:

[2] ينظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز: 93.

[3] ديوان ابن مطير الأسدي:34.

[4] ينظر: الموشح: 360.

لاستجابة تلقي المدح. وأتم قوله: وانما المدح قول أخي تيم الله نهار بن توسعه في مِسْمع بن مالك بن مسْمع:

قلّدته عُرى الأمورِ نَزائرُ قبلَ أن تهلكَ السُّراة البُحورُ[5]

ولما مدح أبو العتياهية عمر بن العلاء (ت154هـ) بقصيدة أجازه عليها بسبعين ألف درهم، وخلع عليه. وقال يخاطب الشعراء: إن أحدكم يأتينا ليمدحنا فينسب في خمسين بيتاً، فما يبلغ مدحنا حتى تذهب لذة المدح وطعمه ورونق شعره. وقد أتى أبو العتاهية فنسب بأبيات يسيرة ثم قال[1]:

إني أمنتُ من الزّمان ورَيبه لما علقتُ من الأمير حبالا
لو يستطيع الناس من اجلاله لحذوا له حرّ الخدُودَ نعالا
ماكان هذا الجود حتى كنت يا عمرو ولو يوماً تزولُ لزالا
إنّ المطايا تشتكيك لأنها قطعت اليك سباسباً ورمالا
فإذا وَرَدْن بِنا ورَدْنّ مُخفةً وإذا صَدَرْن بِنا صدَرْن ثِقالا[2]

ونجد الممدوح عند تلقيه هذا الشعر قد استحسنه من أبي العتاهية لسبب رئيس هو أن الشاعر استطاع أن يناسب ويوازن بين أجزاء القصيدة فلم يجعل قسماً منها أغلب على غَيره فتذهبُ لذةُ المدح وطعمه.

فالشاعر الفطن مَنْ "عدّل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر، ولم يُطِلْ فيملُ السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ الى المزيد"[3]. وهذه الملاحظات تنصبّ على بنية القصيدة وسياقها.

ولمديح النساء نصيب من الشعر، فقد أنشد رجل زبيدة بنت ابي جعفر المنصور مِدْحَتَهُ قائلاً:

أزبيدة ابنة جعفر طوبى لزائرك المثاب
تعطين من رجليك ما تعطي الاكفّ من الرّغاب

فجاء الخدم ليضربوه، لهذا القول، لكن زبيدة منعتهم، وقالت: أراد خيراً وأخطأ. وهو أحب الينا ممن أراد شراً فأصاب، سمع قولهم (شمالك أندى من يمين غيرك) فظن أنه اذا قال هكذا كان أبلغ. فقالت اعطوه ما أمل، وعرّفوه بما جهل[1].

فلم تستحسن زبيدة هذا الشعر لكنها لم تغضب لأنه قصد المدح. فلم يوفق الشاعر في مدحها لأنه: أتى بالمدح بما يشبه الذم وهذا موضع غير مناسب لإستجابة المديح. وتُعَدُ ضحالة ثقافة الشاعر عاملاً مؤثراً في الإستجابة أيضاً، مما جعل زبيدة تُنَبِهُهُ على ما وقع فيه. وهذا ينم عن المعرفة الثقافية والاجتماعية والحس الأدبي المرهف الذي كانت تتمتع به زبيدة.

---

[5] ينظر: م.ن : 360.
[1] أبو العتاهية أشعاره وأخباره : 605.
[2] ينظر: العمدة: 2/ 133 ، وزهر الآداب : 2/ 378.
[3] الشعر والشعراء: 18-19، و زهر الآداب: 3/ 654.
[1] ينظر: زهر الآداب: 2/ 404.

وكان ابن ميادة (ت149هـ) الذي أدرك العصر العباسي قد مرّ على جعفر بن سليمان والي البصرة فأنشده مدحته فيه ومنها:[2]

يا جعفر الخيرات ياجعفر ليتك لاتنعى ولا تقبر

ولما رأى جعفر هذا الشعر وأحس بركاكته قال له: أتمدح الوليد بن يزيد الفاسق بشعر أفضل مما تمدحني به. فأجابه الشاعر إن الشعر على قدر العطية ومالي وفسق الوليد إنّ احسانه لا يمنعني من ذلك. فأعجب جعفر بشكره ووفائه بعد ذهاب الدولة وبعد موته فأمر له بأربعمائة ناقة وقال له قل الآن مثل شعرك الذي تقول فيه فقال[3]:

كنتُ حْرَاً أرمى الزوائل مـرّة فأصبحتُ قد ودَّعتُ رَمْيَ الزّوائلِ
وعطّلت قوس اللهو من شرَعاتِها وصارت سهامي بين رثّ وناصلِ(*)
إذا حلّ أهلي بالجناب وأهْلُهـا بمنعرج العلاّن مِـن ذي أذا بـلِ
فقل: خَلَّهُ ظَنَّتْ عليك بوصلهـا تقطَّعُ منهـا باقياتُ الـوصائـلِ
يُمنُّونني منك الوصال وقد أرى بأني لا ألقـاك من دون قابـل
تَمتَّع بِذا اليومِ القصيرِ فـإنّـه رَهينُ بأيّام اِلشهورِ الأطـاولِ

وقد اعجب الممدوح بظرفه ووفائه ثم بشعره[1].

ويروى أن الشعراء دخلوا على المهدي (ت169هـ) لينشدوه شعراً فأذن لهم من وراء حجاب، وكان الشاعر ابن هرمة آخر من دخل فأنشده حتى اذا بلغ الى قوله[2]:

اليكَ اميرُ المؤمنينَ تجاوزتْ بنا بين أجواز الفلاةِ الرواحلِ

قال : ياغلام ارفع الحجاب وأمر له بعشرة الأف دينار. وكان الدينار يومئذ يساوي سبعة واعطى الشعراء الباقين ألفين[3]. والملاحظ هنا أن استجابة الممدوح أخذت صوراً مختلفة فبعد أن كان متواريا وراء الحجاب، أمر برفع ذلك الحجاب، ثم أجزل العطاء على الشاعر بما جعل جائزته اكثر خمس مرات من جوائز بقية الشعراء وهذا دليل على الاستحسان والقبول للمدح.

وقد زحف المهدي اعجاباً بقول مروان عندما أنشده قصيدته:[4]

طرقتك زائرة فحيّ خيالها بيضاء تخلط بالجمال دلالها

فلما بلغ قوله:

هل تطمسون من السّماء نجومها بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تجحدون مقالة عن ربكم جبريل بلّغها النبيّ فقالها
شهدت مِن الانفالِ آخرُ آيةٍ بتراثهم فأردتم إبطالها

---

[2] ديوان ابن ميادة: 30.
[3] م.ن:53.
(*) الشرعات = الأوتار، السهم الناصل= الذي خرج منه النصل.
[1] ينظر: طبقات الشعراء: 107، والتكسب بالشعر، جلال الخياط: 34.
[2] ديوان ابن هرمة:167.
[3] ينظر: ذيل الأمالي: 40.
[4] مروان بن ابي حفصة وشعره: 83.

يقول الفضل: فرأيت المهدي قد زحف من صدر مصلاه حتى صار على البساط اعجاباً بما سمع[5]. ومثل هكذا استجابات قوية تبقى عالقة في الذهن وتشهد بابداع الشاعر الى الحد الذي أطرب فيه ممدوحه حتى أطلقه من سلطان عقله، وتختلف قوة الاستجابة من ممدوح الى آخر ومن زمان الى غيره.

اما ابن الخياط فقال قصيدة يمدح بها المهدي فأمر له بخمسين الف درهم فلما قبضها فرقها على الناس وانشأ يقول[1]:

لمست بكفي كفّه ابتغى الغنى　　　وَلَمْ أَدْر أنَّ الجودَ مِن كفّه يُعدي
فلا أنا منهُ ما أفاد ذوو الغنى　　　أفدتُ و أعداني فأتلفتُ ماَ عندي

فأعطاه لكل درهم ديناراً[2].

وقال عبد الله بن مصعب للمهدي[3]:

يا ابن الذي ورث النبي محمداً　　　فله تراب محمد لم ينكر
اني عقدت ذمام حبلي معصماً　　　بحبال ودك عقدة المتخيّر
[...]
اني اذا بلغ العدو حميتي　　　برزتُ امشي مشية المتبختر
رئموا العدواة صاغرين وحاذروا　　　صولات ذي لبد هزبر محذر

فأقبل عليه المهدي واعطاه حكمه فقال:[4]

يا أمين الإله في الشرق والغر　　　ب علينا ويا ابن عم الرسول
إن حكمي عليك تفديك نفسي　　　وكثيري وأسرتي وقليلي
مجلس في العشي عندك في المي　　　ـدان والأذن منك لي في الدخول
ليس شيء من الامور وان كا　　　ن عظيما عندي لـه بعديل

فأجابه لذلك وجعله من جلسائه وأصاب اموالاً عظيمة وارتفعت حاله[5]

لقد راعى المادح المكانة الاجتماعية لممدوحه فاستطاع أن يدخل الى قلبه مما جعله أحد جلسائه وقد نلحظ في هذه النصوص الشعرية أن الالفاظ اسلامية ذات طابع ديني يرغب الممدوح أن تطلق عليه هذه الصفات التي لم يألفها عصر الجاهلية فهي من تجليات التغير في مضمون القصيدة المدحية وفي استجابة الممدوح للشعر.

وعندما أنشد أبو العتاهية مدحته في المهدي التي منها[1]:

أتته الخلافة منقادةً　　　اليه تجررُ أذيالهاَ
فلم تكُ تصلحُ الاّ لَهُ　　　وَلَمْ يكُ يَصلحُ الاّ لها
وَلو رامها أحدُ غيرَهُ　　　لزلزلت الارض زلزالها
ولو لمْ تُطعْهُ بناتُ القلوب　　　لما قبلَ اللهُ أعمالَها

---

(5) ينظر: الاغاني : 9/ 41-42.

(1) ديوان ابن الخياط: لم أجده في الديوان.

(2) ينظر: الوساطة: 172/1، والموازنة: 62/1 ، وكتاب الصناعتين: 206 ، والتكسب بالشعر: 71.

(3) ديوان عبد الله بن مصعب:87.

(4) م.ن:137.

(5) ينظر: اختيار من كتاب الممتع في علم الشعر وعمله ، عبد الكريم النهشلي:231-232.

(1) أبو العتاهية أشعاره واخباره: 612.

فقال له المهدي إن شئت أدبناك بضرب وجيع؛ لإقدامك على ما نهيت عنه، واعطيناك ثلاثين الف درهم جائزة على مدحك لنا، وإن شئت عفونا عنك فقط. فقال: بل يضيف أمير المؤمنين الى كريم عفوه جميل معروفة؛ ومكرمتان اكثر من واحدة واامير المؤمنين أولى من شفع نعمته وأتم كرمه، فأمر له بثلاثين الف درهم وعفا عنه[2].

لقد أضفى المادح على ممدوحه صفات اسلامية دينية محببة الى نفس الممدوح بوصفها تجليات تغير في مضمون القصيدة المدحية.

وقد روى أن موسى الهادي كان لايسمح للشعراء بالدخول عليه لأنه لا رغبة له في الشعر، فهو منهمك بالشراب والسماع، وقد وصلت رائية ابي الخطاب الهذلي اليه، فلما سمعها أُعجِبَ بها اعجاباً كثيراً فأمر حاجبهُ أن يخرج الى الباب وينادي أين نساية الاسد؟ ففعل فلما علم أبو الخطاب بذلك حضر –وكان الشعراء مجتمعين- فقال، ها أنذا، فأدخله الحاجب بيده الى الهادي، فقال هات أنشدها فأنشده القصيدة الرائية، فاستحسنها موسى الهادي واعجب بها، وأمر في ذلك اليوم الاّ يحجب عنه شاعر، وأن يكون في علمهم أن أبا الخطاب كان السبب في ذلك. وقد أمر لأبي الخطاب بألف دينار وكساه وحمله. والقصيدة مشهورة ومطلعها:[3]

ماذا يهيجك من دار بمحنية كالبُرد غيَّر منها الجدّةَ العصر

حتى يقول[1]:

قل للخليفة موسى: إنَّ نائلَه جزلُ هنيٌّ و ما في سيْبه كدرُ
متوجُ بالهدى، بالحمد ملتحفُ مسربل بالنّدى، بالمجد متّزر
موسى الذي بذل المعروف يُنهبِه في الناس ، فالجودُ من كفيّه ينهمرُ
لايكسر الناس ما شدّوا جبائره وليس يُجبر طول الدهر من كسروا
أنت الدعامة ياموسى اذا احتدمت نيرانها و حماة الحرب تجتزروا

والملاحظ هنا أن هذه الأبيات كلها مدح، إذْ اكتفى الشاعر بذكر مناقب الممدوح وصفاته الحميدة، وقد وظف الشاعر استعارات جميلة، وكنايات لطيفة للوصول الى مبتغاه فكان له ما أراد ، اذ جاءت استجابة الممدوح منسّقة ومتناغمة مع ما قال الشاعر، وقد تجنب الشاعر بمهارته وثقافته معوقات الاستجابة فلم يتطرق الى ما يُنَغّص مزاج الخليفة أو يستجفى من الكلام لا من قريب ولا من بعيد، أي أنه ابتعد عن المواضيع غير المناسبة للمدح والاستجابة التلّقي.

واستجاد الرشيد (ت193هـ) القصيدة الميمية التي أنشدها إياه اشجع السلّمي والتي فيها يقول[2]:

وعلى عَدوِكَ يا ابنَ عم محمدٍ رَصدان ضوء الصبح والاظلامُ
فإذا تنبّه رعته واذا هدا سلّت عليه سيوفك الأحلامُ

---

[2] ينظر: زهر الآداب: 2/ 383.
[3] م.ن : 383/2.
[1] ينظر: طبقات فحول الشعراء:132/1-133.
[2] ديوان اشجع السلّمي:

ولما بلغ هذين البيتين اهتز الرشيد، وقال: "هذا والله المدح الجيد والمعنى الصحيح لا ما عللت به مسامعي هذا اليوم"[3].

وقد عبّر الرشيد عن استحسانه بهذه الطرائق اللّفظية والمعنوية والتي جعلت منه يقسم بالله بأنه المدح الجيد. فقد تمكن المادح من ايصال رسالته المدحية اليه فكان يسعى الى تلبية ما يرغب فيه الممدوح، لا المادح، ولا يخفى أن مسحة المبالغة واضحة على هذه الأبيات التي تكاد تخرج الى المنطلق المتخيل والتي تمثل تغيراً في صفات المدح. وانشده قصيدة ثانية، نالت استحسانه هي الاخرى فكاد يطير فرحاً من الاعجاب والاستراحة لها، ومنها[1]:

ملكُ ابوهُ وامُّهُ مِن نَبْعـةٍ منها سِراجُ الأمّةِ الوهّاجُ
شرِبا بمكّة في ذُرا بطحائها ماء النبوة ليس فيه مزاج

ولما طرقت هذه الأبيات سمعه، طرب لها وابتهج ابتهاجاً كبيراً، ثم قال لأشجع: "لقد دخلت اليّ وأنت أثقل الناس على قلبي، وإنك لتخرج من عندي وأنت أحب الناس اليّ... فاسأل ما بدا لك. قال: ألف ألف درهم قال: ادفعوا اليه"[2]. فما الذي جعل المادح محبوبا بعد ما كان ثقيلاً على الممدوح؟ إنّها مكانة الشاعر الثقافية التي جعلته يحسُّ بمكانة ممدوحه الأجتماعية. زد على ذلك أنّ الالفاظ والمعاني التي اختارها والتي مكنته من أن يطرب ممدوحه، هي حصيلة التطور العقلي والحضاري، الذي يُعدّ من العوامل المؤثرة في الاستجابة وتلقي المدحة.

ويروى أن الشاعر منصور النمري (ت:190هـ) دخل على الرشيد يوماً فانشده قصيدة رائيّة حتى إذا بلغ الى قوله[3]:

وانـكَ حينَ تبلغهم أذاةً -وإن ظلموا- لمحترق الضميرِ

قال الرشيد: ويحك، ماهذا؟ شيء كان في نفسي منذ عشرين سنة فأردت اظهاره فأظهرته بهذا البيت؛

وإنك حين....

ثم قال للفضل بن الربيع: خذه فأدخله بيت المال ودعه يأخذ ما شاء[4]. وهذا ينم عن طريقة جديدة من طرائق استجادة المديح، اذ لم يسبق لمثل هذا مثيل. وبهذه المعاني والشفرة اللغوية التي استطاع بها الباث ابلاغ وايصال رسالته المدحية الى المرسل اليه. يدخل الى قلبه فيظهر شيئاً كان يريد اظهاره ، وليس للممدوح الاّ أن يستجيد هذا الشعر فيأمر بإدخاله الى بيت المال ليأخذ ما يروم أخذه. فالممدوح رحب بهذا الشاعر الذي رقصّه كيف شاء ليستدر عطاياه. وهذا موقف شخص غير متزن.

---

[3] طبقات الشعراء: 251.
[1] ديوان اشجع السلمي:
[2] طبقات الشعراء:251، وينظر : جرس الالفاظ: ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، د. ماهر مهدي هلال: 187.
[3] ديوان منصور النمري:
[4] ينظر: طبقات الشعراء:245.

وذكر ابن المعتز أن الشعراء اجتمعوا في باب الرشيد، فلم يأذن لأحد منهم بالدخول ثم بدا له فقال لحاجبه قل لهم: من استطاع أن يمدحنا بالدين والدنيا بألفاظ قليلة فليدخل. فدخل ابن أبي السعلات فاستأذن بالإنشاد، فقال الرشيد أنشدني قولك:

اغيثا تحمل النّاقـ ـةَ أم تحمل هارونا.

فقال : أنشدك ما اخترته وشرطته اليوم، فقال بل أنشدني الأبيات، فأنشده:[1]

اغيثا تحمل النّاقـ ـةَ أم تحمل هارونا
ام الشمس أم البـدر أم الدنيا أم الدينـا
ألا لا بل أرى كل الـ ذي عددت مقرونا
على مفرق هارون فداه الآ دميّونـا

فلما سمعها أجزل له العطاء. وقيل: أنه فَرّقها على الشعراء بعد أن اجتمعوا عليه[2].

وواضح هنا أن الممدوح يرغب المدح بالصفات الدينية لأنها تقوي مركزه. ومثل هذه الصفات المرغوب فيها تعدُّ من تجليات التغير في تلقي المديح. فالمنزلة الاجتماعية للممدوح هي التي حملته الى أن يطلب من الشعراء أن يمدحوه بصفات دينية ودنيوية بوصفها عاملاً مؤثراً في عملية التلقي.

وقد روي أن جماعة من الشعراء كانوا مجتمعين عند الخصيب ينشدونه مدائح فيه، فقدِمَ أبو نواس الى مجلسه، ولما فرغوا من الإنشاد، قال الخصيب لأبي نواس: ألا تنشد شعراً يا أبا علي؟ فقال أنشدك أيها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصا موسى تلقف ما يأفكون! قال: هات إذاً. فأنشده رائيته المشهورة التي أولها[1]:

أجارة بيتينا أبوك غيور وميسور ما يُرجى لديك عسيرُ

ولما فرغ من الانشاد اهتز طربا لها، فنالت استحسان الخصيب واعجابه فما كان منه الاّ أن يأمر له بجائزة سنيّة مكافأة لهذا الشعر[2]. وما اهتزاز الممدوح طربا الاّ طريقة من طرائق الاعراب عن الاستجادة بالتصرف وأما الجائزة فهي طريقة اخرى (مادية).

كما استجاد حميد الطوسي من الشاعر علي بن جبلة في يوم نوروز حين أنشده مدحته التي يقول فيها[3]:

دمن الدار دثور ليس فيهن مجيرُ
بليت منها المغاني مثل ما تبلى السّطور
قسم البين عليهنّ رواح وبكـــور
وليال ساجيات نام عنهن السّمير
لحميد وحميـد قمر الارض المنير

---

[1] ينظر: طبقات الشعراء: 150.
[2] م.ن : 151/150.
[1] ديوان ابي نواس:481.
[2] ينظر: الموازنة بين الشعراء أبحاث في اصول النقد واسرار البيان، زكي مبارك: 236. وقد ورد البيت في طبقات الشعراء: 211 وأشار الى انها من قلائده.
[3] ديوان علي بن جبلة:120.

فَسُرَّ حميد بهذه المدحة سروراً كبيراً عند تلقيه هذه المعاني وقال: والله أنها أحب اليّ من جميع ما أهدي اليّ في هذا اليوم[4].

ونلحظ هنا أنه قد تخلص الى المديح تخلصاً رائعاً مع جودة المعاني التي مكنته من إرضاء ممدوحه وادخال السرور والبهجة الى نفسه. فعرف الشعراء كيف يقسمون مدائحهم بحسب أقدار ممدوحيهم. وتغير السياق في هذه القصيدة يُعَدّ تجليا من تجليات التغير في تلقي المديح.

ويروي ابن المعتز ان أبا حفص البصري قال: لما امتدح علي بن جبلة، حميداً الطوسي واستأذن فدخل عليه ينشده قال: وما عسيت أن تقول فينا؟ وهل أبقيت لأحد مدحاً بعد قولك في أبي دلف[1]:

انما الدنيا أبو دلـف   بين مُغْنـاه و محتضَره
فاذا ولـىَّ أبو دلـف   ولّت الدنـيا على أثـره

فقال: أصلح الله الأمير ما قلت فيك أحسن. قال : وما قلت؟ فانشده[2]:

إنما الدنيـا حميـد   وأيا ديــه الجســام
فاذا ولّـى حميـد   فعلـى الدنيـا السّلام

قال: فتبسم حميد ولم يَقُلْ شيئا. وتعجب كل مَنْ حضر المجلس من جودة بديهة الشاعر لأنهم علموا أنه انما قالها على البديهة في ذلك الوقت. فأحسن حميد جائزته وأرغد له[3]. فاعرب الممدوح عن استجادته لهذا المدح بطريقة ماديّة ومعنوية. ومما يحمد للشاعر بديهته التي أفرزتها مكانته الثقافية والتي كانت عاملاً مؤثراً في استجابة تلقي المدحة.

وقد مدح ابو تمام المعتصم (ت227هـ) بقصيدته المشهورة التي أولها[4]:

السّيفُ أصدق انباءً من الكتبِ   في حدّه الحد بين الجدّ واللّعب

وقد استحسن الممدوح هذه القصيدة فشبهها بالعروس. وقد أماط اللثام عن اعجابه بطريقة لفظية من طرائق الاستجادة قائلاً: لقد جلوت عروسك يا أبا تمام فأحسنت جلاءها. قال: يا أمير والله لو كانت من الحور العين لكان حُسن اصغائك اليها من أوفى مهورها[5]. وهنا يكون المادح والممدوح ناقدين.

فهذه القصيدة التي استحسنها الممدوح إنْبَنَتْ من مزيج ثقافي استطاع الشاعر من خلاله أن يبلغ غايته فيصل الى ما يتناسب ومنزلة الممدوح ومكانته الاجتماعية فقد تمكن من اختيار الالفاظ والمعاني الرائعة التي تتلاءم وممدوحه بوصفه خليفة . وقد يكشف ذلك عن الثقافة والدراية الواسعة لابي تمام وهي مكانته الثقافية التي انعكست من أثر التبدل والتطور الفكري والثقافي.

---

(4) ينظر: طبقات الشعراء: 178-179.
(1) ديوان علي بن جبلة:135.
(2) م. ن:177.
(3) طبقات الشعراء: 178-179.
(4) ديوان أبي تمام :7 والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 2/ 242.
(5) ينظر: العمدة: 232/1. وزهر الآداب : 3/ 702 – 703.

وذكر أن الشعراء اجتمعوا بباب المعتصم فبعث اليهم: مَنْ منكم يستطيع أن يقول مثل قول منصور النمري في الرشيد[1]:

إنّ المكارمَ والمعروف أوديـةٌ أحـلّك الله مِنها حيثُ تجتمـعُ
إذا رفعتَ امـرأ فالله رافعـهُ ومن وضعت من الاقوام متضعُ

فليدخل: فقال محمد بن وهب: فينا من يقول ماهو أحسن منه. فدخل وقال:

ثلاثةُ تُشرق الدّنيا ببهجتهـا شمسُ الضّحى،وابو اسحق،والقمرُ
يحكى أفاعيلَه في كلِ نائلـةٍ الغيثُ والليثُ والصّمصامة الذكرُ

ولما كانت هذه الابيات تطرق سمعه، أمر بإدخاله واحسن صلته[2]. فقد عبّر الممدوح عن شديد اعجابه وفرحه لهذا المدح الذي جاء به شاعره بصفات مدحية والفاظ تليق ومكانته الاجتماعية، وقد أحسن الشاعر إذ كنى عن اشراق ممدوحه بأنْ وضعه بين شمس الضحى والقمر في البيت الاول. زد على ذلك أنه جمع له الكرم والشجاعة في البيت الثاني فقد عرف للممدوح منزلته الاجتماعية الرفيعة ورعاها حق رعايتها. وأحسن تصوير هذه المراعاة ، وألمح الى أمله بالجائزة من بعيد بأن قال:

يحكى أفاعليه في كل نائلةٍ الغيث والليث والصّمصامة الذكرُ

فقد جمع فعل على صيغة منتهى الجموع (أفاعيله) وأورد لفظة (نائلة) وهي كل ما يقرع القلب ثم ذكر اسلوبين لتصرف الممدوح في النوائب وهما (الغيث) كناية عن الكرم في مساعدة المنكوبين، والصمصامة الذكر في ردّ الاعداء والطامعين. فكأن الشاعر قال له أنت الغيث وها أنذا محتاج فماذا تنتظر؟ .

وبعد أن أتم المعتصم بناء قصره بالميدان الذي كان للعباسيين، جلس فيه وجمع الناس فاستأذنه اسحق بن ابراهيم في النشيد فأذن له، فأنشد شعراً ما سمع الناس أحسن منه في صفته وصفة المجلس الاّ أن أوله تشبيب بالديار القديمة، وبقية آثارها، فكان أول بيت منها[1]:

يا دارُ غَيَّرَكِ البِلى ومحاكِ يا ليتَ شِعري ما الذي أبلاكِ

فتطير المعتصم منها وتغامز الناس وعجبوا كيف ذهب هذا عن اسحق مع فهمه وعلمه وطول خدمته الى ذلك المجلس، وخرج المعتصم الى سُرّ مَنْ رأى وخرّبَ القصر[2]. ولا يرى د. محمد عبد المطلب ذلك فيقول "واذا كان المعتصم قد تطير والناس حول الشاعر يتغامزون متعجبين كيف ذهب على ابن اسحق ذلك، فنحن لا نتغامز معهم، بل نقول إن الشاعر قد عبّر بصدق عن حالته الشعورية عندما أنشد ذلك البيت على الرغم من أن ذلك لم يلائم حال المخاطب كما يقولون"[3] . فينبغي للشاعر أن يتأنقّ في الاستهلال ، لينال رضا ممدوحه ويراعي المقام ومطابقة الكلام لمقتضى الحال. فكان هذا الإبتداء

---

(1) ديوان منصور النمري:
(2) ينظر: زهر الآداب:66/3.
(1) ديوان اسحق بن ابراهيم:84.
(2) ينظر: كتاب الصناعتين : 2/ 452، والموشح:462 ، والبديع في نقد الشعر: 401 والمثل السائر في ادب الكاتب والشاعر: 239/2.
(3) اتجاهات النقد خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، محمد عبد المطلب: 170.

مفتاحاً لتلقي القصيدة، ولم يُوفّق المبدع في ايصال المعنى الذي قصد اليه لممدوحه، فقرع سمعه سلباً في استجابته لتلقي الشعر باستهلاله غير الموفق الذي كان من المعوقات التي حالت دون استجابة تلقي المديح.

وقدّم أبو تمام مدحاً للحسن بن رجاء قال فيه[4]:

كفّي وغاك فإنني لك قالِ ليستْ هوادي عزمتي بتوالِ

ولما بلغ الى قوله:

عادتْ لَه أيامهُ مسودةً حتى توهم أنهن ليالِ

قال الحسن: والله لاتسود عليك بعد اليوم. ولما قال:

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

وتنظري خبب الركاب ينصها محيي القريض الي مميت المال

قام الحسن بن رجاء وقال لا أتممها الاّ وأنا قائم فقام لقيامه، وقال:

لما بلغنا ساحة الحسن انقضى عناّ تملك دولة إلا محال

بسط الرجاء لنا برغم نوائبٍ كثرت بهنّ مصارع الآمالِ

فتعانقا وجلسا. وقال الحسن: ما أحسن ما جليت هذه العروس. فأخذ منه عشرة الآف درهم وأقام عنده شهرين[1]. ولسان الممدوح شاهد بيّن على استجادة الشعر وتلقيه لأنه نطق بالاكبار والإجلال له لأن الشاعر أحسن اختيار الالفاظ والغوص وراء المعاني الجميلة فأحسن الكناية في قوله (بسط الرجاء لنا برغم نوائب) فأشتق الرجاء من اسمه.

ونتبين مما تقدم أن الممدوح قد عبّر عن استجادته لهذا المديح بطرائق معنوية باللفظ والتصرف. فاللفظ؛ قوله (والله لاتسود عليك بعد هذا اليوم) وقوله (ما احسن ما جليت هذه العروس) والتصرف بأن قام اكباراً وأبى الاّ يُتم الشاعر قصيدته الّا وهو قائم. ثم تعانق مع الشاعر. وماهذا العناق الّا طريقة من طرائق الاستجادة بالتصرف. أما الطريقة المادية فهي اعطاؤه عشرة الاف درهم. أما الاقامة عنده شهرين فهي تجمع الطرائق المعنوية والمادية معاً.

وقال ابو تمام يمدح عبد الله بن ابي طاهر[2]:

هُن عوادي يوسف وصواحبه فعزماً فقدماً أدرك الثأر طالبهْ

إذا المرء لم يستخلص الحزمُ نفسَهُ فذروتُهُ للحادثات وغا ربهُ

وفيها يقول:

وقد قرّب المرمى البعيد رجاؤه وسهلت الأرض العزاز كتائبه

اذا أنت وجهت الركاب لقصده تبينت طعم الماء لو انت شاربه

جدير بأن يستحيي الله باديا به ثم يستحيي النّدى و يراقبه

سما للعلى من جانبيها كليهما سمو عباب الماء جاشت غواربه

---

[4] ديوان ابي تمام: 246.

[1] ينظر: أخبار ابي تمام الصولي: 170.

[2] ديوان أبي تمام: 43.

ويمضي حتى يقول:

اذا ما امرؤ ألقى بربعك رحلَهُ فقد طالَبَتْهُ بالنجاح مطالِبـهُ

فلم تنل هذه القصيدة من اعجاب الممدوح وعبّر عن ذلك بقوله للكاتب: ألقها أخزى الله حبيباً يمدح مثل هذا الملك الذي فاق أهل زمانه كمالاً بقصيدة يرحل بها من العراق الى خراسان أولها بيت نصفه مخروم(*) والنصف الثاني عويص[1].

وقيل أن هذه القصيدة عرضها أبو تمام على أبي العميثل وأبي سعيد الضرير، فلم تنل اعجابهما لأنهما سمعا بهذا الابتداء. فأعرضا عنه واسقطا القصيدة. وقد سألهما ابو تمام النظر فيها والاستتمام لها، فوجدا بيتين هما:

وركب كأطراف الأسنّة عرسوا على مثلها والليل تسطو غياهبه

لأمر عليهم أن تتم صـدوره وليس عليهم أن تتم عـوَاقبـه

فاستحسناهما ولأجلهما، اخذا الجائزة له. وقد سألاه بعد هذا: لِمَ تقول ما لايفهم؟ فقال: وَلِمَ لاتفهمان ما يقال[2]. وهذا يعني أن الذائقة قد اختلفت بين المادح والممدوح فشكلت عائقاً من شأنه أن يؤثر في تلقي غرض المديح. وقد أثرت المكانة الثقافية للمادح والممدوح في التلقي، وكذلك لمن عرض عليهما الشعر فكان أبو سعيد وأبو العميثل لايرقيان الى المستوى الثقافي الذي وصل اليه ابو تمام. فلو كانا وصلا اليه لفهما ما يقال. ومن جهة اخرى كان الممدوح قد فوجئ بمطلع القصيدة واستهجنها ولم يلتفت الى ابداع الشاعر في الأبيات الاخرى. فليست الأحكام النقدية التي يطلقها الممدوحون موضوعية دائماً. فهي لاتستند الى أسس ذوقية أو منطقية سليمة في بعض الأحيان، بل أن الأمر مرهون بمزاج الممدوح في لحظة تلقي المدح. وثمة عوامل اخرى تؤثر في التلقي كاسلوب الالقاء وشخصية الشاعر والزمان والمكان وغير ذلك.

وقد روي أن أبا تمام خرج الى خالد بن يزيد بن مزيد، في أرمينية ، فامتدحه فأمر له بعشرة الاف درهم لشعره. وأمر ألاّ يقيم إن كان عازماً على الخروج، فودعه ولما خرج خالد للصيد رأى أبا تمام تحت شجرة وبيده طنبور ونبيذ فقال له ما فعل بك المال؟ قال:[1]

علّمني جوُدُك السماحَ؛ فما أبقيتَ شيئاً لدي من صلتِكْ

ما مر شهر حتى سمحت به كأنّ لي قدرة كمقدرتـك

تنفق اليوم بالهبات وفي الـ ساعة ما تجتبيه في سنتك

فلست أدري من أين تنفق لو لا أن ربي يمدّ في هبتـك

فما كان ليسعه الاّ أن يمنحه عشرة آلالف أخرى استحساناً لشعره وظرفه[2]. وقد أخذ أبو تمام معنى هذا البيت: علّمني جودك... من بيت ابن الخياط في مدحه للمهدي وهو[3]:

(*) الخرم: مصطلح عروضي يعني:حذف أول الوتد المجموع من التعديلة. ينظر: فن التقطيع الشعري والقافية، صفاء خلوصي: 52.

(1) ينظر: شرح الصولي، لديوان ابي تمام، دراسة وتحقيق خلف رشيد نعمان:297 ، والموشح: 500.

(2) ينظر: اخبار أبي تمام: 52 ، 117 والموازنة: 22-23 ، وكتاب الصناعتين:206/1.

(1) ديوان ابي تمام:146.

لمستُ بكفيّ كفّهُ أبتغي الغنى ولم أدْر أَن الجودَ من كفّهِ يعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعداني فأتلفت ماعندي[4]

فاستطاع ابو تمام ايصال رسالته الى ممدوحه بهذه الشفرة الكلامية الحسنة والاسلوب المثير نتيجة لتبدل وتطور العقلية الثقافية التي جاءت من تبدل الحياة والفكر وتلك هي العوامل التي أثرت في تلقي الممدوح للشعر.

وكان الوزير محمد بن عبد الملك الزيات يرغب في أن يكون ابو تمام شاعراً خاصاً له وحينما أنشد قصيدة فيه، منها[1]:

لهانَ علينا أن تقولَ وتفعلا ونذكرُ بعضَ الفضل منك وتفضلا
وجدناك أندى من رجال أناملا واحسن في الحاجات وجهاً وأجملا
تضيء اذا اسودّ الزمان وبعضهم يرى الموت أن ينهل أو يتمهلا
ووالله ما آتيك الاّ فريضة وآتي جميع الناس إلا تنقّلا
وليس امرؤ في الناس كنت سلاحه عشية يلقى الحادثات بأعزلا

فقال الوزير لأبي تمام: والله ما أُحبُّ بمدحك مدح غيرك لتجويدك وابداعك ولكنك تنغص مدحك ببذله لغير مستحقه. فقال: لسان العذر مقبول ولو كان فصيحا[2]. وهذه الشهادة من الممدوح وتعبيره اللفظي بأنه يجودّ ويبدع هي استحسان منه لتلقي مثل هذا الشعر الذي أبدع فيه الشاعر بهذه الالفاظ الرقيقة الموافقة لمعانيها. وهذه الصّفات الجديدة التي لم يألفها العصر الجاهلي- وهي من تجليات التغير في تلقي غرض المديح- توصل الى أن ينفذ الى قلب ممدوحه ويصل الى نفسه.

وذكر الصولي أن أبا تمام لمّا مدح محمد بن عبد الملك وزير الخليفة المعتصم بقصيدة قال فيها[3]:

ديمة سمحة القياد سكوب مستغيث بها الثرى المكروب
لوسعت بقعة لإعظام اخرى لسعى نحوها المكان الجديب

وهذه القصيدة قد بلغت اعجاب ممدوحه فما كان يسعه الا أن يقول: يا أبا تمام: إنك لتحلّي شعرك من جواهر لفظك وبديع معانيك ما يزيد حسنا على بهيّ الجواهر في أجياد الكواعب، وما يرخص لك شيء من جزيل المكافأة الاّ ويقصر شعرك في الموازاة. وقيل أنه كان بحضرته رجل من الفلاسفة فقال: هذا الفتى يموت شابّا . فقيل له من أين حكمت عليه بهذا؟ قال من الحدّة والفطنة والذكاء فان النفس الروحانية تأكل عمره كما يأكل السيف غمده[1]. فلاشك أن الشاعر قد تمكن من اختيار اللفظ اللائق بالمعنى الذي أراده وقد حقق

---

(2) ينظر: الموازنة: 62/1.
(3) ديوان ابن الخياط: (لم أجده في الديوان).
(4) ينظر: الوساطة:172، وكتاب الصناعتين:206/1.
(1) ديوان ابي تمام:159.
(2) ينظر: شرح الصولي:1/ 28، وأخبار أبي تمام: 118-119.
(3) ديوان ابي تمام:47.
(1) ينظر: زهر الآداب: 115/1-116.

ما كان يبغي، في ايصال الرسالة المدحية، الى الممدوح ورضاه فعبّر بهذه الطريقة اللفظية عن الاستجادة والاستحسان لما تلقاه.

وانشد البحتري أبا سعيد الثغري محمد بن يوسف (ت236هـ) مدحته التي فيها[2]:

أأفاق صبّ من هوى فأفيقا أم خان عهداً أم أطاع شفيقا

فلما فرغ منها سُرّ بها أبو سعيد وقال: أحسنت والله يا فتى وأجدت[3].

واذا كان الممدوح قد استجاد قصيدة البحتري فعبّر عن استجادته بقوله: (احسنت واجدت) وهي طريقة لفظية من طرائق استجادة تلقي المديح فإنه لم يستحسن له قصيدته التي ابتدأها بقوله[4]:

لكَ الويل من ليلٍ تطاولَ آخرهُ ووشك نوى حَيّ تُزَمَّ أباعِرُهْ

فقال ابو سعيد: بل الويل لك والحرب[5]. فلم يراع الشاعر هنا المقام ومقتضى الحال لأنه استخدم كاف الخطاب أولاً ولم يبتعد عمّا يتطير منه الممدوح وينغصه فقد جمع معوقات الاستجابة، مما أوقعه بهذا الخطأ. فالشاعر الجيد الفطن من كان ينظر في أحوال المخاطبين ومنزلتهم ويميل الى شهواتهم وان خالفت شهوته ويتفقّد ما يكرهه الناس فيتجنب ذكره[6].

ويختلف مستوى المادح والممدوح بحسب مكانتهما الثقافية. ومثال ذلك ما قاله ابن الرومي في مدح ابي الصقر، والمتمثل بقصيدته التي يقول فيها:[1]

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كلا لعمري ولكن منه شيبانُ

فظن أنه يعرض فيه، لأنه كان يدعي نسبه من شيبان ولم يكن شيبانيا حقيقة فقال هجاني. وراجعه بعض الحاضرين قائلاً له: إن هذا من أحسن المدح أما تسمع ما بعده:

وكمْ أبٍ قدْ عَلا بابن ذُرى شَرَفٍ كما عُلَتْ برسولِ الله عدنانُ

فقال أنا بشيبان وليست شيبان بي، وملأه الغيظ والغضب على ابن الرومي.

فقيل له أما تسمع ما يقول:

ولم أقصر بشيبان التي بلغت بها المبالغ أعراق وأغصانُ

لله شيبان قوم لايشوبهم روع اذا الروع شابت منه وِلدانُ

لكنه استمر في غيّه وسوء فهمه وقال: والله لا أثيبه على هذا الشعر وقد هجاني[2].

فقد اختلفت الذائقة اللغوية بين المادح والممدوح فكانت معوقاً لإستجابة التلقي. والحق أن الأبيات الشعرية واضحة فهي من المدح الحسن ولا ذنب لابن الرومي خلا أنَّ مكانته

---

(2) ديوان البحتري:733/3.
(3) ينظر: الموازنة: 12/1.
(4) ديوان البحتري:350/1.
(5) ينظر: اخبار ابي تمام: 105 ، وكتاب الصناعتين: 2/ 452-453 ، وسر الفصاحة: 176.
(6) ينظر: العمدة: 223/1.
(1) ديوان ابن الرومي: 151/2.
(2) ينظر: الموشح: 546، وزهر الاداب: 316/1، وتاريخ الادب العربي- العصر العباسي الثاني ، د. شوقي ضيف: 306.

الثقافية فاقت ثقافة ومكانة ممدوحه –بوصفها عاملاً مؤثراً في تلقي المديح- لأنه لم يفهم من القصيدة شيئاً حتى عندما قال فيه:

فردُ جميعُ يراهُ كلُّ ذي بصرٍ كأنه الناس طراً وهو انسانُ

اضف الى ذلك الحالة النفسية للممدوح وعقدة الانتماء لديه اذ لم يكن شيبانيا حقيقة، ولو كان ابن الرومي يعرف ان الرجل مدح في انتسابه لشيبان لما ركب هذا المركب.

ومن طرائف ما يروى ان أحمد بن المدبر (ت327هـ) لايقبل المدح وقد وضع شرطاً لمن يمدحه فكان يأمر غلامه بأن يمضي بالشاعر المادح الى الجامع فلا يدعه حتى يصلي مائة ركعة. وقد تحاماه الشعراء لذلك. لكن الشاعر المصري المعروف بالجمل الاكبر استأذنه بالأنشاد فقال له عرفتَ الشرط؟ قال : نعم: فأنشده:

أردنا في أبي حسن مديحاً كما بالمدح ينتجع الولاة
فقلنا أكرم الثقلين طراً وَ مَنْ كفّاه دجلة والفرات
فقالوا يقبل المدحات لكن جوائزه عليهن الصلاة
فقلت لهم:وماتغني صلاتي عيالي ! إنما الشأن الزكاة
فأما اذ ابى الاّ صلاتي وعافتني الهموم الشاغلات
فيأمر لي بكسر الصاد منها فتصبح لي الصّلاة هي الصّلات

فضحك واستظرفه وقال: من أين أخذت هذا؟ فقال من قول أبي تمام:

هُنّ الحمام فإن كسرت عيافة من حائِهنّ فإنهنّ حِمامُ

فأحسن صلته[1]. وهكذا نفذت الفاظ الشاعر الى قلب الممدوح الذي تحاماه الشعراء والذي لايقبل المدحات وقد اعرب الممدوح عن استجادته معنوياً (الضحك) ومادياً (الصلة).

وانشد المتنبي مدحته في سيف الدولة، التي يقول فيها:

وقفتُ وما في الموت شكُ لواقفٍ كأنكَ في جفن الردى وهو نائمُ
تمرُّ بك الابطال كلمى هزيمة ووجهك وضّاءٌ وثغركَ باسمُ

فأشار الممدوح؛ أن من الافضل أن يكون الشطر الثاني من الأول مكان الشطر الثاني من البيت الثاني.

فقال المتنبي : ومولانا يعلم أن الثوب لايعرفه البزاز معرفة الحائك لأن البزاز يعرفه جملة أما الحائك فيعرفه جملة وتفصيلا[2].

وهذا يكشف عن المكانة الثقافية للمادح أولاً على أنها من العوامل المؤثرة في تلقي المديح واستجابته ثم اختلاف الذائقة بين المادح والممدوح بوصفه عائقاً لاستجابة المدح.

وقد روي ان الصاحب بن اسماعيل بن عباد أنشد عضد الدولة قصيدة مدحه بها فقال في أولها[1]:

ضممت على أبناء تغلب تاءها فتغلب ماكرّ الجديدان تُغلبُ

---

(1) ينظر: زهر الاداب : 2/ 537 ، ووفيات الاعيان، ابن خلكان : 54/6.
(2) ينظر: البديع في نقد الشعر: 217.
(1) ديوان الصاحب بن عباد:191.

فتطير عضد الدولة من مواجهته إياه بتغلب، وعبّر عن عدم استجادته لهذا المدح بطريقة لفظية فقال: "يكفي الله ذلك، ولو قال في وسط البيت -تُغْلب- لم يكن في ذلك من القبح ما يكون في القافية ، لأنها موضع قطع وسكوت ووقوف على ما مضى واستئناف لما يأتي"[2].

ومما يتضح من ذلك أن الشاعر لم يوفق بإيصال مدحته كما ينبغي لأنه لم يراع سياق المخاطبة للممدوح فجاء بما يتطير منه، فينبغي أن لايعتمد القوافي التي تكون الكلمة اذا سكت عليها كانت محتملة لمعنى يقتضي خلاف ما وضع الشعر له، مثل أن يكون مديحاً فيقتضي السكوت عليها ومقطع الكلام بها وجهاً من الذم أو معنى يتطير منه الممدوح أو ما يجري هذا المجرى[3]. فثمة اختلاف في ذائقة المادح والممدوح حالت دون الاستجابة للمديح .

وعلى وفق المعطيات التي تم التوصل اليها في اثناء البحث يمكن أن نستنتج أن تلقي الممدوح العباسي لغرض المديح لم يختلف عن تلقيه عند الممدوح الاموي الا في أمور قد بولغ فيها. فمن حيث طرائق الاعراب عن الاستجابة نجد أن الممدوح العباسي قد أعرب بالطريقة المادية مانحاً للعطاء بحسب طلب المادح أو فتح بيت المال للمادح ليأخذ منه ما يشاء أو العطاء الدائم ما دام الممدوح حيا. وقد أعرب بالطريقة المعنوية اللفظية عن الاستجابة في قوله: (لقد جلوت عروسك) أو قوله (والله انها احب الي من جميع ما أهدي الي في هذا اليوم) أو قوله (إن شئت أثبناك وان شئت مدحناك) و (هذا والله المدح الجيد والمعنى الصحيح).

وأعرب بالطريقة اللفظية المعنوية عن عدم الاستجابة في قوله (الويل للك والحرب) و(ليس هذا بالمدح) وما الى غير ذلك.

وقد أعرب الممدوح العباسي عن الاستجابة بالطريقة المعنوية (التصرف) بالاهتزاز طرباً أو بالقيام من موضعه ومعانقة المادح أو رفع الحجب والزحف على المصلى، واعطاء الأمان والعفو عن المسيء.

وقد أثرت في تلقي الممدوح لغرض المديح عوامل كان من أهمها التبدل الفكري والحضاري الذي بدا بشكل واضح اكثر من غيره من العوامل الاخرى.

أما تجليات التغير فكانت تتمثل ببنية القصيدة والصفات المتخيلة والمغالى فيها والصفات الدينية والدنيوية وتغير الالفاظ.

أما فيما يخص المعوقات فكان من أبرزها المواضع غير المناسبة والمتمثلة بالاستهلال غير الموفق.

عرضنا طائفة من الوقائع والشواهد والنصوص التي اختصت في تلقي المديح في عصر ما قبل الاسلام (الجاهلي) والعصر الاسلامي ، والعصر الاموي، والعصر العباسي. وكشفنا فيها عن طرائق الاعراب عن استجادة الممدوح لذلك المديح مع بيان العوامل

---

[2] سر الفصاحة: 174، وينظر: اتجاهات النقد، 152.

[3] ينظر: سر الفصاحة: 174.

المؤثرة في تلك الاستجابة او عدمها، ثم كشفنا عن تجليات تغير الاستجابة مع بيان نوع ذلك التجلي، وأخيراً كشفنا عن معوقات الاستجابة مع بيان انواعها. وقد أوجزنا ذلك في نهاية كل عصر من العصور.

ويجدر بنا في هذا الموضع أن نشير الى ما هو متشابه او مختلف، ومستجد أو مهيمن من تلك المعطيات التي توصلنا اليها في اثناء البحث.

لقد استجدت طرائق جديدة في الاعراب عن استجابة المديح عند الممدوح الاسلامي تختلف عما هي عليه عند الممدوح الجاهلي. ففيما يختص بالطرائق اللفظية مثلاً برز (الدعاء) -بأنواعه المتعددة- بوصفه طريقة جديدة من طرائق الاستجابة لتلقي المديح، ومن أمثلة ذلك : (لله درّ فلان) أو (حيّاك الله) مثلاً، ومثل ذلك لم تألفه عند الممدوح الجاهلي ومردّ ذلك يعود الى الثورة الحضارية والانقلاب الفكري اللذين احدثهما الاسلام في حياة العرب، والمتمثلين في مبادئ الدين الاسلامي الجديد.

وأما الطرائق المادية فقد برز العطاء المادي المتمثل بالخلع والدنانير والدراهم بوصفه طريقة اعراب عن استجادة الممدوح للمديح. ومثل هذا العطاء هو الآخر لم نألفه عند الممدوح الجاهلي الذي كان يعطي الابل والرعاء والكلاب.

واما طريقة الاعراب عن الاستجابة بالتصرف فقد برز منها الأمر بسماع الشعر كما حصل مع قصيدة كعب مثلاً واعطاء الأمان. وهذا أمر استجد عند الممدوح الاسلامي.

أما العوامل التي أثرت في مثل تلك الطرائق فيبرز من بينها التبدل الفكري والحضاري الذي أحدثه الاسلام في حين كان من أبرز العوامل المؤثرة في طرائق الاستجابة عند الممدوح الجاهلي المكانة الاجتماعية والثقافية للمادح والممدوح.

أما تجليات التغير في طرائق الاستجابة عند الممدوح الاسلامي فكان من أبرزها تجليات التغير في الالفاظ والصفات الدينية.

وأما المعوقات التي حالت دون الإعراب عن الاستجابة فقد تشابهت عند كلا الممدوحين الجاهلي والاسلامي، وقد تمثلت في الاعم الاغلب في المواضع غير المناسبة وكان من بين أبرز تلك المواضع (الاستهلال غير الموفق).

هذا ما أمكن الوقوف عليه عند الممدوحين الجاهلي والاسلامي، أما الممدوح الأموي فبرز عنده ماهو مستجد ومختلف عمّا عند سابقيه من الطرائق اللفظية في الاعراب عن الاستجابة: القول ووصف المادح بأنه أشعر العرب. أما في الاعراب عن عدم الاستجابة لفظاً فقد برز قول الممدوح مثلاً (أحسنت لولا أنك اخنثت في قوافيه) أو (أما ترون جهل فلان (أي الشاعر) يقول: لو شئت)، أو (أردت مدحتي فهجوتني) أو (تمدحني بالتاج كأني من ملوك العجم). ومثل هذه الانواع من الطرائق اللفظية لم تألفها عند الممدوحين السابقين جاهليين واسلاميين. وأما الاعراب عن الاستجابة بالتصرف فبرز ما هو مستجد ومختلف عما هو عند السابقين مثل التصفيق والتحفز.

أما الاعراب ماديا عن الاستجادة فقد جمع الممدوح الأموي بين أغلب أنواع العطاء الذي كان يعطيه كل من الممدوح الجاهلي والاسلامي.

هذا من جهة الطرائق أما من جهة العوامل المؤثرة فقد عاد تأثير المكانة الاجتماعية والثقافية، للمادح والممدوح –بوصفها عاملاً مؤثراً في تلقي المديح- فضلاً عن التطور الفكري والحضاري.

وأما تجليات التغير في طرائق الاستجابة في التلقي فكانت البنية والصفات فضلاً عن السياق.

وقد ظهر اختلاف الذائقة معوقا بارزاً من معوقات الاستجابة عند الممدوح الأموي لم تألفه عند الممدوحين السابقين فضلاً عن المواضع غير المناسبة كالاستهلال والالفاظ التي إشترك فيها جميع الممدوحين من جاهلين واسلاميين وأمويين.

وحين نصل الى الممدوح العباسي نجد أنه شارك سابقيه بعدد من معطيات التلقي وانفرد عنهم بعدد آخر فما كان مشتركا من طرائق الاعراب عن الاستجابة قولهم (لقد جلوت عروسك) او (انها أحب الي من جميع ما أهدي لي في هذا اليوم)، ومما استجد في ذلك أنهم يخيرون المادح بين أن يثيبوه أو يمدحوه فيقولون (ان شئت اثبناك وإن شئت مدحناك) أو قولهم (هذا والله المدح الجيد والمعنى الصحيح). وأما طرائق الاعراب عن عدم الاستجادة فإنهم صاروا يدعون على المادح بالويل والحرب كقولهم: (الويل لك والحرب).

أما في طرائق الاعراب عن الاستجابة مادياً فوجدنا ما لم تألفه عند المادحين السابقين وهو أن الممدوح صار يعطي العطاء بحسب طلب المادح او يفتح بيت المال للمادح ليأخذ منه ما يشاء أو العطاء الدائم ما دام الممدوح حيّاً.

وأما الاعراب عن الاستجابة بالتصرف فان الممدوح العباسي شارك سابقيه في الاهتزاز طرباً واعطاء الأمان والعفو عن المسيء وأما المستجد من تصرفاته فانه صار يرفع الحجب عن المادح بحيث يمدح الممدوح وجهاً لوجه بعد أن كان يمدحه من وراء حجاب، أو يقوم الممدوح من مجلسه والاستماع للمدح قائماً ثم معانقة المادح. وكان وراء ذلك؛ التبدل الفكري والحضاري بوصفه عاملاً مؤثراً في تلقي المديح.

أما التجليات فكان من أبرزها الصفات المتخيلة والمغالى فيها والصفات الدينيّة والدنيوية معاً. وقد ظلت المواضع غير المناسبة بوصفها معوقاً من معوقات الاستجابة، مشتركة بين معوقات الاستجابة والتلقي عند جميع الممدوحين وعلى مختلف العصور.

تلقّي الناقد لغرض المديح

من المعروف أن النقد نشأ نشأة مبكرة لازمت الشعر منذ بداياته الأولى وتطورت مع تطوره بحسب العوامل التي أثرت فيه، وفي حياة الأمة التي انتجته وثقافتها وعقليتها. فقد كان النقد ناشئاً بسيطاً في العصر الجاهلي وتطور شيئاً فشيئاً حتى صار اكثر بروزاً في القرن الثالث ووصل الى ذروته في القرن الرابع.

ويأتي دور الناقد في عملية النقد لاكمال ما أبدعه الشاعر محاولاً تلافي السلبيات التي قد تظهر في عمل الشاعر المبدع عن سهو أو قلة فطنة ودراية. والناقد بعمله هذا انما يريد اظهار النص في اتم وجه واكمل صورة.

ويتعامل الناقد مع الادب بوصفه مادة خاضعة للتفكيك لأجزائها الأولى- اللفظ والمعنى- ويقف بازاء الشاعر موقف المقنن والراصد المقوم. هذا بشكل اجمالي، أما في غرض المديح، فما يهمنا منه، كيفية تلقيه له متمثلاً في طرائق الاعراب عن استجادته أو عدمها ومعوقات الاستجابة وتجليات التغير في الاستجابة والعوامل المؤثرة فيها.

سنقف كما وقفنا في الفصل الاول على تلقي المديح عند الممدوح الجاهلي فالاسلامي والاموي ثم العباسي، ونتبع المنهج ذاته في تلقي المديح عند النقاد؛ تلقي الناقد للمديح الجاهلي فالاسلامي والاموي ثم العباسي.

ومما تجدر الإشارة اليه في هذا الموضع هو أن الناقد الجاهلي يتعامل مع المديح الجاهلي والناقد الاسلامي يتعامل مع المديح الجاهلي والاسلامي، والناقد الاموي يتعامل مع المديح الجاهلي والاسلامي والاموي، والناقد العباسي يتعامل مع المديح الجاهلي والاسلامي والاموي والعباسي في حين أن الممدوح يختلف بأختلاف العصور وبعبارة أدق هناك ممدوح جاهلي وممدوح اسلامي وآخر أموي وغيره عباسي. وهذا يعني أن الممدوح يتعامل مع المديح مباشرة وهذا مالانجده عند الناقد لانه يتعامل مع نصوص مدحية قد يسمعها مباشرة او تروى له وقد تفصل بينه وبين زمن إنشائها فاصلة زمنية قد تطول أو تقصر.

تلقّي الناقد للمديح الجاهّلي

لاشك أن الناقد يصدرُ عن ثقافة ومنهج ما في تلقيه للمديح بصورة عامة، وللمديح الجاهلي بصورة خاصة، فيعرب بطريقة أو بأخرى عن استجابته لذلك المديح أو عدمها. وقد تحول دون استجابته عوائق، وقد يطفو على السطح تغير في الاستجابة، ولهذا وذاك عوامل تؤثر فيه. وستكشف لنا الوقائع والاحداث عن ذلك بعد متابعة النصوص الدالّة ومحاولة استنطاقها.

وقد ظهر من المادة المجموعة لهذا البحث انه لم تصل الينا وقائع نقدية تبين كيفية وقوف اشخاص اتصفوا بصفة الناقد حقيقة من عصر ما قبل الاسلام والعصر الاسلامي والعصر الاموي ، متلقين لغرض المديح... ولكن مثل هذه الوقائع وصلت الينا من العصر العباسي.

فـ "من المدح البليغ الموجز قول أمرئ القيس:

وتعرف فيه من أبيه شمائلاً ومن خاله ومن يزيد ومن حُجُر
سماحةَ ذا وبَّر ذا ووفاء ذا وتـأمل ذا إذا صحـا وإذا سكرَ"[1]

فقد أعرب ابن طباطبا العلوي (ت 322هـ) عن استجابته لأبيات امرئ القيس بطريقة لفظية في قوله : ومن المدح البليغ الموجز..

وقد وصف الناقد هذه الأبيات بالبلاغة والايجاز، وهذا ناتج عن تمكن الشاعر من الشعر.

وأبدى عدد من النقاد استحسانهم لقول زهير[2]:

أخي ثقة لاتهلك الخمر ما لـه ولكنه قد يهلك المال نائلـه
تـراه اذا ما جئتـه متهـللاً كأنك تعطيه الـذي أنت سائله

فقد استجادها ابن طباطبا العلوي وقد أفصح عن استجادته لها في قوله: "ومن الأبيات التي تخلب معانيها للطافة الكلام فيها قول زهير: تراه اذا ما جئته متهللاً [...] والحسن في هذه الأبيات حقائق المعاني التي وصف بها الممدوح وجودة الالفاظ التي يستحقها"[1]. وفي هذا النص يكشف الناقد عن تجليات التغير (تغير صفات المدح، والفاظه) بفعل مكانة الناقد الثقافية والنقدية بوصفها عاملاً مؤثراً في استجابة تلقي المدح.

ومن النقاد الذين استحسنوا هذه المدحة ، قدامة بن جعفر (ت 337هـ). فقد عبّر عن استجادته لها في قوله: "والبالغ في التجويد الى أقصى حدوده من استوعبها [أي الصفات النفسية الأربع؛ العقل والعفة والعدل والشجاعة] ولم يقتصر على بعضها، وذلك كما قال زهير ابن أبي سلمى في قصيدته ...الأبيات"[2].

فقد استجاد قدامة هذا المدح لأن زهيراً مدح بالصفات النفسية واستوفاها جميعاً وهي صفات مدح أكدها قدامة، وعاب على الشاعر الذي يعدل عنها الى الصفات البدنية كجمال المنظر وبسطة الجسم. وقد خالف بذلك ما تمدح به العرب. والمهم هنا، أن نكشف عن ان هذه الصفات مِنْ تجليات التغير في تلقي المديح والاستجابة له.

وعبر ابو هلال العسكري (ت 395هـ) عن استجادته لهذه المدحة بقوله:

"والجيد في المدح قول زهير: هنالك أن يُسْتحولوا المالَ يخولوا ... (البيت)""[3]

وقد تبعهم بالاستجادة أيضاً عبد الكريم النهشلي (ت هـ) وعبّر بطريقة لفظية عن استجادته فقال: "ومن ذكر مقامات العرب وتنويههم بأفعالهم فيها قول زهير بن ابي سلمى. وكان يجيد المدح"[4].

وواضح من استحسان النقاد أن الشاعر قد اختار الفاظاً سهلة نقية ومعاني حسنة مرصوصة وقوافي غير متكلفة، ثم وصفهم بحسن المقال، وحسن الوجوه، وجعل الفضل والبَّر فيهم جميعاً مقلاً ومكثراً ثم وصفهم بالعقل والحلم والتظافر والتعاون. وهذا دليل على

---

[1] عيار الشعر: 31، وينظر : شرح ديوان امرئ القيس: 91-92.
[2] ديوان زهير:96.
[1] عيار الشعر: 85-86.
[2] نقد الشعر: 66 ، وتنظر: 70.
[3] كتاب الصناعتين: 1/ 107.
[4] اختيار من كتاب الممتع في علم الشعر وعمله:77.

وعي الشاعر ومكانته الثقافية التي يتوخاها وقد تمكن بفعل هذه المكانة أن ينفذ الى قلب ممدوحه ويبلغ مراده، فجعل المدح يتلاءم ومنزلة الممدوح. وتلك من العوامل التي تؤثر في تلقي المديح واستجابته.

وقال زهير[1]:

أغرّ أبيض فياض يفكِكُ عَنْ ... ايدي العناة وعن اعناقها الرَّبقا
إن تلقَ يوماً على علاته هرماً ... تلقَ السماحة منه والندى خلقا
لو نال حي من الدنيا بمكرمة ... أفق السّماء لنالت كفّهُ الافقا
ليث بعثّر يصطاد الرجال إذا ... ما كذب الليث عن أقرانِه صدَقا

فقد وجدت هذه القصيدة استحساناً لدى النقاد . فقد عبّر ابن رشيق (ت 456هـ) عن استجادته لها بطريقة لفظية فقال: "قوله (على علاّته) مبالغة وتتميم عجيب"[2].

واستحسن مديح زهير هذا بعد ابن رشيق، الناقد اسامة بن مرشد بن منقذ (ت584هـ) وعبّر عن استحسانه في قوله : "ويجب ان يمدح كل واحد بما يصلح له كقول زهير: أغرّ أبيضُ ..."[2].

وتأتي استجادة الناقدين لمديح زهير من اضفاء صفات مدح واقعية تنطبق على الممدوح على أنها تجليات تغير في صفات المدح.

وقد عاب الأصمعي بين يدي الرشيد قول النابغة الذبياني[4]:

نظرت اليك بحاجة لم تقضها ... نظر السقيم الى وجوه العُوّدِ

فأعرب الاصمعي (ت216 هـ) عن عدم استحسانه لهذا البيت بقوله: "وهذه اللفظة (السقيم) لاتتناسب والمعنى"[5]، اذ أصبحت معوقاً لاستجابة تلقي المديح.

لكن الاصمعي يستحسن قول النابغة[1]:

ألَمْ ترَ أن اللهَ أعطاكَ سوْرَةً ... ترى كلّ ملك دونها يتذبذبُ
بأنك شمس والملوك كواكبُ ... إذا طلعَتْ لَمْ يَبْدُ منهن كوكب

وأفصح عن هذه الاستجادة بطريقة لفظية فقال: "هذا حَسَنٌ كله بارع"[2].

فتشبيه الشاعر للنعمان بالشمس شيء حسن إذ أشار الى بهائه وجماله بطريقة أثرت ولو إيحاء في المتلقي فقد راعى الشاعر منزلة ممدوحه الاجتماعية. وبهذا كشف الناقد عن مكانة الشاعر الثقافية التي مكنته من خلق هذه الصورة.

وحظي هذا النص للنابغة، بأهتمام عدد كبير من النقاد في العصر العباسي فقد عدّه ثعلب (ت291هـ) افراطاً واغراقاً، فقال: "ومن الافراط في الاغراق قول [...] النابغة:

---

(1) ديوان زهير:59-60،وينظر:المرشد الى فهم اشعار العرب وصناعتها،د.عبد الله الطيب المجذوب: 101/2.
(2) العمدة: 2/ 51-52، والتتميم: أن يحاول الشاعر معنى، فلا يدع شيئاً يتم به حسنه إلاّ وقد أوردَهُ إما مبالغة أو احتراساً مِن التقصير. ينظر: نقد الشعر: 137.
(2) البديع في نقد الشعر: 405.
(4) ديوان النابغة الذبياني:40.
(5) فحولة الشعراء، الأصمعي: 49.
(1) ديوان النابغةا الذبياني:17.
(2) فحولة الشعراء: 62.

بأنك شمس"[3] ... فلم يستحسن هذا القول وعدّه من الافراط، وما ذلك الاّ لاختلاف الذائقة النقدية التي شكلت هنا معوقاً من معوقات الأستجابة.

اما قدامة فأعرب عن استجادته لبيت النابغة – المتقدم ذكره- في قوله: "فإما اصابة الوجه في مدح الملوك بمثل قول النابغة..."[4] فعدّه من المدح الجيد لأنه يدعو الى المبالغة والغلو فقال "ان الغلو عندي أجود انواع المذهبين"[5] . ويصدر قدامة في رأيه هذا عن تأثّره بالثقافة اليونانية؛ ومثل هذه الثقافة تعدّ عاملاً مؤثراً في تلقي المديح.

وظهرت استجادة أبي هلال العسكري لبيت النابغة المذكور، في قوله: "وانما تمدح الملوك بمثل قول الشاعر: بانك شمس..."[6] معرباً عن استجادته له بطريقة لفظية متأثراً بتعبير قدامة.

ورأى سامي الدهان ان النابغة استعار صورة لمديح مليكه فشبهه بالشمس بين الكواكب لمكانه بين الملوك وارتفاع قدره على أقدارهم، وانه سنّ للشعراء المديح الرسمي حين يتطلعون الى الملوك.[1]

ويمتعض ابو هلال العسكري من قول النابغة الذبياني[2]:

رقاق النعال طيب حجزاتهم يُحْيوْنَ بالريحانِ يومَ السَباسِب

فلا يستجيد هذا القول معبراً عنه بتعليقه: "ومثل هذا لايمدح به السوقة فضلاً عن مدح الملوك.. ومنه قوله فيهم:

[يحيّتهم بيض الولائد بينُهم] واكسية الأضريح فوق المشاجب

جعل لهم اكسية حمراً يضعونها على مشاجب؛ فترى لو كان لهم ديباج أين يضعونه؛ وليس هذا مما يمدح به الملوك"[3].

فجاء الشاعر بالفاظ ومعانٍ مخالفة لمكانة الممدوح فلم يراعِ منزلته الإجتماعية ومثل هذا المدح لايليق حتى بمن هو أقل مرتبة من الممدوح. وهذا معوق لاستجابة التلقي بوصفه موضعاً غير مناسب لعملية توصيل المدح.

وهذا ابن رشيق يستحسن للنابغة الذبياني قوله[4]:

يَصُدُّ الشاعر الثّنيان عني صدود البكر عن قرم هجانِ

فيعبر عن استحسانه بقوله: "وَمِن لطيف ما ورد في هذا الباب [باب ما أشكل من المدح والهجاء] قول النابغة الذبياني... لم يرد أنه يغلب الثنيان ولا يغلب الفحل. لكن أراد التصغير بالذي هجاه فجعله ثانيا"[5]. وقد دل الناقد على مكانته الثقافية التي كشف من

---

[3] قواعد الشعر، ثعلب: 50-51.
[4] نقد الشعر: 82-83.
[5] م.ن : 213.
[6] كتاب الصناعتين: 81/1.
[1] المديح: 16.
[2] ديوان النابغة الذبياني: 12.
[3] كتاب الصناعتين:116/1- 117، وديوان النابغة الذبياني: 12.
[4] ديوان النابغة الذبياني: 12.
[5] العمدة:2/ 88-89.

خلالها عما أشكل من المدح والهجاء، ومثل هذه الثقافة تُعد عاملاً من العوامل المؤثرة في استجابة التلقي.

وعلى ذلك قال باحث معاصر ان النابغة كان يتناول "اخلاق ملوك الشام وجودهم وعفتهم واستقامتهم في الدين ومخضل العيش عندهم ونعيم الحياة وما الى ذلك من صفات الاشراف واهل النبل في الجاهلية. والحقيقة ان مديح النابغة هو خير ما يتوجه به الى الملوك في ذلك الحين وهو يدل على ان الشاعر كان عارفاً بأحوال الممدوحين معرفة تامة وعارفاً بما يرضي الغساسنة من جميل القول"[1].

وعيب على الاعشى قوله[2]:

ويأمر لليحموم كل عشّية بقتّ وتعليق فقد كانَ يسنقُ

فقالوا "وهذا لايمدح به رجل من خساس الجنود وليس من أحد له فرس الاّ وهو يعلفه قتّاً وشعيراً"[3].

لكن ابن قتيبة (ت276هـ) لايرى في ذلك عيب فيسوغ ذلك بقوله: "لست أرى هذا لأن الملوك تعدُّ فرساً على أقرب الابواب من مجالسها بسرجه ولجامه خوفاً من عدو يفاجئ وحاجة تعرض لقلب الملك فيريد البدار اليها، فلا يحتاج أن يتلوم على اسراج فرسه والجامه"[4].

اما ابو هلال العسكري فهو على العكس من هذا الرأي تماماً، فلا يستحسن مثل هذا الشعر أبداً، ويكشف عن عدم استحسانه له بقوله: "إنه يأمر لفرسه كل عشيّة بقتٍ وتعليق؛ وهذا لايمدح به الملوك، بل ولا رجل من خساس الجند"[5].

وقد نلحظ هنا اختلافاً في الذائقة اللغوية والنقدية من خلال تباين الرأيين بين ابن قتيبة وأبي هلال، وما هذا الاختلاف في الذائقة الاّ معوق من معوقات استجابة تلقي المديح. ففي رأي أبي هلال الذي لم يرض بهذا المدح، إنما أراد قلة فطنة الشاعر لأنه لم يراع منزلة الممدوح الاجتماعية فآتى بصفات مدح غير مرضية هنا وهذا ينم عن ضحالة المكانة الثقافية للمادح التي تعد عاملاً مؤثراً في استجابة تلقي المدحة. ولربما أراد أن يصف أمراً واقعاً من ممدوحه، وهو أنه كان يعطف على الحيوان ويرعاه، وتلك صفة محمودة، تنم عن عظمة خلقية في رعاية الملك لما قد يحقره غيره.

واذا استحسن ابن طباطبا للأعشى بعض قوله فهو في موضع آخر ينكر عليه شعره ويعيبه، فلم يستجد قوله[1]:

وما مزبدُ من خليج الفرا ت جونُ غواربُه تلتطمْ

[...]

بأجود منه بما عونه اذا ما سماؤهمُ لم تغمْ

---

(1) فن المديح وتطوره في الشعر العربي: 98.
(2) ديوان الاعشى: 219.
(3) كتاب الصناعتين : 80/1.
(4) الشعر والشعراء: 158.
(5) كتاب الصناعتين: 80/1-81.
(1) ديوان الاعشى:39.

فقد عبّر الناقد عن عدم استجادته لهذا المدح بقوله: "من الأبيات التي قصّرَ فيها أصحابها عن الغايات التي أجروا اليها ولم يسدّوا الخلل الواقع فيها معنى ولفظاً [...] قول الاعشى: وما مزيد... يمدح ملكا ويذكر إنه انما يجود بالماعون".[2]

وكلام الناقد هنا يوضح أن الشاعر جاء بصفة مدح في غير محلها ومثل هذا لايمدح به الملوك . فالشاعر لم يوائم بين الصفات المدحية ومنزلة ممدوحه الاجتماعية بوصفه ملكاً، مما شكّل عائقاً من العوائق التي تحول دون استجابة تلقي المدحة.

كما أنكر عليه قوله الذي يمدح به الاسود بن المنذر[3].

ما بكاء الكبير بالأطـلال وسؤالي و هل تردّ سؤالي
دمنة قفرة تعاورها الصيـ ـف بريحين من صبا وشمال

فلم يرق هذا الابتداء لإبن طباطبا، وقد أفصح عن ذلك حين قال: "فيجتنب مثل ابتداء الاعشى: ما بكاء..."[4]. ونجد ابن قتيبة من النقاد الذين وجهوا الشاعر وجهته الصحيحة ولم يكتف بالاعراب عن طريق الاستجابة او عدمها فقط. فيقول: "وينبغي للشاعر أن يحترز في أشعاره ومفتتح أقواله مما يتطير منه ... فإن الكلام اذا كان مؤسساً على المثال تطير منه سامعه، وان كان يعلم أن الشاعر إنما يخاطب نفسه دون الممدوح فيجتنب مثل ابتداء الاعشى : مابكاء... "[1].

فعاب ابن طباطبا قول الاعشى هذا لانه ابتداء قصيدة ويجب أن يحسنه لانه مفتاحها وبه يستدل على ما بعده من قول ولكن الشاعر استهل قصيدته بابتداء غير موفق لايناسب الممدوح فذكر البكاء والديار المقفرة، فنغصّ مزاج ممدوحه وكدّره. وما هذا الابتداء الاّ عائق في استجابة التلقي.

وقد استجاد ابن قتيبة قول الاعشى في مدحه قيس بن معد يكرب[2]:

و أذا تجيء كتيبة ملمومـة خرساء يَخشي من يذود نزالـها
كنت المقدّم غيرَ لابس جُنـةٍ بالسيف تضرب معلما أبطالها
وعلمت أن النفس تلقي حتفها ماكان خالقها المليك قضى لها

فقد استجاد في البيت الثالث (قضى لها) واعرب عن استجاته بقوله : "فقوله (قضى لها) عجيبة الموقع"[3]، ولعل هذه الاستجادة مردها المعنى الاسلامي.

وقدامة بن جعفر فضل قول الاعشى المتقدم ذكره على قول كثير في عبد الملك[4]:

علي ابن ابي العاص دلاص حصينة أجاد المسدى سردها وأذالها
يود ضعيف القوم حمل قتيرهـا ويستظلع القرم الأشم احتمالها

الذي قال عنه عبد الملك ليس هذا بأجود من قول الاعشى في قيس بن معد يكرب وهو: واذا تجيء كتيبة ملمومة...[5]

---

(2) عيار الشعر: 96-97، وينظر: 122، والمثل السائر في ادب الكاتب والشاعر: 2/ 316-317.
(3) ديوان الاعشى:30.
(4) عيار الشعر: 122.
(1) الشعر والشعراء: 155.
(2) ديوان الاعشى: 33.
(3) عيار الشعر: 108.
(4) شرح ديوان كثير: 152.

فقدامة استحسن قول الأعشى المتقدم، وكشف عن استحسانه له بقوله: "والذي عندي في ذلك أن عبد الملك أصحّ نظراً من كثير... ففي وصف الأعشى دليل على شدة شجاعة صاحبه لأن الصواب له ولا لغيره الاّ لبس الجُنّة، وقول كثّير يقصر عن الوصف"[1] فكان استحسان الناقد من أجل أن الاعشى صور المثل العليا في الشجاعة وليس لأنه صور واقعاً. فالمبالغة عند قدامة أفضل من الاقتصار على الأمر الوسط. وقول كثيّر لا مبالغة فيه.

وهذا النص يكشف لنا تجليات التغير الواقعة والمتمثلة بصفات المدح غير الواقعية.

ولم يضف المزرباني (ت384هـ) شيئاً على قول قدامة سوى أنّه نقل كلام قدامة بتمامه واتفق معه، فيرى أن ملاحظة عبد الملك كانت صحيحة، فقد علق قائلاً: "رأيت أهل العلم بالشعر يفضلون قول الاعشى في هذا المعنى على قول كثير، لأن المبالغة أحسن عندهم من الاقتصار على الأمر الوسط، والاعشى بالغ في وصف الشجاعة، حتى جعل الشجاع شديد الاقدام بغير جُنّة على أنه وان كان لبس الجنّة أولى بالحزم واحق بالصواب، ففي وصف الاعشى دليل قوي على شدة شجاعة صاحبه لان الصواب له ولا لغيره الاّ لبس الجنة وقول كثيّر يقصر عن الوصف"[2].

وقال النابغة الجعدي[3] (ت65هـ):

فتى كَمُلت أخلاقه غَيَر أنّه جوَادُ فما يُبقي مِن المالِ باقيا

فقد استحسن ابن المعتز (ت296هـ) هذا معبراً عن استحسانه بقوله:

"ومن محاسن الكلام والشعر تأكيد المدح بما يشبه الذم كقول النابغة: ..."[4].

أما الحاتمي (ت388هـ) فقد استجاد بيت النابغة الجعدي سابق الذكر، وكشف عن استجادته له في قوله: "وأنا استحسن [...] قول النابغة الجعدي: فتى كملت اخلاقه... فقوله (غير أنه جواد) في البيت الأول وقوله في الثاني (على أن فيه مايسوء الاعاديا) أبرع استثناء وألطفه"[5].

والمهم هنا أن الناقد كشف عن هذا النوع من المديح، والذي يسمى الايهام بالذم لأنه يوهم المتلقي بأن القائل يريد ذمّه. لكنه في حقيقة الأمر، جاء بصفة مدح ثم أكدها بصفة مدح اخرى. وهذا ناتج عن المكانة الثقافية للناقد وسعة باعه في النقد بوصفها عاملاً مؤثراً في استجابة تلقي المديح، ومثل هذا الايهام ينغلق ويشكل لغير الناقد الحاذق. فيستحيل الى معوق من معوقات استجابة التلقي، ومثل هذا الايهام بالذم من خلال تغير الصفات المدحية، ينطوي على تغير في سياق الكلام، على أنه تجلٍّ من تجليات التغير في استجابة وتلقي المدح.

وقال ابو العباس المبرد (ت285هـ) : "من الشعراء من يجمل المدح فيكون ذلك وجهاً حسناً؛ لبلوغه الارادة مع خلوه من الاطالة، وبعده من الاكثار، ودخوله في الاختصار وذلك نحو قول الحطيئة (ت59هـ):

تزور فتىً يعطي على الحمد ماله ومن يعِطِ اثمان المكارم يُحمَد

يرى البخل لايبقى على المرء مالَه وَيَعلم أن المرء غير مخلـدِ

---

(5) ينظر:نقد الشعر:70، وينظر:طبقات فحول الشعراء:541/2،وجمهرة أشعار العرب، القرشي: 67 للإفادة.

(1) نقد الشعر: 70.

(2) الموشح: 231.

(3) ديوان النابغة الجعدي: 175.

(4) كتاب البديع، أبن المعتز: 62.

(5) حلية المحاضرة 1/ 63.

ورواه غيره أن المال غير مُخلد:

كسوبُ ومتلاف إذا ما سألته تهلل واهتز اهتزاز المهنّدِ

متى تأته تعشو الى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

تصرف في أبياته هذه في أصناف المديح، وأتى بجماع الوصف، وجملة لمدح على سبيل الاقتصار في البيت الأخير"[1].

نجد أن المبرد استجاد القصيدة هذه وعبّر عن استجادته لها صابّا اهتمامه على صفات المدح وطريقة عرضها.

فيما استجاد هذه المدحة أيضاً قدامة بن جعفر وكشف عن استجادته بقوله: "ثم من الشعراء الآن من يجمل المديح فيكون ذلك باباً من أبوابه حسناً أيضاً، لبلوغه الأرادة مع خلوه من الاطالة، وبعده من الاكثار ودخوله في باب الاختصار فمن ذلك قول الحطيئة : تزور..."[2].

ونلحظ أن الناقدين اتفقا في استحسان هذه المدحة لأن الشاعر أجمل المدح بجماع الوصف، وخلت من الاطالة. وقد وفق الشاعر في ايصال مدحته بكلام موجز بليغ والفاظ حلوة. وما هذا إلا علم الشاعر ودرايته بالمديح الجيد وهي مكانته الثقافية بوصفها عاملاً مؤثراً في تلقي المدح والاستجابة له.

وبوساطة الشعر يستطيع الشاعر أن يرفع من شأن قبيلة أو يحطّ منها، بل أن بيتاً واحداً من الشعر فعل ذلك، فقد روى الجاحظ: "كان الرجل من بني أنف الناقة اذا قيل له ممن الرجل؟ قال: من قريع، فما هو الاّ أن قال الحطيئة:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوّي بأنف الناقة الذنبا

وصار الرجل منهم اذا قيل ممن أنت؟ قال من بني انف الناقة"[1].

ونخلص مما تقدم، الى أن الناقد كان يقف امام النصوص المدحية معرباً عن استجادته لها او عدمها بطرائق لفظية مختلفة تقف عند حدود الاستحسان او الاستهجان. ونزاره يُعَلّل ويُدِل المتلقي على مواطن القوة أو الضعف والصواب والخطأ كما مرّ في اثناء البحث. وقد اختلف الناقد مع الممدوح من حيث الاعراب عن الاستجادة بالتصرف أو المال فقد اقتصرت على الممدوح دون الناقد. فمن امثلة الاعراب عن الاستجادة قولهم: (من المديح البليغ الموجز)، و(هذا حسن كله بارع)، وغير ذلك من التعبيرات اللفظية.

ومن امثلة الاعراب عن عدم الاستجادة قولهم: (هذه اللفظة لاتتناسب والمعنى) ومثل: (هذا لايمدح به السوقة)، ... الخ.

أما المعوقات التي كانت تحول دون استجابة بعض النقاد للمديح الجاهلي فكان منها: الالفاظ التي لاتناسب المعنى؛ كعدم استحسان الأصمعي للفظة السقيم التي في قول النابغة الذبياني: نظرت اليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم الى وجوه العوّدِ

ومنها ايضاً (المبالغة) من مثل عدم استحسان ثعلب لقول النابغة:

فانك شمسُ والملوك كواكب إذا طلعتْ لم يبدُ منهنّ كوكب

---

[1] العمدة: 2/ 137، وديوان الحطيئة: 37. وفيه (تزور امرأً) و(ومن يؤت) وفيه (ويعلم أن البخل...).

[2] نقد الشعر: 79.

[1] البيان والتبيين: 38/4، وينظر: زهر الاداب: 53/1، والتكسب بالشعر: 15.

فعدّه افراطاً في المدح.

أما الايهام بالذم فمثاله قول النابغة الجعدي:

فتى كملت اخلاقه غير أنه جواد فما يُبقي من المال باقيا

الذي كاد ينغلقُ ويُشْكِلُ ويوهم الناقد غير الحاذق فيستحيل معوقاً.

ومن المعوقات الاخرى: الابتداءات غير الموفقة، ومنها ابتداء الاعشى:

مابكاء الكبير بالاطـلال وسؤالي وهل ترد سؤالي

الذي لم يرض ابن طباطبا.

والمنزلـة الاجتماعيـة هـي الاخـرى مـن معوقـات الاسـتجابة، كعـدم مراعـاة النابغـة لمنزلة ممدوحه الاجتماعية في قوله:

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السّباسب

التي امتعض منها أبو هلال العسكري.

وآخـر هذه المعوقـات : اخـتلاف الذائقـة النقديـة واللغويـة بـين النقـاد انفسـهم المتمثلـة بعدم استحسان ابي هلال مدحة الاعشى:

ويأمر لليحموم كلّ عشيّةٍ بقَتّ وتعليقٍ فقد كانَ يسنقُ

التي استحسنها من قبله ابن قتيبة فعد ذلك غير معيب.

اما ما يخص العوامل التي كانت وراء تلقي الناقد للمديح الجـاهلي فتتمثل بالمكانـة الثقافيـة العربيـة للشـاعر والناقد بصـورة عامـة. ومثـال ذلـك ثقافـة الاعشـى التـي مكنتـه مـن اجمـال صـفات المـديح بجمـاع الوصـف وجملـة المـدح علـى سـبيل الاقتصـار فـي قولـه:

مَتَى تأتِه تَعشو الى ضَوءِ نارهِ تَجدْ خَيرَ نارٍ عِنْدها خَيرَ مَوَقدِ

أمـا المكانـة الثقافيـة اليونانيـة التـي تـأثر بهـا قدامـة فكانـت العامـل الآخـر، فقـد اسـتجاد قـول النابغة: بأنكَ شمسُ والملوكُ كواكبُ إذا طَلَعْتَ لَمْ يَبدو مِنْهنَّ كوكبُ .

الـذي ينطـوى علـى المبالغـة والغلـو اللـذين يـدعو لهمـا قدامـة بفعـل تـأثره بالثقافـة اليونانية.

أمـا تجليـات التغيـر فـي الاسـتجابة والتلقـي للمـديح الجـاهلي فكانـت تتمثـل بتغيـر الصفات المدحية كما في قول زهير:

تراهُ إذا ما جِئتَهُ مُتَهلِلاً كأنّكَ تَعطيه الذي أَنْتَ سائِلُه

التي وصفها ابن طباطبا بأنها من حقائق المعاني وجودة الألفاظ. وتغير السياق الذي يتضح في قول النابغة الجعدي:

فَتىً كَمُلَتْ أخلاقُهُ غَيرَ أنّهُ جَوادُ فَما يُبقي مِنَ المالِ باقِيا

تلقي الناقد للمديح الإسلامي

ومما هو بديهي تغير حال الشعر والنقد في العصر الإسلامي نتيجة الثورة التي أحدثها الاسلام بنزول القرآن والدعوة الى الالتزام بتعاليمه ومنهجه، مما أدى الى تغير ملحوظ في أوضاع الشعر والشاعر واختلاف الدوافع التي تكمن وراء قوله. وقد كانت الاحكام النقدية في بداية العصر الاسلامي امتداداً لما سبقها، وتطورت فيما بعد وأتسعت، مما أدى الى اختلاف الآراء في ضروب الصياغة والأساليب. ولابد أن نشير الى أن النقاد الذين سندرسهم هم من عصور تالية للعصر الاسلامي، وهذا يعني أن احكامهم النقدية قد بلغت النضج بفعل التطور الفكري والحضاري وانفتاح المسلمين على عوالم جديدة من المعرفة.

ولم يكن في العصر الاسلامي والأموي من يمكن ان ينطبق عليه مصطلح (ناقد)، ولذا لم نجد نماذج دالة تنضوي تحت هذا الموضوع، ولكننا وجدنا ذلك في العصر العباسي.

فقد حظيت قصيدة أبي طالب في مدح الرسول (ص)، التي أولها[1]:

وابيض يستسقى الغمام بوجهه ربيعُ اليتامى عصمة للأراملِ

حظيت باعجاب ابن سلام (ت231هـ) فقد استحسنها واشاد بها معرباً عن ذلك بطريقة لفظية فقال: "وأبرع ما قال قصيدته التي مدح بها النبي (ﷺ)"[2].

---

[1] ديوان شيخ الاباطح أبي طالب: 6.

[2] طبقات فحول الشعراء:1/ 60.

ولم نعثر بعد البحث والتنقير على نصوص مدحية اسلامية وقف عندها النقاد سوى قصيدة ابي طالب المتقدمة الذكر التي اعرب ابن سلام عن استجادته لها بطريقة لفظية بقوله: وأبرع ما قال قصيدته التي مدح بها النبي (ﷺ). وقصيدة كعب بن زهير – البردة.

تلقّي الناقد للمديح الاموي

بعد الوقوف على طبيعة تلقي النقاد للمديح الجاهلي، سنقف في هذا المبحث على تلقيهم للمديح الاموي مُدلّين على طرائق الاستجادة ومعوقاتها وتجليات التغير فيها واهم العوامل المؤثرة في التلقي. فلم يستحسن قدامة بن جعفر مديح عبيد الله بن قيس الرقيات (ت75هـ) لعبد الملك حين مدحه بقوله[1]:

يأتَلِقُ التاجُ فوق مَفْرِقه
على جَبين كأنّه الذّهبُ

وقد أحال سبب عدم الاستحسان الى أن الشاعر لم يمدح بالصفات النفسية:(العقل، والعّفة، والعدل، والشجاعة) وما جانسها وعدّ ذلك معيباً في المدح[2]. فقد كان قدامة يذهب الى أن المدح بالحسن والجمال والذم بالقبح والدمامة ليس مدحاً حقيقياً ولا ذماً على الصحة[3] فيعيب قدامة كل من يمدح بغير هذه الصفات ويعدل عنها اذ يقول "... [ولما] ذكرنا أن من قصد لمدحهم بالفضائل الخاصية كان مصيبا، وجب أن يكون ما يأتي به من المدح على خلاف الجهة التي ذكرناها في النعوت معيباً"[4].

وقد انشد عبيد الله الرقيات مدحته في عبد الملك[5]:

إنّ الحوادث بالمدينة قدْ أوجعنني وقرعْنَ مَرْوَتيَهْ
وجبنني جبّ السنام فلمْ يَتركن ريشا في مناكبيَهْ

فقال عبد الملك احسنت لولا أنك اخنثت في قوافيك. لكن الشاعر ردّ عليه وقال له: ما عدوت كتاب الله ﴿ما أغنى عنّي مالية ، هلك عني سلطانيةْ﴾[6].

وَقد علق ابو هلال العسكري على جواب ابن الرقيات بقوله: وليس كما قال، لأن فاصلة الآية حسنة الموقع، وفي قوافي شعره لين[1].

فقد عبّر ابو هلال عن عدم استجادته لتلك المدحة بهذه الطريقة اللفظية، وقد نزيد على الاختلاف بين ما قاله ابن الرقيات وما استشهد به من قول الله عزّ وجل فيما يخص فاصلة الآية فكرة مفادها أن الفاصلة في الآية الكريمة تحتمل اللين والقوة، لأنها تتكون من

---

(1) ديوان عبيد الله ابن قيس الرقيات:5، وفيه : (يعتدل) وليس (يأتلق).
(2) ينظر: نقد الشعر: 189.
(3) ينظر: سر الفصاحة: 256.
(4) نقد الشعر: 66 ، ويُنظر: 189.
(5) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات:98.
(6) الحاقّة/ 28-29.
(1) ينظر: كتاب الصناعتين : 2/ 471.

متحركين وساكن (//ه) أما قافية الشاعر فانها تتكون من ثلاثة متحركات وساكن (///ه) فهي لا تلفظ الاّ باللّين والرخاوة. وهنا يَظهر اختلاف بين ذائقة الناقد والشاعر لغوياً ونقدياً. وهذا موضع غير مناسب لتلقي المديح فهو من معوقات الاستجابة وقد أثرت في ذلك ثقافة كل من الناقد والشاعر بوصفها عاملاً مؤثراً في التلقي.

ورأى عبد العزيز عتيق ان عبد الملك التفت في نقده هذا الى موسيقى الشعر، فعَاب على ابن قيس الرقيات قافيته هذه لما يظهر فيها من رخاوة وليونة ينزلان بقيمة الشعر الصوتية وموسيقاه[2].

ومما أخذ على الاخطل (ت95هـ) قوله يمدح عبد الملك بن مروان[3]:

وقدْ جَعَلَ الله الخلافةَ منْهُم لأبيض لا عاري الخوانِ ولا جَدْبِ

فلم ينل هذا المديح اعجاب ابن قتيبة وقد أفصح عن عدم استجادته له بقوله: "وهذا مما لايجوز أن يمدح به خليفة. ويجوز أن يمدح به غيره"[4].

وهذا عامل من العوامل التي تؤثر في استجابة تلقي المدح لكون الشاعرلم يلتفت الى مراعاة منزلة الممدوح الأجتماعية، وهذا عيب في شعر المديح، لأن الشاعر أنزله برأي الناقد عن مرتبته ومكانته التي يستحق. فينبغي للشاعر أن يجعل لكل ممدوح ما يناسبه من المدح فلكل مقام مقال.

أما الآمدي (ت370هـ) فلم يرض بهذا المدح أيضاً، وقد كشف عن عدم رضاه بقوله: "وهذا لايمدح به خليفة"[1].

أما ابو هلال فقد رفضه أيضاً وأفصح عن رفضه هذا بطريقة لفظية فقال: "وقريب منه قول الاخطل"[2] أي مما لايجوز أن يمدح به خليفة.

كذلك عاب هذا الشعر ابن رشيق فقال: "وكذلك لايجب أن يمدح الملك ببعض ما يتجه في غيره من الرؤساء، وان كان فضيلة.. وقالوا: لو مدح بها حرسياً لعبد الملك لكان قصّر به"[3].

أما ابن سنان (ت466هـ) فعبّر عن عدم استجابته لهذا المديح بقوله: "ليس يليق هذا بمدح الخلفاء إنما يصلح للطبقة السفلى من الناس"[4].

ويبدو هنا ومن خلال آراء النقاد في الاعراب عن عدم الاستجابة لهذا المدح أنهم متفقون على أن الشاعر ملزم في مديحه بمراعاة مكانة ممدوحه، فإن تجاوز أو قصّر بها أخذ عليه وعيب شعره لان الناس طبقات. وقد علق احمد ابو حاقة قائلاً: "والذي يقصد مراعاة الممدوح واحواله وان يكون لكل مقام مقال فيخيط الاثواب بشكل يناسب لابسيها"[5]

كما لم يستجد ابو هلال مدح عبد الله بن الحويرث لبشر بن مروان في قوله:

---

[2] ينظر: تاريخ النقد الادبي عند العرب: 225.
[3] شعر الاخطل: (لم أجده في الديوان).
[4] الشعر والشعراء: 244.
[1] الموازنة: 46/1.
[2] كتاب الصناعتين: 81/1.
[3] العمدة: 129/2.
[4] سر الفصاحة: 251.
[5] فن المديح وتطوره في الشعر العربي: 35.

إنّي رحلتُ الى عمرو لأعرِفَهُ إذ قيل بِشْرُ وَلَمْ أعدِلْ به نشبا

فقد عبّر عن عدم استحسانه بقوله: "ومن عيوب المدح قول بعضهم: اني رحلت... فنكر الممدوح، وسلبه النباهة وكان ينبغي أن يقول (ليعرفني) "[6].

فلم يستجد الناقد هذا المدح لأن الشاعر أتى بالفاظ لاتتفق ومكانة الممدوح. ومثل هذه الالفاظ الموضوعة في غير محلها، تعدّ مواضع غير مناسبة في المديح فقد شكلت عاملاً مهماً من عوامل سلبية الاستجابة والتلقي.

ولم يفلح ايمن بن خريم (ت 80 هـ) في مدحه بشر بن مروان اذ يقول[1]:

فلو أعطاك بشرُ الف الف رأى حقاً عليه أن يزيدا

واعقب مدحتي سرجاً خلنجاً وابيض جوزجانيا عنودا

فإنا قد وَجَدْنا أمَّ بشْرٍ كأمّ الأُسْدِ مِذكاراً وَلُودا

فاستهجن قدامة هذه المدحة وبين الاسباب في عدم استحسانه لهذا المديح من خلال تعليقه: "فجميع هذا المدح على غير الصواب، وذلك أنه أومأ الى المدح المتناهي في الجود أولاً، ثم أفسده في البيت الثاني بذكره السرج وغيره، ثم ذكر في البيت الثالث ماهو الى أن يكون ذما أقرب؛ وذلك أنه جعل أمه ولوداً، والناس مجمعون على أن نتاج الحيوانات الكريمة يكون أعسر"[2].

وقال الآمدي: "وعِيب على أيمن بن خريم قوله يمدح بشر بن مروان:

فإنّا قَدْ وَجَدْنا أمَّ بشرٍ كأمّ الأسْدِ مِذكارا وَلوُدا

فقالوا أخطأ في أن جعل أمّ الأسد ولودا؛ لأن الحيوانات الكريمة عسرة النتاج"[3].

وذلك يدل على عدم استجادة الآمدي لمديح أيمن وعبر عن عدم استجادته له بقوله: "قالوا : أخطأ..."[4] ثم استشهد بقول كثيّر لما فيه من صواب[5]:

بغاث الطير اكثرها فراخا وام الصقر مقلاة نزور[1]

واستنكر ابو هلال العسكري ذلك المدح أيضاً فأفصح عن ذلك الاستنكار بقوله: "ومن عيوب المدح قول أيمن بن خريم [...] في بشر بن مروان [...] جميع هذا الكلام جار على غير الصواب الاّ في ابتداء وصفه في التناهي في الجود ثم انحطّ الى مالا يقع مع

---

(6) كتاب الصناعتين: 106.

(1) ديوان ايمن بن خريم:29.

(2) نقد الشعر: 191-192.

(3) الموازنة: 43/1.

وفي الموشح: 222 (لو أعطاك) وفي كتاب الصناعتين :106/1 (فإن أعطاك) كذلك ورد في الصناعتين (وانّا قد رأينا).

(4) الموازنة : 1/ 43.

(5) شرح ديوان كثير: 93.

(1) ينظر: الموازنة: 43/1.

الأول موقعاً وهو السرج وغيره. وأتى في البيت الثالث بما هو أقرب الى الذم منه الى المدح... لأن الناس مجمعون على أن نتاج الحيوانات الكريمة أعسر واولادها أقل"[2].

وهكذا نرى هؤلاء النقاد يتداولون الحكم النقدي نفسه بحق هذه الابيات التي اوحت بان ثقافة الشاعر لم تكن تؤهله للتمييز بين الصواب والخطأ في دقة التشبيه حيث أراد ان يمدح فهجا فأشكل بين المدح والهجاء، وهذا الاشكال يعدُّ عائقاً لاستجابة التلقي في حين كان النقاد على ثقافة واسعة مما أهلتهم للتنبّه على خطأ الشاعر. ومن هنا يتضح أن المكانة الثقافية للنقاد استوت عاملاً مؤثراً في استجابة تلقي المدح.

ويتعرض قدامة لنقد أيمن في مدحه بِشراً أيضاً:[3]

ياابن الاكارم من قريش كلهّا وابن الخلائف وابن كل قلمّس
من فرع آدم كابراً عن كابرٍ حتى انتهيت الى أبيك العنبسِ

فيقول : "مافي هذه الابيات شيء يتعلق بالمدح الحقيقي وذلك أن كثيراً من الناس لايكون كآبائهم في الفضل. ولم يذكر هذا الشاعر شيئاً غير الآباء، ولَمْ يصف الممدوح بفضيلة في نفسه أصلاً"[4]. وغياب صفات المدح هنا شكل عاملاً من عوامل سلبية الاستجابة لدى قدامة.

ورأى احمد بدوي أن نقاد العرب ينقدون الشعراء الذين تزيد قريحتهم على عقولهم بمعنى "ان ينصرف الشاعر الى فنه فيجوده غير ملقٍ بالاً الى هذا المعنى فيه ادعاءً لايليق به او فيه أمنية لا يليق ان تصدر منه، أو يأتي بمعنى لو عرضه لحوّر فيه وغيره"[1] ومن هذا النوع قول كثير[2]:

فإنّ أمير المؤمنين برفقه غزا كامنات الودّ منّي فتالها

وقوله[3]:

ومازالت رقاك تسل ضغني وتخرج عن مكانها ضبابي
ويرقيني لك الراقون، حتّى أجابت حيّة تحت الترابِ

فهذا الأمر مثلاً مالَمْ ينل اعجاب ابن طباطبا إذ أعرب عن عدم استجادته له بطريقة لفظية مشيراً الى هؤلاء بأن قريحتهم زادت على عقولهم[4].

أما المرزباني، فأماط اللثام عن عدم استجادته لهذا المدح مستفهماً:

"أهكذا يمدح الملوك؟!"[5].

كما أعرب أبو هلال العسكري عن عدم استجادته له بقوله ساخراً: "وأظرف منه [أي من قول الأخطل] قول كثيّر... (الأبيات) فجعل أمير المؤمنين يتودد اليه"[6].

---

[2] كتاب الصناعتين: 1/ 106.
[3] ديوان أيمن بن حزيم: 47.
[4] نقد الشعر: 190.
[1] اسس النقد الادبي: 449، وتنظر: 209.
[2] شرح ديوان كثيّر:153.
[3] م. ن: 39.
[4] عيار الشعر: 91.
[5] الموشح: 228-129 وتنظر:134.
[6] كتاب الصناعتين: 81/1.

فهذه صفات غير مناسبة ولا تليق بمنزلة الممدوح الاجتماعية، لأن الشاعر - كما قال أبو هلال- جعل الممدوح يتودد اليه. فهذا مديح كالهجاء، واذا كان كذلك فهو يشكل عائقاً لاستجابة تلقي المدح لأنه موضع لايناسب الخليفة.

وقال الفرزدق (ت110هـ) يمدح الامام زين العابدين (عليه السلام)[7]:

في كفه خيزران ريحهُ عبقُ   مِن كفّ أروع في عرنينه شممُ
يُغضي حياءً ويغضى من مهابته   فما يُكلم الاّ حين يَبتسمُ

فعبّر ابن قتيبة عن استحسانه لهذا المدح بقوله: "ضرب حسن لفظه وجاد معناه كقول الفرزدق: في كفه [...] ولم يقل في الهيبة شيء أحسن منه"[1] فقد اعرب الناقد عن استجادته لهذا المدح بطريقة لفظية كما هو مبين، كاشفاً عن تجليات التغير في الالفاظ والصفات.

واستحسنه الناقد قدامة معبّراً عن استجادته له بقوله: "واصابة الوجه في مدح الملوك مثل قول الفرزدق: في كفه..."[2].

وقد دل الناقد على ثقافة الشاعر بوصفها عاملاً مؤثراً في تلقي المديح.

وأبان الحصري القيرواني (ت453هـ) عن اعجابه بهذا المدح قائلاً: "وليقله مَن شاء، فقد أحسن ما أشاد وأجاد وزاد"[3] لقد أصاب الشاعر في اختيار هذه المعاني التي تتلاءم وشخصية الامام مما جعل النقاد يستحسنونها ويستجيبون لها معربين عن ذلك بطرائق لفظية مختلفة كما أشير اليه.

ومن سوء النظم والمعاظلة ما قاله الفرزدق في مدح ابراهيم بن هشام خال عبد الملك[4]:

وما مثله في الناس الا مملكاً   أبو أمّه حي أبوه يقاربُه

فقد أثار غضب المبرد وعدم استجادته له لما فيه من تقديم وتأخير أضفى عليه صفة التقعيد والتقعر، فأعرب عن ذلك بقوله: "إنه من أقبح الضرورات"[5].

وابن طباطبا الناقد لايستحسن هذا المديح وأفصح عن عدم استحسانه له بقوله: "هذا هو الكلام الغث المستكره الغلق"[6].

ولم يستحسن هذا المدح قدامة بن جعفر فقد أشار الى عدم استحسانه لمثل هذا المدح في باب نعت ائتلاف الالفاظ مع الاوزان بأن تكون الاقوال على ترتيب ونظام، لم يضطر الوزن الى ما يجب تقديمه ولا العكس ، بل يكون الموصوف مقدماً على الصفة[1].

---

(7) ديوان الفرزدق: 178.
(1) الشعر والشعراء: 21.
(2) نقد الشعر: 83.
(3) زهر الآداب : 1/ 105-106.
(4) ديوان الفرزدق:26.
(5) الكامل في اللغة والادب: 18/1.
(6) عيار الشعر: 43.
(1) ينظر: نقد الشعر: 166.

أما المرزباني فقد علق على هذا المدح بقوله: "فأتعب أهل اللّغة والنحو بشرحه، ومنهم سيبويه ومَن بَعَدهُ ولم يبلغ قوامته ما يقنع ويرضي"[2] ورأى أنه تعسف هذا التعسف الشديد ووضع اشياء في غير موضعها[3].

ولم تخرج ذائقة ابي هلال عن اصحابه النقاد فاطلق على مثل هذا المدح (المعاظلة)، وقال : "فمن المعاظلة قول الفرزدق..."[4].

أما ابن سنان الخفاجي فلم يرض من الفرزدق هذا المدح. وقد كشف عن عدم رضاه بتعليقه: "ففي هذا البيت من التقديم والتأخير ما قد أحال معناه وأفسد اعرابه لأن مقصوده، وما مثله في الناس حي يقاربه الاّ مملكا أبو أمه أبوه، يعني هشاماً، لأن أبا أمه ابو الممدوح"[5].

ولعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) تعليق يدل على رفضه لمثل هذا المدح فيعلق على الكلام المعقد والتأويلات المتكلفة في بيت الفرزدق: "فليس ذلك بكثرة الاعراب. إنما هو نقص له. لأن الاعراب، أن يعرب المتكلم عمّا في نفسه، ويوضح غرضه، ويكشف اللبس الواقع كلامه على المجازفة في التقديم والتأخير، زائل عن الاعراب، زائغ عن الصواب، فكيف يكون ذلك كثير في الاعراب، انما هو عناء على مَنْ رام أن يرده الى الاعراب لا كثرة الاعراب"[1]. وقد وصفه ابن الاثير بأنه مشوه مقصود[2].

وعلى هذا نرى أن التقديم والتأخير هنا يشكل عائقاً امام الاستجابة للمديح[3]. وعلى قريب من ذلك تفضيل ابن سلاّم حين سأله معاوية بن أبي عمرو بن العلاء؛ أي البيتين عندك أحسن قول جرير[4]:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راحِ

أم قول الاخطل[5]:

شمس العداوة حتى يستقاد لهم واعظم الناس أحلاماً إذا ما قدروا

فقال : قول جرير، لسهولته ويسره. فاعرب عن تفضيله له واستحسانه بقوله: "بل قول جرير اسهلهما وأيسرهما"[6].

ويستشف من قول ابن سلاّم اهتمامه بالالفاظ وبتراكيبها. مما جعل البيت مستجاداً مقبولاً عنده. وهذا يكشف عن تجليات التغير في الالفاظ.

وقال الكميت (ت126هـ) رحمه الله يمدح النبي الكريم عليه الصلاة والسلام[7]:

---

(2) الموشح : 152.
(3) ينظر: م.ن: 152.
(4) كتاب الصناعتين:1/ 168-169.
(5) سر الفصاحة: 101.
(1) اسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني: 66.
(2) ينظر: المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر: 2/ 46.
(3) للمزيد ينظر: الموازنة: 1/ 280، والموشح: 162-163، وتاريخ النقد العربي: 152/1، والتطور والتجديد في الشعر الاموي: 217، والنقد اللغوي عند العرب: 299-300.
(4) ديوان جرير:77.
(5) شعر الاخطل:673.
(6) طبقات فحول الشعراء: 426/2.
(7) الروضة المختارة : 52.

اليك ياخير من تضمنت الـ أرض ولو عاب قولي العيب
لج بتفضيلك اللسان ولـو اكثر فيك الضجاج واللجبُ
الى السراج المنير احمد لا تعدل بي رغبةُ ولا رهبُ
عنه الى غيره ولو رفع الـ ناس اليّ العيونَ وارتقبوا
وقيل أفرطتَ بل قصدتُ ولو عنفنّي القائلون أو ثلبـوا

فلم يستحسن الجاحظ (255هـ) هذا المديح وعدّه من الخطأ، وأعرب عن عدم استجابته له بقوله: ومن المديح الخطأ الذي لم أر قط أعجب منه قول الكميت بن زيد الاسدي وهو يمدح النبي (ﷺ) ... فمن هذا الذي يسوؤه (مدحه) حيث قال:

اليك ياخير من تضمنت الـ أرض ولو عاب قولي العيب
لج بتفضيلك اللسان ولـو اكثر فيك الضجاج واللجبُ

ولو كان لم يقل فيه عليه السلام الاّ مثل قوله:

وبورك قبر أنت فيه وبوركت به وله أهل بذلك يثرب
لقد غيبوا برا وحزماً ونائلاً عشية وأراك الصفيح المنصّبُ

فلو كان لم يمدحه عليه السلام الاّ بهذه الاشعار التي لاتصلح الاّ في عامة العرب لما كان ذلك بالمحمود ، فكيف مع الذي حكينا قبل هذا؟[1].

لقد اخضع الجاحظ تلقيه لمديح الكميت الى المعنى الذي يليق برسول الله (ﷺ) وحسب، أي أنه أراد من الشاعر أن يضفي على الرسول الكريم (ﷺ) صفات بعينها تميزه عن عامة الناس من مثل قوله (نبي، رسول، سيد بني هاشم). ولما كان "الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير"[2] فان الشاعر –في رأي الجاحظ- لم يبلغ الغاية في اختيار المعاني التي تليق بشخصيّة الرسول (ﷺ) ولم يتمكن من استنباط الصور التي تميز هذا الشخص الفذ من غيره من سادة العرب[3]. وفي ضوء ذلك تتكشف لنا تجليات التغير في الاستجابة والتلقي في تغير الصفات.

فالجاحظ أراد أن يصف الرسول (ﷺ) بما يميزه عن غيره من الناس. ولما كان الأمر غير ذلك، لم يستجب للشعر وعدّه من غير المحمود. هذا من جانب ومن جانب آخر فإن اختلاف الذائقة بين الناقد والمادح استحالت عائقاً من معوقات التلقي. إذ كانت ذائقة الشاعر تتجه باتجاه معان معينة، في حين كانت ذائقة الناقد تسير بأتجاه رسم الصور والصفات.

وعدّه الآمدي من الخطأ أيضاً ولم يستحسنه وعبّر عن ذلك بقوله: "فمن يُعنّفهُ ويؤنبه على مدح رسول الله عليه السلام حتى يكثر عليه فيه من الضجاج واللّجب؟ ولو كان قاله بين المشركين وفي صدر الاسلام لعل العذر كان يتسع له فيه"[1].

أما ابن رشيق فقال معبراً عن عدم استحسانه له: "ومما أخذ على الكميت قوله يمدح النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم: ... قالوا مَنْ الذي يقول في مدح النبي صلى الله عليه

---

[1] ينظر: الحيوان، الجاحظ: 169/5-171 ، والموازنة: 46/1، والعمدة 135/2
[2] الحيوان: 315/5.
[3] ينظر: مقالات في تاريخ النقد العربي: 132.
[1] الموازنة: 46/1.

[وآله] وسلم أفرطت أو يعنفه او يثلبه، حتى يكثر الضجاج والصّخب؟ وهذا كله خطأ منه وجهل بمواقع المدح"[2]. وهذا هو الجانب الاخلاقي.

من هنا يتضح أن الامدي وابن رشيق لم يستجيدا هذا المدح لأنه توفر على الفاظ (الضجاج) و(اللجب) التي جاءت في غير موضعها، ومثل هذه المواضع غير المناسبة وقفت عائقاً أمام الاستجابة والتلقي. أضف الى ذلك اعتراضهم على المعاني.

وقال الكميت في مفتتح قصيدته[3]:

طربت وما شوقاً الى البيض أطرب ولا لعباً منّي وذو الشيب يلعبُ

ولكن الى اهل الفضائل والنهى وخير بني حّواء والخير يطلبُ

"وقد يصف رحلته في الصحراء، ولكنه يأتي بها في آخر القصيدة كأنه يريد أن لايشغله شيء من مديح بني هاشم"[4]. فهو لم يبتدئ باطلال ولا بغزل، وقد جاء بوصف الرحلة في الخاتمة[5] ويتبين من هذا التغير ان الشاعر خالف شعراء زمانه وغيرهم في بنية القصيدة المعهودة . وهذه تجليات تغير في بنية القصيدة الكميتية الهاشمية.

ومن خلال الرحلة التي ليست بالقصيرة مع ماروي من وقائع واخبار تكشف عن مدى تلقي الناقد للمديح الاموي، تبين لنا أن الناقد عبّر عن استجادته بطرائق لاتختلف كثيراً عما عبّر بها عن استجادته للمديح الجاهلي والاسلامي. ومما قالوا في هذا الشأن: (بل قول جرير اسهلهما وأسيرهما) (ومما يختار من شعره...). وعن عدم الاستجادة قالوا : (ومن عيوب المدح) (وهذا مما لايجوز أن يمدح بها خليفة) (لو مدح بها حرسيّا لكان قصّر به) (وهذا من اقبح الضرورات) الخ.

اما المعوقات التي كانت وراء عدم الاستجابة فكانت على قسمين: الأول؛ (اختلاف الذائقة النقدية واللّغوية) للناقد والمادح المتمثلة بالتباين الحاصل بين الناقد والشاعر ابن قيس الرقيات حين قال:

إن الحوادث بالمدينة قَدْ أوجعنني وقرعن مَروَتيهْ

من حيث فاصلة الآية الكريمة ﴿ما أغنى عني ماليه﴾ التي يصفها الناقد بأنها حسنة الموقع وفي قوافي شعره لين (مَرْوَتِيَهْ).

أما القسم الثاني فهو (المواضع غير المناسبة للمديح) وفيه الالفاظ غير المناسبة لمنزلة الممدوح كقول عبد الله بن الحويرث يمدح بشر بن مروان:

اني رحلت الى عمرو لأعرفه اذا قيل بشر ولم اعدل به نشبا

التي امتعض منها ابو هلال لأنها جاءت في غير محلها الصحيح.

كذلك من هذه المواضع؛ المديح كالهجاء ومثاله؛ قول أيمن بن خريم في بشر:

فإنا قد وجدنا ام بشر كأمَّ الأسْد مذكاراً ولودا

الذي استهجنه قدامة والآمدي فوصفاه بأنه مدح على غير الصواب وانه أقرب الى الذم منه الى المدح. ومن هذه المواضع أيضاً عدم استجابة النقاد لقول كثيّر:

---

[2] العمدة: 2/ 143 ، وقد ورد في هامش الموازنة (الشعر) بدلاً من (القول) في البيت الاول.

[3] الروضة المختارة (القصائد الهاشميات) : 25.

[4] التطور والتجديد في الشعر الاموي: 272-273.

[5] ينظر: طبقات الشعراء: 35.

ومازالت رقاك تسل ضعني وتخرج من مكامنها ضبابي

أما فيما يخص تجليات التغير في استجابة التلقي للمديح الاموي فتكمن في تغير السياق كما في قول الفرزدق:

وما مثله في الناس الاّ مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

كذلك تغير الالفاظ الذي يتمثل في تفضيل ابن سلام لبيت جرير: الستم خير من ركب... دالاً بذلك على اهتمامه بالالفاظ وتراكيبها.

ومن التجليات الاخرى؛ تغير الصفات النفسية (العقل، والعفة، والعدل، والشجاعة) ومنها ما تجلى في مدح الفرزدق لزين العابدين (ع): في كفه خيزران...

وآخر هذه التجليات (تغير بنية القصيدة) التي تمثلت في مديح الكميت:

طربتُ وما شَوقاً الى البيض أطربُ...

اذ جعل المقدمة المعهودة في آخر القصيدة.

وقد أثرت في تلقي المديح واستجابته عوامل كان من اهمها المكانة الثقافية للناقد والشاعر. ومثال ذلك مكانة الناقد ابن قتيبة في تبيان عدم مراعاة الاخطل لممدوحه حين قال:

وقد جعلَ الله الخلافةَ منهم لأبيضَ لا عاري الخوان ولا جدْبِ

تلقّي الناقد للمديح العباسي

ان العصر العباسي زاخر بعطائه الفكري على المستويات جميعاً، وقد انعكس هذا بصورة جليّة على النقد. فقد استقى النقاد ثقافتهم من عدة أوعية ومن منافذ متعددة وأضافوها الى الثقافة الاسلامية. فأصبح النقد في هذه الحقبة الزمنية اكثر تخصصاً واكثر علمية حتى إن من الشعراء من كان له باعٌ في النقد. وفيما يأتي أخبار ومرويات نتبين من خلالها كيفية تلقي الناقد للمديح العباسي، ومدى تأثير تلك الثقافات في الاستجابة للتلقي.

فقد ذكر ابن رشيق المدح الجيد والصورة المناسبة لمديح الملوك والاكثر إصابة للغرض ومنه قول الشاعر ابن هرمة في مدحه للمنصور[1]:

له لحظات عن حفافي سريره إذا كرّها فيها عقابُ ونائل
فأمّ الذي أمنّتَ آمنة الردى وأمّ الذي أوعدت بالثكل ثاكلُ

فاستحسن ابن رشيق بيتي ابن هرمة. وقد عبّر عن هذا الاستحسان بقوله: "ومن أفضل ما مدح به الملوك واكثره اصابة للغرض ما ناسب قول ابن هرمة للمنصور"[2]

فقد جاء الشاعر بصفات تتناسب والممدوح فاختار له الالفاظ النقية التي نسجت بخيوط عباسية مستمدة من البيئة المترفة، فحاول أن يلفت نظر المتلقي بالاستجادة لها، وهذا ما أفرزته البيئة. فكان انعكاساً للتطور الفكري والحضاري للشاعر. فينبغي أن يسلك الشاعر في مديح الملوك طريقة الايضاح والاشادة به ويتجنب التطويل والتقصير لأن للملك سأمة وضجراً، وقد يعيب ما لاعيب فيه من أجلها. وفي هذا النص تتضح تجليات التغير في الالفاظ والصفات بدليل قول الناقد (أكثره اصابة) وقد أثرت في تلقي الناقد لهذا الشعر عوامل منها البيئة والتطور الفكري والحضاري.

واستخدم بشار بن برد (ت167هـ) مثل هذه الالفاظ العذبة غير المبتذلة فألصقها بممدوحه وجاء بالمعاني الجزلة. فقال[3]:

إذا نَبَّهتْك حَروب العُداةِ فَنَبّهْ لها عُمراً ثم نَمْ
ولولا الذي زعموا لم أكنْ لأمدح ريحانةً قبل شمْ

فاستجاد ذلك الشعر ابن المعتز، وأفصح عن استجادته له بقوله: "وَمِنْ جيد شعر بشار كلمته في عمرو بن العلاء ...الأبيات"[1].

فنراه يفكر تفكيراً جديداً في انتقاء الالفاظ والمعاني في المديح، وهذا لم يقع في عقل الشاعر القديم إنما يقع في عقل الشاعر العباسي الجديد. وهذا ما أفرزه النظام الفكري والحضاري بوصفه عاملاً مؤثراً في استجابة تلقي المديح.

وقال أحمد بدوي: "يكاد يكون المدح المفضل عند النقاد والممدوحين هو الذي يصور الفضيلة مبالغاً فيها"[2] فقد استجاد ابن المعتز شعر السيد الحميري (ت173هـ) في آل الرسول (ﷺ)[3]:

---

[1] ديوان ابن هرمة: 168.
[2] العمدة: 2 / 138.
[3] ديوان بشار: 160/4.
[1] طبقات الشعراء، :25.
[2] اسس النقد الادبي: 196.
[3] ديوان السيد الحميري:451.

أتى حسناً والحسين الرسولُ وقد برزا ضحوةً يلعبان
وضمّهما ثم فداهما وكانا لديه بذاك المكان
و طأطأ تحتهما عاتقيه فنعم المطية والراكبان

فكشف عن اعجابه بهذه الطريقة اللفظية قائلاً: "ومن مستحسن شعره..."[4].

وقال مروان بن ابي حفصَة (ت181هـ)[5]:

بنو مطر يوم اللقاء كأنّهم اسود لها في غيل خفان أشبل
هم المانعون الجار حتى كأنمالجارهم فوق السماكين منزلُ
بها ليل في الاسلام سادوا ولم يكن كأولهم في الجاهلية أولُ
هم القوم إنْ قالوا أصابوا وإن دعوا أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فعالهم وإن أحسنوا في النائبات وأجملوا

فاستحسن هذا المديح الناقد ابن طباطبا العلوي، وأماط اللثام عن اعجابه به بطريقة لفظية -وهي احدى طرائق الاستجادة- فقال: "فمن الأشعار المتقنة، المستوفاة المعاني، الحسنة الوصف، السلسة الالفاظ...الابيات"[1].

فقد جاء الشاعر بالفاظ موافقة لمعانيها وصفات مدحية فيها نفحة اسلامية، ومُثُل عليا تليق ومكانة الممدوح الاجتماعية. فصور الشاعر في ممدوحه هذه الفضائل، لكنه خرج بها عن الواقع وبالغ كثيراً. وقد استجاب الناقد لهذا المدح لكونه قد تجلت فيه تغيرات في الالفاظ والمعاني التي استطاع الشاعر أن يوظفها في قصيدته، بفضل مكانته الثقافية بوصفها عاملاً مؤثراً في استجابة التلقي.

كما استجاد هذه الأشعار (مديح مروان) الناقد أبو هلال العسكري. وعبّر عن هذه الاستجادة بقوله: "والجيد في المديح قول [...] مروان بن أبي حفصة"[2].

ويستجيد ابن المعتز قصيدة سلم بن عمرو بن حماد (ت186هـ) في يحيى بن خالد الذي يروى أنه أخذ عليها مالاً عظيما وقد قيل من عمل بما في هذه الأبيات من قصيدته جاز أن يكون وزيراً[3] والأبيات هي[4]:

بقاء الدين والدنيا جميعا اذا بقي الخليفة والوزيرُ
يغار على حمى الاسلام يحيى اذا ما ضيع الحزمَ الغيورُ
وليس يقوم بالاسلام الاّ معار يستجار و يستجيرُ
كلا يوصيك من نفع وضرٍ يحوط حمامها كرم و خيرُ
وما ألهاك عمّا أنت فيه نعيم الملك والوِطء الوَفير

الى أن يقول:

وكانت قبلك الوزراء غرقى يؤم كبيرهم فيها الصغيرُ
اذا قامت مساعي الفخر يوماً على الاقدام او مُدحَ المريرُ
فما نفعُ كنفع أبي عليّ ولا أحد يُصير كَما يصرُ

---

[4] طبقات الشعراء: 35.
[5] مروان بن ابي حفصة وشعره: 303.
[1] عيار الشعر: 67.
[2] كتاب الصناعتين: 109/1.
[3] ينظر: طبقات الشعراء: 101-102.
[4] ينظر: الأغاني: 110/21.

فقد عبّر ابن المعتز عن استحسانه لهذا المديح بقوله: "ومن جيد مايروى لسلم كلمته في يحيى بن خالد..."[1] وهذه طريقة لفظية من طرائق الاستحسان. إن القصيدة كانت تنطوي على صفات ومعانٍ اسلامية بوصفها من تجليات التغير لأستجابة التلقي.

ويرى قدامة بن جعفر أن يمدح ذوي الصناعات، كالوزير والكاتب بالتفكير والروية وحسن التنفيذ فاذا زاد الشاعر على ذلك الوصف، بالسرعة في اصابة الحزم والاستغناء بحضور الذهن عن الابطاء لطلب الأصابة كان أحسن وأكمل للمدح[2]، كقول منصور النمري (ت190هـ)[3]:

وليس لأعباء الامور إذا اعتَرتْ بمكترثٍ لكن لَهُنَّ صَبَورُ
يُرى ساكن الأوصال باسط وَجهِهِ يريك الهوينا والامور تطيرُ

فقد استحسن الناقد هذا المديح واستجاب له وقد عدّه أحسن واكمل للمدح لتوفره على سرعة اصابة الحزم وتميزه بحضور الذهن. ومثل هذه الصفات –فضلاً عن العفة والشجاعة والعقل والعدل التي كان يدعو لها قدامة- تعد تجليات تغير (تغير صفات المدح) في استجابة تلقي المديح. فكان الشاعر يمتلك عقلية ثقافية لاءمت عقلية الناقد الذي يعيش في عصر الثقافة والتطور الحضاري بوصفه عاملاً من العوامل المؤثرة في التلقي.

ولابد ان ننبه هنا على أن قدامة أول من دعا الى الصفات المدحية التي تختص بالنفس واستحسن من يجود بمدح من يريد مدحه في الصفات هذه أو في صفة واحدة .

ومما يختار من شعره بكر بن النطاح (ت192هـ) عند ابن المعتز قوله لأبي دلف[4]:

فكفُّك قوسُ والثّرى وترٌ لَها وسهمُك فيه اليُسُر فارمِ به عُسْري

... ومن طريف الشعر وبديعه عنده قوله لأبي دلف ايضاً[5]:

نادى نداك فاتوا هم إذا أمـرا أن يدعوا فأهبّا كل مستمعِ(*)
زوروا الأمير وبيت الله تنتفعوا فاختار وجهك فينا كل منتفع[6]

أراد قول الله عزّ وجل ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ "[1].

فقد عبّر الناقد عن هذا الاستحسان في قوله: (ومما يختار من شعره: فكفك قوس...(البيت)) وكذلك في قوله: (ومن طريف الشعر وبديعه قوله لأبي دلف: نادى نداك...(الأبيات)).

استجاد الناقد أبيات بكر بن النطاح لما جاء فيها من استخدام الالفاظ البديعة والصفات الملائمة للمعاني مما يدل على أن الشاعر اختار المعاني التي تلائم الممدوح مراعياً فيه مكانته الاجتماعية وهذا من العوامل المؤثرة في استجابة التلقي.

وابن المعتز يستجيد قول أبي الشيص (ت196هـ) في عقبة بن الأشعث يمتدحه وكان مطلع القصيدة[2]:

مَرَتْ عينه للشوَق فالدمع منسكبْ طلول ديار الحي والحيُ مغتربْ(*)

---

(1) طبقات الشعراء: 101.
(2) ينظر: نقد الشعر: 84-85.
(3) م.ن :85.
(4) ينظر: طبقات الشعراء: 319.
(5) م. ن: 319.
(*) ورد البيت على هذه الصورة العروضية وهو مختل الوزن.
(6) طبقات الشعراء: 219.
(1) الحج /27.
(2) اشعار ابي الشيص:37.
(*) مَرَت= مسحتها لتدر الدمع.

فقد أعرب الناقد عن اعجابه لهذه القصيدة بطريقة لفظية فقال: "ومِنْ قلائد أبي الشيص كلمته في عقبة بن الأشعث يمتدحه..."[3].

فكان الشاعر واقعياً في مدحه، لم يخرج الى المنطلق المتخيل، فقد تمكن من أرضاء ممدوحه باختيار الالفاظ المناسبة لمنزلته الاجتماعية.

وذكر ابن قتيبة أن مما أُخِذَ علي أبي نواس من الأفراط قوله[4]:

حتّى الذي في الرّحم لَم يَكُ صورة بفؤاده من خوفِهِ خفقان"

فلم يستحسن الناقد هذا المدح وقد عبّر عن عدم استحسانه بطريقة لفظية في قوله: "وأُخِذَ عليه مِن الأفراط قوله: حتى الذي[...]"[5] وان عدم الاستحسان واضح بين لأن الشاعر خرج الى المنطلق المتخيل في المدح وافرط كثيراً"، ولعل الناقد جعل من الدين مقياساً نقدياً.

وعبّر ابن رشيق أيضاً عن عدم استجادته لهذا المدح بطريقة لفظية فقال: "ونعى على أبي نواس قوله: حتى الذي..."[6]. فالمبالغة التي قد تزين الكلام هي في الوقت نفسه من الكذب الذي نهى عنه الاسلام.

وابن قتيبة يستحسن لأبي نواس التشبيه في قوله يمدح الرشيد[1]:

ملك تصوّر في القلوب مثالهُ فكأنَّه لم يَخْلُ منه مكـانُ

ما تنطوي عنه القلوب بفجرةٍ الاّ يكلّمـهُ بهـا اللحظـان[2]

وقد استقبح قدامة قول ابي نواس[3]:

يا أمين الله عِشْ أبــداً دُمْ على الايــام والـزمن

وقد التمس قدامة العذر لأبي نواس اذ قال "ليس يخلو هذا الشاعر من أن يكون تفاءل لهذا الممدوح، بقوله عش أبداً، أو دعا له وكلا الامرين مما لايجوز مستقبح"[4].

وواضح جداً أن الشاعر خرج عن المدح الواقعي الى المنطلق الخيالي والافراط الشديد بالغلو والمبالغة فكيف يعيش أبداً وهذا مستحيل لكنه قول في ساعة طمع وليس في طباع المرء أن يعيش أبداً.

وقد عرّف قدامة في كتابه نقد الشعر الغلو بأنه "الوصف الذي يخرج عن الموجود ويدخل في باب المعدوم"[5] ويعرفه مرة اخرى بانه "تجاوز في نعت ماللشيء أن يكون عليه وليس خارج عن طباعه الى مالايجوز ان يقع"[6] قول الشاعر ضمن التعريف الاول –مالايمكن أن يقع أبداً يا امين الله... وفي كلا الحالتين هو عيب من عيوب المعاني.

وتكشف لنا النصوص عن تجليات التغير في صفات المدح التي استساغها قدامة ومَن تابعه في استجابة وتلقي المدح.

لقد اعرب الناقدان عن عدم استحسانهما لهذا البيت لتوفره على المبالغة المفرطة في الصفات التي خرجت الى المنطلق المتخيل.

---

[3] طبقات الشعراء: 80.
[4] ديوان ابي نواس: 406.
[5] الشعر والشعراء: 415.
[6] العمدة: 2 /62.
[1] ديوان ابي نواس: 405.
[2] ينظر: الشعر والشعراء: 558، وحلية المحاضرة: 1/ 342.
[3] ديوان أبي نواس:413.
[4] نقد الشعر: 213.
[5] م. ن: 63
[6] م.ن: 314.

ويبدو هنا أن الناقدين استاءا من قول ابي نواس لأنه قد غالى في وصف ممدوحه حتى خرج به الى الكفر أو كاد يقاربه.

واما أبو هلال العسكري فله رأيٌ في هذا الغلو اذ يذهب الى أن "مخرج الغلو إنما هو على (كاد) فما لايصلح فيه (كاد) لايحسن كقول أبي نواس : يـاأمين اللـه... وذلك أنه لايحسن أن تقول على مذهب الدعاء: ياأمين اللـه تكاد تعيش أبداً على أنه قول مشهور على ألسنة الخاص والعام"[1].

وبهذا القول نفهم أنه يستقبح ذلك أبو هلال ويَعدّه مما لايجوز . فهو بهذا يعرب عن عدم استجادته له. وقد تجلت في البيت صفات تغير –صفات مدح- متخيلة لايحسن معها التماس العذر بـ(كاد).

كما يرفض أبو هلال شعراً لابي نواس ويَعدّه من المعاني البشعة وكفراً ممقوتاً[2]، هو[3]:

يا أحمد المرتجى في كل نائبـة قم سيدي نعص جبّار السموات

وكذلك لايَستجيد قوله[4]

تنازع الأحمدان الشبه فاشتبهـا خَلقا وخُلقا كما قُدَّ الشّراكانِ

مثلان لافرق في المعقول بينهما معناهما واحد والعدّة اثنان

فقد اسرف هذا الشاعر وغالى في مدح البشر مثل شعراء آخرين "حتى عدّوا ممدوحيهم آلهة وجعلوهم انبياء"[5]. وهذا اسراف في المدح المتخيل الكاذب. فقد زعم أن ابن زبيدة شبيه للرسول الاكرم (ﷺ) في خَلْقه وخُلُقه؟[6]. فهل هذا هو الابداع في الخيال؟! اليس هذا كذباً صريحاً؟! فما يقول الذي يتفق مع هذا الشاعر الذي قارب الكفر بل كفر في شعره حينما يسمع قوله تعالى﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[7]؟ وقول النبي (ﷺ) "وهل يقود الناس الى النار إلاّ حصائد السنتهم"[8]؟ إن ثقافة الناقد الاسلامية أملت عليه رفض مثل هذا الشعر العقيم وعدم استجادته، فكانت تلك الثقافة عاملاً من عوامل التأثير في التلقي.

كما عاب أبو هلال على أبي نواس قوله[9]:

سلام على الدنيا اذا ما فقدتـم بني برْمَك من رائحين وغـادِ

وقد عبّر عن ذلك بطريقة لفظية في قوله: "وينبغي أن تتجنب –إذا مدحت أو عاتبت- المعاني التي يتطير منها ويستبشع سماعها مثل قول ابي نواس:..."[1]، ويضيف: واذا أردت أن تأتي بهذا المعنى فسبيلك أن تسلك سبيل اشجع السلمي (ت200هـ)[2]:

لقد امسى صـلاح أبي علـي لأهل الارض كُلّهم صـلاحا

إذا مـا الموت أخطاه فلسنا نبالي الموت حيث غدا وراحا

فقد استحسن هذا المدح من اشجع لأنه ذكر إخطاء الموت إياه وتجاوزه الى غيره؛ فقد جاد بالمعنى وحسن المسمع.[3]

---

(1) كتاب الصناعتين : 2/ 377.
(2) ينظر: م.ن: 1/ 122-123.
(3) وديوان ابي نواس: (لم أجده في الديوان).
(4) ديوان ابي نواس:126-127.
(5) دراسات في نقد الادب العربي: 117.
(6) ينظر: كتاب الصناعتين: 122/1.
(7) ق/ 18.
(8) مسند أحمد ، أحمد بن حنبل: 231.
(9) ديوان ابي نواس: 473.
(1) كتاب الصناعتين: 152/1.
(2) ديوان اشجع:20.

فينبغي للشاعر أن يتحرز في المدح مما يثير غضب الممدوح وينغص مزاجه. وليتجنب في اشعاره "ومفتتح أقواله مما يتطير به أو يستجفى من الكلام والمخاطبات كذكر البكاء، ووصف اقفار الديار..."[4].

ويستشف من النصوص السابقة أن الناقد لم يستجد لبيت أبي نواس لأنه ذكر ما يتطير منه. وهذا المدح غير موفق بوصفه عائقاً من معوقات الاستجابة والتلقي، في حين استجاد وأشاد بقول اشجع السلمي لأنه قال مدحاً موفقاً فذكر ما يتطير منه لنفسه وما يستحب لممدوحه. وانما يصدر الناقد في احكامه هذه من ثقافته ومكانته بوصفها عاملاً مؤثراً في استجابة تلقي المديح. ولابد من الاشارة هنا الى أن أبا هلال لايعرب عن الاستجادة للمدح أو عدم الاستجادة بالطريقة المعروفة فحسب إنما كان يوجه الشعراء الى أن يسلكوا طريق المديح الجيد والصحيح بعينها، كما لاحظنا مع ابي نواس حينما أشاد بمدح اشجع وهو بهذا يوجه الشاعر الى المدح الجيد الذي يراه الناقد صحيحاً. فهو يسلك منهج قدامة في التعليل والتحليل لمكامن الجمال والذوق. وقد التفت الى أثر الحالة النفسية والذهنية في قوة الشعر وضعفه ويرى ايضاً ان يعدل الشاعر عن الفضائل البدنية[5].

ومن الاشعار التي أغرق فيها المادح كثيراً قول أبي نواس الذي عابه معظم النقاد حينما مدح الرشيد فقال[1]:

وأخفت أهل الشرك حتّى إنّـهُ لتخافك النطف التي لَمْ تُخلق

فيعلق ابن قتيبة بقوله: "ومما أخذ على أبي نواس من الافراط قوله ..."[2].

أما ابن طباطبا فيقول : "وقد سلك جماعة من الشعراء المحدثين سبيل الأوائل في المعاني التي اغرقوا فيها فقال ابو نواس : واخفت..."[3].

لكن قدامة بن جعفر يرتضي مثل هذا المدح الذي قارب الكفر، فلا يرى فيه أي عيب فيعلق: "ومن أنكر على مُهلْهل والنَّمِر وأبي نواس قولهم المقدّم ذكره فهو مخطئٌ، لأنهم وغيرهم –ممن ذهب الى الغلو- انما أرادوا به المبالغة، وكل فريق إذا أتى من المبالغة بما يخرج عن الموجود ويدخل في باب المعدوم، فإنما يريد به المثل وبلوغ الغاية في النعت. وهذا أحسن من المذهب الآخر"[4]. فهو أول من وضع قواعد تفصيلية للمدح وحاول تطبيقها بشكل علمي ويرى ان مكمن الجمال: الفضيلة ومقياسه فيها (النفسي) فهو لايعول الاّ على الفضائل النفسية فلا يتفق مع مَنْ من سبقه من العرب بالمدح بالفضائل البدنية. ولكن ماذا يقول حين يسمع قوله تعالى:﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[5].

---

[3] ينظر: كتاب الصناعتين: 1/ 152-153.
[4] عيار الشعر: 122، و ينظر: كتاب الصناعتين:2/451، والموشح: 371.
[5] ينظر: كتاب الصناعتين: 1/104، والنظرية النقدية، عند العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري، هند حسين طه:236.
[1] ديوان ابي نواس:401.
[2] الشعر والشعراء: 542 وتنظر: 314.
[3] عيار الشعر: 48.
[4] نقد الشعر: 62-63.
[5] ق/18.

أما الامدي فيلتمس العذر لأبي نواس بقوله: "بل أبو نواس أعْذَرَ لقوله: (لتخافك)... يريد لتكاد تخافك، والشعراء تسقط (تكاد) في الشعر وهي تريدها ويضرب مثلا من القرآن إذ يقول: وجاء مثل ذلك، قال الله عزّ وجل﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾[6]"[7].

لكن ابن رشيق لم يستجد ذلك المدح معبّرا عن ذلك قائلاً: "وقد نعي على أبي نواس قوله وأخفت..."[8].

ويشير ابن سنان الى أن الناس مختلفون، منهم مَنْ يرفض ومنهم مَنْ يؤيد الغلو والافراط لكنه يرى أن يستعمل في ذلك –كاد- وما جرى في معناها ليكون الكلام أقرب الى الصحة[1].

لقد اختلف النقاد في بيت ابي نواس فمنهم من استجاد واعرب عن استجادته ومنهم من انكره واعرب عن انكاره له ومرجع ذلك الى اختلاف الذائقة النقدية بوصفه عائقاً من معوقات الاستجابة. فمن التمس الاعذار له يصدر عن ثقافة تدعو الى الغلو والافراط ويؤمن بمقولة (اعذب الشعر اكذبه) ومن انكره يصدر عن ثقافة اسلامية تدعو الى الصدق الواقعي ويؤمن بمنزلة (اصدق الشعر اعذبه) ومصداق ذلك قول حسان[2] (ت54هـ).

وإن أشعر بيت أنت قائلـه بيت يقال إذا أنشدته صدقا

والباحث لايؤيد النقاد الذين يتفقون مع أبي نواس ويلتمسون العذر له لأنه بلغ غاية الكذب والدجل فجعل ممن لم يكن مخلوقاً يخاف الرشيد . فمن يكون هذا الممدوح الذي جعله أبو نواس بكفره اكبر من الخالق؟!.

وهذا أبو هلال نفسه يقول في الشعر: "اكثره بني على الكذب... والنعوت الخارجة عن العادات والالفاظ الكاذبة من قذف المحصنات وشهادة الزور وقول البهتان"[3].

فلا يُلام اللغويون اذا عدّوا المبالغة ضرباً من الكذب فأن أعذب الشعر عندهم أصدقه ولكن هذا ديدن الشعراء اللذين لم يجدوا مجالهم الواسع في المعاني فزاغوا الى المتخيل من المدح ليكون ذلك متسعاً لهم. لذا نجد أبا نواس وامثاله من الشعراء الذين نزلت بحقهم الآية الكريمة ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [4] قد عمدوا الى ارضاء ممدوحيهم بشتى الوسائل فأضفوا عليهم صفات لم تكن فيهم حقا فبالغوا وافرطوا وخرجوا الى المنطلق المتخيل فزيفوا الحقائق واطلقوا لألسنتهم العنان طلباً للمنفعة الخاصة[5]. ولا يخفى على أحد أن في هذا المديح استجداءً صارخاً وطلباً للمال وتملقاً للممدوح وإلاّ فما الذي يدعوه الى ذلك؟!.

وبدا لوليد محمود خالص "أن ظاهرة ارتباط الشعر بالكذب وتبني النقاد لهذه الظاهرة، انما ترتبط بالخيال الذي يجنح بصاحبه فيجسد الامور المستحيلة كلمات ويقيم بينها علاقات لايمكن أن تحصل الا في الشعر، فبيت أبي نواس مثلاً:

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق

---

[6] ابراهيم/ 46.
[7] ينظر : الموازنة: 38/1.
[8] العمدة: 2/ 62.
[1] ينظر: سر الفصاحة: 263.
[2] ديوان حسان:277.
[3] كتاب الصناعتين:1/ 131.
[4] الشعراء / 224.
[5] ينظر: النقد الادبي الحديث، محمد غنيمي هلال:212.

لايمكن أن يعامل معاملة القضية المنطقية، وإلاّ لبان الكذب فيه، اذ كيف يخاف شيء غير موجود، وليس في الأمر سوى خيال ابي نواس الخلاق الذي صنع هذا المعنى بواسطة الالفاظ وممن الممكن أن يقال الشيء نفسه على كثير من الشعر الذي وصف بالكذب لان الشاعر لايمكن أن يقدم حقائق جاهزة وإلا فأين دور الموهبة والعاطفة والخيال فيما يقوله؟"[1]

وقد رفض الحاتمي بيت ابي نواس في مدحه العباس بن عبيد الله، الذي يقول فيه[2]:

كيف لايُدنيك من أمل مَنْ رسول الله من نفره

وقد أعرب الحاتمي عن عدم استجادته بطريقة لفظية فقال: فعلمت أنه كلام رديء مستهجن في غير موضعه، وإنه مما يعاب به؛ لأنه من حق الرسول (ﷺ) أن يضاف اليه، ولا يضاف الى أحد[3].

فلم يستحسن الناقد ذلك المدح لان أبا نواس جاء بالفاظ غير مناسبة لمنزلة الممدوح وهذا أحد المواضع غير المناسبة التي تقف عائقاً في استجابة تلقي المدح.

واستحسن ابن قتيبة لأشجع السّلمي (ت200هـ) مدحته في الرشيد[4]:

وَصَلَتْ يَداك السيفَ يومَ تَقطَّعَتْ أيدي الرجال وزلت الأقدامُ
وعلى عدوك يا ابن عم محمد رصدان:ضوء الصبح،والاظلام
فإذا تنبّه رعته وإذ هدا سلّت عليه سيوفك الاحلام

فقد استجاد ابن قتيبة ذلك الشعر وعبّر عن استجادته بطريقة لفظية بقوله: "ويستجاد له في مدح الرشيد..."[5].

وجاءت هذه الاستجادة لأن المادح أضفى على ممدوحه صفات نفسية تتناسب ومنزلة الممدوح بصفته خليفة.

في حين لم يستحسن ابن طباطبا أبيات اشجع السّلمي السابقة فقد انتقد الاغراق والافراط في الغلو ودعا الى المضمون الخلقي الذي يرفض هذا الغلو والافراط في المدح، لكون هذه المواقف صادرة عن احكام اسلامية تتوخى الصدق في الشعر[1]، فقد رسم الناقد ضوابط يتوخاها الشاعر في شعره ورفض الاغراق في الوصف والايماء المشكل[2].

ومن خلال هذين الموقفين المتناقضين نستدل على اختلاف الذائقة النقدية بين الناقدين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي، بوصفه عائقاً مهماً في استجابة تلقي المديح مما ادى الى استحسان واستجابة احدهما وانكار الآخر للبيت نفسه.

وقد أثر في موقفيهما ثقافة كل منهما بوصفها عاملاً في التلقي، وثمة تجليات تغيّر في الاستجابة نتجت عن تغير صفات المدح، بين صفات مغالي فيها واخرى واقعية.

واستحسن ابن قتيبة قصيدة صريع الغواني (209هـ) التي يمدح بها يزيد بن مزيد[3]:

موفٍ على مهج في يوم ذي رهجِ كـأنه أجل يسعى الى أمل
ينال بالرفق ما يعيا الرجال به كالموت مستعجلاً يأتي على مهل

---

(1) ابو العلاء المعري ناقداً، وليد محمود خالص: 122-123.
(2) ديوان أبي نواس: 430.
(3) ينظر: الموشح: 430.
(4) ديوان اشجع السلمي:
(5) الشعر والشعراء: 461 ، وتنظر: 602.
(1) ينظر: عيار الشعر: 48-49.
(2) ينظر: تاريخ النقد الادبي عند العرب- نقد الشعر: 34.
(3) شرح ديوان صريع الغواني :335.

لله في هـاشم من ارضـه جبلُ وانت وابنك ركنـا ذلك الحبـل
صدقت ظني وصدقت الظنون بـه وحطّ جودك عقد الـرجل من جملي

فقد أفصح الناقد بطريقة لفظية عن استجادته لهذا المديح فقال: "ومن جيد شعره قولـه في المدح ليزيد بن مزيد..."[4].

أما ابن المعتز فقد استجاد هذه القصيدة وعبّر عن استجادته لها بطريقة لفظية أيضاً فقال: "وهو القائل في يزيد بن مزيد من قصيدة لـه جيدة طويلة عجيبة"[5]. واختار أبياتا وقال عنها: "انّها من عيون القصيدة وإن كانت القصيدة كلها عينا"[6].

ويتضح من هذه القصيدة أن مسلماً قد جاء بالبديع واستخدمه فيها من جناس وطباق واستعارة فالقارئ يحسّ بعمل جديد لم يألفه عند أبي نواس وبشار فهو يعتمد على النحت والبناء والزخرف والتصنع فقد طابق بين مهج ورهج وبين امل واجل. فطريقته هي النحت والصقل وهذه الالفاظ يقيمها كما يقيم المثالون تماثيلهم. فكان الذوق الجديد هو ذوق المصنعين والذي تقاس به مهارة الشعراء[1].

ونريد من هذا كلـه أن نكشف عن العوامل التي لها تأثير في استجابة التلقي وتجليات التغير وتغير الصفات –والتي كانت هي السبب في سر هذا الأستحسان نتيجة التطور الفكري والحضاري الذي حدث في عقلية الشاعر.

واستحسن ابن المعتز قصيدة لمسلم أيضاً في مدح الرشيد منها:[2]

فإني وإسماعيل يومَ وَدَاعِـه لكا لغِمْدِ يوم الروّع زايلَه النَّصلُ
فان أَغشَ قَوْماً بَعدَه أو أزرْهُمُ فكالوحشِ يُدْنيها من الأَنَسِ المحل

فاستجاد ابن المعتز هذه القصيدة وعبّر عن استجادته بطريقة لفظية وهي احدى طرائق الاستجابة فقال: "إنها قصيدة ذائعة جيدة عجيبة [...] وهذا معنى لايتفق للشاعر مثله في ألف سنة"[3].

ولمسلم قصيدة يمدح بها الفضل بن يحيى منها[4]:

وردن رواق الفضل فضل بن خالد محطّ الثناء الجزل نائلة الجزل
بكفّ ابي العباس يستمطر العنى وتستنزل النعمى ويسترعف النصل
ويستعطف الأمر الأبيّ بحزمه اذا الأمر لم يعطفهُ نقص ولافتل

فاستجاد ابو هلال العسكري هذه المدحة وقد عبر عن استجادته بقوله: "فمن الجيد الجزل المختار قول مسلم"[5] يمدح الفضل بن خالد.

وقال ابو العتاهية (ت211هـ) يمدح أبا عمرو بن العلاء بن حريث صاحب المهدي[1].

فإذا أتين بنا أتين مُخِفّـةً وإذا رَجَعْنَ بِنا رَجَعْنَ ثِقَـالا

---

[4] الشعر والشعراء: 565.
[5] طبقات الشعراء: 235.
[6] م.ن: 236.
[1] ينظر: الفن ومذاهبه: 119-121.
[2] شرح ديوان صريع الغواني:332.
[3] طبقات الشعراء: 235.
[4] شرح ديوان صريع الغواني:336.
[5] كتاب الصناعتين : 70/1.
[1] ابو العتاهية- اشعاره واخباره: 606.

وقد استجاد ابن طباطبا هذا المدح فقال معبراً عن تلك المدحة: "وهي من الابيات التي تخلب معانيها للطافة الكلام"[2].

فقد استحسنَ بيت أبي العتاهية لتوفره على المعاني الحسنة التي وقعت موقعاً حسناً لدى الناقد.

واستحسن ابن المعتز مدحة على بن جبلة (ت213هـ) في حميد أيضاً[3]:

بطاعة الله طُلْتَ الناسَ كلّهُمُ ونصح هاد أمين الملك مأمون
حميد يا قاسم الدنيا بنائله وسيفه بين أهل النكث والدين
أنت الزمان وقد يجري تصرفه على الأنام بتشديد وتليين
لَوْ لَمْ تكن كانت الايامُ قد فَنِيَتْ بالمكرمات ومات المجد مذ حين
طَوَيْتَ كل حشاشتها على أملٍ الى قرينة خوف منك مقرون

وأفصح عن هذا الاستحسان بقوله: "ومما يختار له قوله..."[4]

فجاءت استجادة ابن المعتز لهذه الابيات لما فيها من صفات دينية اسلامية إنضافت الى البيئة العباسية المترفة والتطور الفكري والحضاري الذي ترك أثراً في عقلية المادح والممدوح،وتجليات التغير في الصفات التي يمدح بها هؤلاء الشعراء ممدوحيهم. فهي تتفق ومنزلة الممدوح. لكن ثمة معوق لاستجابة المدح يكمن في عدد من الصفات لكون الشاعر جعل للمخلوق قدرة كقدرة الخالق. وان ابن المعتز عذر الشاعر في ذلك لأنه ابتدأ قوله: بطاعة الله فعلت وصنعت فكأنه أراد: أنك بلغت بالله عز وجل ما بلغت وهذا صحيح[5]. ولا يخفى على أحد أن الشاعر بالغ وغالى في مدح ممدوحه.

ويبدوا ان ابن المعتز لايطالب الشاعر بأن يكون قوله كله صدقا.

أما القاضي الجرجاني فاستجاد لابن جبلة قوله[1]:

اعطيتني يا ولي الحمد مبتديا عطية كافأت مدحي وَلَمْ ترني
ماشمت برقك حتى نلت ريّقه كأنما كنت بالجدوى تبادرني

فاعرب الناقد عن استجادته بقوله: "وهذا من جيد شعر المحدثين"[2] وهذه هي احدى طرائق الاستجادة التي يعرب بها الناقد عن استحسانه أو استهجانه للمدح.

وقال علي بن جبلة أيضاً[3]:

وما سوّدَتْ عِجْلا مآثُر عزمهم ولكن بهم سادت على غيرها عجل

ولم يرق هذا المدح للقاضي (ت 366هـ) وعبّر عن عدم استجادته له بتعليقه: "وهذا المعنى يقصر بالممدوح ويغض من حسبه ويحقر من شأن سلفه. وانما طريقة المدح أن يجعل الممدوح يشرف بآبائه والآباء تزداد شرفا به فيجعل لكل منهم في الفخر حظاً، وفي المدح نصيباً

---

[2] عيار الشعر: 87.
[3] شعر علي بن جبلة: 189 .
[4] طبقات الشعراء: 184.
[5] م.ن : 185.
[1] شعر علي بن جبلة:190.
[2] الوساطة:3/ 383.
[3] شعر علي بن جبلة:173.

فإذا حصلت الحقايق كان النصيبان مقسومين عليهم، بل كان لكل فريق منهم، لأن الشرف للوالد جزء من ميراثه ومنتقل الى ولده كما ينتقل ماله اليه"[4].

ومن هذا الكلام نرى أن القاضي لم يرتض مدح الشاعر لأنه أنكر بما في آبائه فَصَيّرهُ موضعا غير مناسب للممدوح وفيه ما يعيق استجابة التلقي، ورأى القاضي ان المدح بمثل قول زهير[5]:

وما يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل

هو الصحيح[6] فقد جعل الخير الذي فيهم انما جاء من إرث آبائهم.

من خلال النص نجد أن ثقافة الناقد تفوق مستوى الشاعر الثقافي. ولا أدل على ذلك من كشفه خطأ الشاعر الذي لَمْ يعر أهمية لآبائه مما اخرج كلامه من غرض المديح الى هجائهم. ومثل هذه الثقافة التي يمتلكها الناقد تعدّ عاملاً مؤثراً في استجابة تلقي المدح.

لقد أفاض القاضي الجرجاني في هذه الالتفاتات لأخطاء الشعراء في الالفاظ والمعاني ولا أدل على لمحاته النقدية هذه من منهجه الفني والنفسي[1] فقد أقام نقده على ذوقه الادبي فتمكن أن يُقيّم الأثر الفني ويقدره بعقله وعاطفته وسعة مكانته الثقافية القائمة على قريحته وذكائه[2] ، التي اشار اليها هو فقال: "الشعر لايُحبّب الى النفوس بالنظر..."[3]

ومما عيب في المدح على ابي تمام (232هـ) قوله[4]:

وتشفى الحرب منه حين تغلي مراجلها بشيطان رجيم

فلم يستحسن المبرد هذا القول وعبّر عن ذلك بطريقة لفظية فقال: "ومما يعاب به ابو تمام قوله: وتشفى... فجعل الممدوح هو الشيطان الرجيم"[5]. ورواه الصولي بأنه معيب وسخيف[6].

وقد "ذكر ابو تمام كلمة شيطان لممدوحه فانتزعها من المجال الذي هي ألصق به واستعملها صفة له"[7]، وهذه لاتتناسب ومنزلة ممدوحه، وان ابا تمام "يعاب بذلك ويعد مجانباً للفظ الجيد او المختار "[8].

وما وقع به أبو تمام في مثل هذه الاخطاء يعزى الى ثقافته التي كانت خليطاً من ثقافات متعددة تميل الى الفلسفة.

وهكذا نجده يحاول أن يؤلف بين أشياء غير مألوفة فيجعلها مألوفة. وإن كلمة (شيطان) في هذا الموضع شكلت عائقاً في تلقي المديح لأنها جاءت في موضع لايناسب الغرض ولا يناسب منزلة الممدوح. ونجد الناقد هنا قد وقف عند السلبية لأبي تمام في نقده وتلقيه المدحة.

وقد تابع ابن المعتز مديح ابي تمام الذي أساء فيه الوصف ومنه[1]:

---

[4] الوساطة: 2/ 279.
[5] ديوان زهير:88.
[6] ينظر: الوساطة، 2/279-280.
[1] ينظر: الوساطة:1/ 4-6 والنظرية النقدية: 313، والقاضي الجرجاني والنقد الادبي ، د.عبدة قلقيلة: 250.
[2] ينظر: النظرية النقدية : 311.
[3] الوساطة:1/ 42.
[4] ديوان ابي تمام:204/3.
[5] الموشح: 468 والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 2/ 324.
[6] ينظر: شرح الصولي:45/1، وفيه ورد (تتقى) بدلاً من تشفى.
[7] النقد اللغوي عند العرب: 247.
[8] م.ن: 247.

تكاد عطاياه تجن جنونها إذا لم يعوذها بنغمة طالب

فلم يرق له هذا المديح وقد عبر عن ذلك بطريقة لفظية فقال ساخراً: "وَلِمَ تجن جنونها عطاياه انتظاراً للطلب؟ يبتدي بالجود فيستريح"[2]. أما القاضي الجرجاني فقد علق: "وما بالها يحوجها الى الجنون ويلتمس لها العوذ والرقي هلاّ فك أسرها وقدّم خلاجها وَلِمَ ينتظر بها نغمة الطالب..."[3]. فمن غير الممكن -ولا نظن- أن أبا تمام أراد المدح الجيد فلم يقع له. لكن ما ذهب إليه من المبالغة والاستعارات كان السبب في وقوعه بهذا الخطأ والعيب. فقد وضع الممدوح في غير محله المناسب. وهذا من المواضع غير المناسبة للمديح فاستوى عائقا دون استجابة تلقي المدحة.

وقد استجاد الصولي (ت335هـ) من مديح أبي تمام في الحسن بن وهب قوله[4]:

وانفحْ لنا مِنْ طِيب ريحكَ نفحةً إن كانتِ الاخلاقُ مِمّا تُوهَبُ

فقد اعرب الناقد عن استجادته لهذا المدح بطريقة لفظية فقال "هذا أحسن كلام وأبلغه في المديح"[5].

وقد دافع الصولي عن ابي تمام عندما عابوا عليه قوله[6]:

كأنّ بني نبهان يومَ وفاته نجومُ سماء خرّ من بنيها البدرُ

"فقالوا أراد أن يمدح فهجا –كأن أهله كانوا خاملين بحياته، فلما مات أضاءوا بموته"[7]

وأضاف أنهم قالوا: كان يجب أن يقول مثل قول أبو يعقوب الخريمي[8]:

اذا قمرُ منهم تغوّر أو خبا بدا قمرُ في جانب الافق يلمعُ

وعلق قائلاً: "ولا أعرف لمن صحّ عقله ونفذ في علم من العلوم خاطره عذراً في مثل هذا القول، ولا اعذر من يسمعه فلا يرد عليه. اللهم الاّ أن يكون يريد الطعن عليه"[1].

وموقف الصولي هذا يكشف عن اختلاف ذائقته عن ذائقة من عاب البيت مما اشكّل عائقاً في استجابة التلقي. ومن الغريب هنا أن الصولي يعرب عن استحسانه ولم يعبه ولو كان كشف سبب ذلك لكان أجود.

وقد يستغل الصولي الموازنة أحياناً في الدفاع عن شعر ابي تمام فقد ذكر: أنهم عابوا قوله[2]:

ما زال يهذي بالمواهب دائبا حتى ظننا أنه محموم

واسقطوه عند انفسهم، وعلق قائلاً:

فكيف لم يسقطوا أبا نواس بقوله في العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر[3]:

جدّت بالاموال حتى قيل ما هذا صحيح

---

(1) ديوان ابي تمام: 36.
(2) الموشح: 277، وتنظر 473.
(3) الوساطة: 67/1.
(4) ديوان ابي تمام:40.
(5) شرح الصولي:1/ 237.
(6) ديوان ابي تمام:342.
(7) شرح الصولي: 131/1.
(8) ديوان الخريمي:43.
(1) شرح الصولي: 131/1.
(2) ديوان ابي تمام: 300
(3) ديوان ابي نواس: 70.

والمحموم أحسن حالاً من المجنون لأن هذا يبرأ فيعود صحيحاً كما كان، والمجنون قلّما يتخلص[4].

أما القاضي الجرجاني فعبّر عن عدم استحسانه بقوله:

"تناول معنى بارداً ، وغرضا فاسداً فأكده واضاف الى الحمى الهذيان"[5].

وتبعهم أبو هلال العسكري في رفضه لهذا المدح فقال: جاء بلفظ مذموم[6].

وشايعه ابن سنان في ذلك إذْ أشار الى هذا المدح بالاستهجان فقال: "استعمل الالفاظ في غير موضعها"[7].

وكذلك كان أسامة بن منقذ يوافقهم الرأي في عدم استحسان هذا المديح[8].

لقد اجمع النقاد في الاعراب عن عدم استجادتهم لقول أبي تمام، خَلاَ الصولي الذي دافع عنه محتجاً له ببيت ابي نواس، وعَدّوهُ من المدح غير الجيد. وانما هو أقرب الى الذم والسب في ذلك –ولايخفى- أن الشاعر أتى بالفاظ غير موافقة للمعاني وفي مواضع غير مناسبة لها مما جعلها عائقاً في استجابة وتلقي المدح. أما الذي جعل الصولي ينفرد عن جماعة النقاد في رأيه فهو اختلاف ذائقته اللغوية والنقدية بوصفه عائقاً في استجابة تلقي المديح. فقد تحدث النقاد وتنبهوا على معيار المواءمة بين اللفظ والمعنى فقالوا إن من الواجب أن يلتمس اللفظ الكريم للمعنى الكريم[1] كذلك تنبهوا على أن للمدح الفاظاً خاصة به لاينبغي أن تستعمل في الهجاء كما أن للهجاء الفاظاً خاصة به لاينبغي أن تستعمل في المدح، فوجهوا النقد لمن خالف ولم يوافق بين اللفظ ومعناه[2]. ولذلك قال د. نعمة رحيم العزاوي: "وعيب كثير من الالفاظ على قائليها لانها لم تستخدم في مجالها الصحيح ومنها لفظ (يهذي) و(محموم) اللذان وردا في مدح ابي تمام:

مازال يهذي بالمكارم دائباً حتى ظننا أنَّه محموم

مجالها الذم، فاذا استعملها ابو تمام في موضع المدح ونعت بها من يمدحه فقد صدم بذلك الذوق العام وخرج عما ألف هذا الذوق من الفاظ كريمة تناسب المديح وتنسجم مع شعور المادح وهو شعور اعجاب واكبار في الغالب"[3]

ورفض ابن المعتز قول ابي تمام في مدح الافشين بعد هزيمة بابك[4]:

ولّى ولم يظلمْ وما ظلم أمرؤ حثّ النجاء وخلفه التنين

وقد عبّر بطريقة لفظية عن عدم استجادة هذا المدح بقوله ساخراً: "فلو كان أجهد نفسه في هجاء الأفشين هل كان يزيده على أن يسميه التنين؟ وما سمعت احداً من الشعراء شبه به ممدوحه لشجاعة ولا غيرها".[5]

فاذا كان هذا كشف عن طريقة الاستجادة في تلقي المدح، فلنكشف عن بعض العوامل المؤثرة في هذا التلقي وهو المكانة الثقافية والذوق الرفيع لابن المعتز الذي أبان من خلاله عن

---

(4) ينظر: شرح الصولي:1/ 135.
(5) الوساطة: 199/2 ، وقد ورد (بالمكارم والذري).
(6) ينظر: كتاب الصناعتين: 2/ 380، وقد ورد (بالمكارم والعلا)، واسرار البلاغة: 334.
(7) سر الفصاحة: 153، وقد ورد فيه (بالمكارم دائبا).
(8) ينظر: البديع في نقد الشعر: 228.
(1) ينظر: العمدة 1/ 142.
(2) ينظر: سر الفصاحة: 154، وأسس النقد الادبي احمد بدوي: 210 و477.
(3) النقد اللغوي عند العرب: 246، وينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 2/ 325.
(4) ديوان ابي تمام: 193.
(5) الموشح: 473 ، وتنظر: 277.

هذه الالفاظ التي تنقص الممدوح مرتبته التي أراد. فقد هجا ممدوحه من حيث لايشعر وهذا من معوقات استجابة التلقي في المدح.

وانشد ابو تمام[1]:

فَلَوَيتَ بالمعروفِ أعناقَ المُنى وَحَطمْتَ بالأنجازِ ظهرَ المَوعدِ

فاستحسن ابو بكر الصولي هذا المدح وعدّه من المديح الجيد فهو يغوص على المعاني ويخترعها فيعلق الصولي بقوله: "وأزعمُ أنّ أبا تمام قد نظر الى هذا الممدوح فتصوره انسانا ينجز وعده قبل أن يقطعه. وهذه الفكرة الجديدة لم يعتدها الناس في عصره بعد" [2].

لكن الآمدي يرفض هذا الجهد الفني لانه يرى في هذه المعاني ما لايعرف معناه الاّ بالكدّ والتعب وبالظن والحدس بسبب شره أبي تمام الى كل ما جاش به فكره وخاطره، وخلطه الجيد بالرديء. وعدّه من المديح الخطأ وعبّر عن عدم استحسانه له بقوله: حطّم ظهر الموعد بالانجاز استعارة قبيحة جداً، والمعنى أيضاً في غاية الرداءة؛ لان انجاز الوعد هو تصحيحه وتحقيقه[3].

ومن خلال هذا الكلام نكشف عن تجليات التغيرات في صفات المدح فقد اشار اليها الناقد (الصولي) حين قال (وهذه الفكرة الجديدة لم يعتدها الناس في عصره) فهي صفات جديدة استقاها من تطور البيئة والزمن. هذا أولاً ثم أن هذا التناقض بين الناقدين مرجعه الى اختلاف الذائقة اللّغوية والنقدية بينهما مما شكل عائقاً في استجابة تلقي المديح.

ولم يستجد الامدي قول ابي تمام في مدحه ابن اصرم حيث يقول[4]:

سعى فاستنزل الشرف اقتساراً ولولا السعي لم تكن المساعي

فعلق على هذا المدح معبراً عن عدم استجادته له بطريقة لفظية: "بل هو عندي هجاء مصرح لأنه إذا استنزل الشرف صار غير شريف وذلك انك إذا ذممت رجلاً شريف الآباء كان أبلغ ما تذمّه به أن تقول قد حططت شرفك ووضعت من شرفك وقد وكدّه بقوله (اقتسارا)... فأفسد المعنى بذكر استنزاله اياه... فهلا قال : ترقى الى الشرف الاعلى فَحَواه أو بلغ النجم، أو علا على الشمس كما قال الآخر:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بسؤددهم أو مجدهم قعدوا"[1]

ومن تعليق الامدي نستدل على حسن ذوقه ورهافة حسّه الذي مَنَعَهُ من قبول بيت ابي تمام وقد أسْعَفَتْهُ مكانته الثقافية التي يتمتع بها والتي تشكل عاملاً مؤثراً في استجابة المتلقي. وقوله هذا جاء في موضع لايناسب المدح لأنه عرض لمديح ظاهر الاّ انه هجاء أو أقرب الى الذم في الحقيقة. فإن كان الشاعر لايقصد الذم فهو الخطأ بعينه وسببه إما الغفلة وقلة الفطنة –ولاظن كذلك- وإما المبالغة والمجاز اللذان أبعداه عن الحقيقة.

وأكد المرزباني أنه على الشاعر ان يجتنب "الاشارات البعيدة والحكايات الغلقة والايحاء المشكل ويعتمد ما خالف ذلك ويستعمل من المجاز ماقارب الحقيقة ولايبعد عنها ومن الاستعارات مايليق بالمعاني التي يأتي بها"[2]. وهذه الالفاظ والصفات جاءت من التطور والتبدل الذي أصاب المجتمع والبيئة العباسية فهي تجليات تغير لالفاظ وصفات العصر.

---

(1) ديوان ابي تمام: 113، وشرح الصولي: 453/1.
(2) شرح الصولي:130/1.
(3) ينظر: الموازنة: 205/2.
(4) ديوان ابي تمام:194.
(1) الموازنة : 2/ 213.
(2) الموشح: 473.

ولنكشف في شعر ابي تمام ما يعيق استجابة وتلقي المدح فيما عابه النقاد من مثل قوله[3]

كان في الاجفلى وفي النقرى عر فك نضر العموم نظر الوحاد

وكان قد علق المرزباني على هذا البيت بطريقة لفظية فقال: "يقال دعاهم (الجلفى): إذا دعاهم كلّهم فاجفلوا. ويقال دعاهم (النقرى) إذا دعاهم واحداً واحدا، وهذا من الكلام البغيض والغريب المستكره من البدوي، فكيف اذا جاء من ابن قرية متأدب"[4].

فلم يستحسن الناقد هذا المديح لكونه جاء بالفاظ كزّةٍ مستهجنة وان صدرت عن بدوي، ولاسيما ان الالفاظ قد تغيرت في العصر العباسي لتطور البيئة.

وقال ابو تمام[5]:

غربته العلا على كثرة الأهْـ ـل فأضحى في الأقربين جنيبا

فليطل عمره فلو مات في مَرْ وَمقيما بها لمات غريبا

ولم يستحسن القاضي الجرجاني هذا المدح من ابي تمام واشار الى أنه قد أساء "بذكر الموت في المديح فلا حاجة به اليه والمعنى لايختل بفقده. ومن مات في بلده غريباً فهو في حياته أيضاً غريب. فأي فائدة في استقبال الممدوح بما يتطير منه"[1] وبهذه الطريقة اللفظية عبّر الناقد عن عدم استحسانه أولاً ثم استطاع بذوقه وفطنته ودرايته أن يكشف عن الالفاظ الجيدة الصحيحة في المدح والتي لاتنغّص مزاج الممدوح فقد نصح الشاعر بالابتعاد عن الابتداءات والالفاظ التي يتطير منها. وهذا كلام غير موفق جاء في موضع غير مناسب للتوصيل فأصبح من معوقات الاستجابة في التلقي.

كما استهجن القاضي من ابي تمام قوله[2]:

شكوت الى الزمان نحول جسمي فأرشدني الى عبد الحميد

فيقول الناقد: "وانما يرشد في نحول الجسم الى الاطباء. فأما الرؤساء والممدوحين فإنما يلتمس عندهم صلاح الأحوال"[3].

فلم يرض الناقد بهذا المدح لأن أبا تمام قد خالف الواقع دون مسوغ كما أنه أفسد المعنى لأن عبد الحميد لم يك طبيباً. لكنه ولربما يلتمس له العذر في أنه أراد أن ينزل ممدوحه منزلة الطبيب فوصف جوده ونخوته وأنه عدته وملجؤه في هذا الزمان[4].

لقد استخدم الشاعر (نحول جسمي) في غير موضعها المناسب مما عُدّت عائقاً في استجابة التلقي لأنها خالفت الواقع فأفسدت المعنى. فالنقاد لم يتساهلوا "في مخالفة الواقع لغير داعٍ بياني أو فني واستهجنوا فساد المعنى"[5].

وقال أبو تمام يمدح[6]:

سأَحْمَدُ نَصراً ما حُييتُ وإنني لأَعْلَمُ أنْ قْد جلَّ نصرُ عن الحمدِ

فلم تنل هذه المدحة استحسان الامدي، وقد أناط اللثام عن ذلك في قوله:

---

(3) ديوان ابي تمام:363.
(4) الموشح: 472.
(5) ديوان أبي تمام:169-170.
(1) الوساطة:1/ 169-170.
(2) ديوان ابي تمام:93.
(3) الوساطة : 1/ 67.
(4) ينظر: الموشح: 227.
(5) النقد الجمالي واثره في النقد العربي: روز غريب: 126.
(6) ديوان ابي تمام: 116.

"ومن خطأ المديح قولهُ: سأحمد نصراً... فإنه رفع الممدوح عن الحمد الذي ندب الله عباده اليه بأن يذكروه به وينسبوه اليه وافتتح قرآنه في أول سورة بذكره، وحث عليه وللعرب في ذكر الحمد ماهو كثير في كلامها واشعارها مافيهم مَنْ رفع أحداً عن أن يحمد ولامَنْ استقلّ الحمد للممدوح"[1].

ويسوق لنا قول زهير[2]:

مُتصرف للحمدِ مُعترفٍ للرزء نَهّاضٍ الى الذكرِ

مثالاً على ذلك[3].

وقد كرر أبو هلال العسكري الذي علق على هذا البيت ، تعليق الامدي واستشهد بمثال بقول الحطيأة[4] (ت59هـ):

تزور امرأً يؤتي على الحمدِ مَالَهُ ومن يُعط أثمان المحامد يُحمد

بوصفه مثالاً على ذلك[5].

ومن الغريب هنا أن نرى أبا تمام يقع في مثل هذه الأخطاء التي كشف الناقدان عنها بفضل ثقافتهما النقدية، بوصفها عاملاً مؤثراً في استجابة التلقي.

وكان من تجليات التغير في استجابة التلقي تغير الالفاظ والصفات المدحية، وقد جاء ذلك انعكاساً لتغير المجتمع وتطوره وما أفرزهُ من تطور في عقلية المادح ثقافيا وفكريا ولكن التفاوت بين النقاد قائم من حيث اختلاف الذائقة اللغوية والنقدية. قال ابو تمام[6]:

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه بكفيك ما ماريت في أنه بُرْدُ

فلم يستحسن قدامة هذا المدح وعدّه من عيوب المعاني ومخالفة العرف والاتيان بما ليس في العادة كتشبيه الحلم بالبرد[7].

أما الامدي فقد اعرب عن عدم استحسانه بقوله: "وهذا عندي من أفحش الخطأ ثم قوله "لو أن حلمه بكفيك" كلام في غاية القبح والسخافة"[1].

ولم يرق هذا المدح والوصف بهذه المعاني للقاضي الجرجاني فأعرب عن هذا الاستهجان بتعليقه: "والبرد لايوصف بالرّقة وإنما يوصف بالصفاقة والدّقة"[2].

ورفض هذا الوصف كذلك ابو هلال إذ كشف عن عدم استجادته له بقوله: "ومن الغلط قول ابي تمام: رقيق حواشي... وما وصف أحد من أهل الجاهلية والاسلام الحلم بالرّقة وانما يصفونه بالرجحان والرزانة"[3] واتى بقول النابغة[4]:

واعظم أحلاماً واكبر سيّداً وأفضل مشفوعاً اليه وشافعا

شاهداً على ذلك[5].

---

[1] الموازنة: 2/ 184-185.
[2] ديوان زهير : 42.
[3] ينظر: الموازنة: 1/ 197 .
[4] ديوان الحطيئة: 37.
[5] ينظر: كتاب الصناعتين: 1/130-131 . وقد اختلف تعليق ابي هلال اختلافا طفيفا.
[6] ديوان ابي تمام: 121.
[7] ينظر: نقد الشعر: 74.
[1] الموازنة: 1/ 142. والمرشد الى فهم اشعار العرب وصناعتها، عبد الله المجذوب: 6.
[2] الوساطة:1/ 69.
[3] كتاب الصناعتين: 1/ 125.
[4] ديوان النابغة الذبياني: 74.

فقد جمع ابو تمام بين تجليات تغير في الاستجابة والتلقي (تغير صفات) وقد استحالت الذائقة اللغوية والنقدية لدى النقاد عائقاً –في تلقي المديح- وقد أعرب النقاد عن عدم استجادتهم بطرائق لفظية كما مُبَيّن بإزاء كل منهم. وقد أثر في ذلك التلقي ثقافة العصر –فرأينا أن أبا هلال كشف عن طريقة اعرابه بعدم الاستجادة ثم دلّ على الصحيح في المدح فراح يضرب مثالاً لذلك الصحيح . وهذا دليل على منهجه، وقد تخلص من آراء النقاد والنص بأن أبا تمام لم يكن يجهل هذا الوصف لكنه خالف الشعراء لانه أراد أن يرقى الى الابداع وأن يرفع الناس الى مكانته ومنزلته بدلاً من أن ينحدر هو في شعره الى مستواهم ثم يريد أن يكشف لنا عن تغير الالفاظ والمعاني بتغير وتطور المجتمع وتبدل النظام الفكري والحضاري وسوغ ذلك بأن الممدوح قد يتوق الى صفات مدح جديدة مما جعل ذلك عاملاً مؤثراً في استجابة التلقي. وسيرد الحديث عن هذا في الفصل الثالث لدى المتذوق مفصلاً.

واذا كانت تلك الصفات عند ابي تمام قد تغيرت فوصف الحلم بالرقة بدل الرجحان والرزانة فان الألفاظ تغيرت كذلك. ومردّ ذلك التطور الذي أصاب البيئة والمجتمع. فكان لذلك أثر فاعل في تطور النظام الفكري والحضاري وتجليات التغير التي أفرزتها البيئة الحضرية المترفة وها هو يقول[1]:

لاتسقني ماء الملام فإنني صبٌّ قد استعذبت ماء بكائي

وذكر الصولي ان هذا مما عيب عليه، في حين انه لم يكن عنده عيباً وانه. كما قال في آخر البيت "ماء بكائي" قال في أوله "ماء الملام" فأقحم اللفظ على اللفظ، اذ كان من سببه. ومنه قول الله تعالى ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[2] فالثانية جزاء وليست بسيئة فجاء باللفظ على اللفظ اذ كان من سببه [...] وقال تعالى ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3] والبشارة تكون في الخير لا في الشر، لكن حمل لفظا على لفظا[4].

وشابه رأي الآمدي رأي الصولي فقد عبّر عن استجابته للبيت: لا تسقني... بقوله: "فقد عيب وليس بعيب عندي لأنه لما أراد أن يقول (قد استعذبت ماء بكائي) جعل للملام ماءً؛ ليقابل ماء بماء وإنْ لَمْ يكن للملام ماء على الحقيقة"[5].

وقيل ان بعضهم لما سمع بقول ابي تمام هذا، أخذ وعاء وذهب يطلب منه –في شيء من السخرية- قطرات من ماء الملام هذا، فأجابه أبو تمام بأن لا يعطيه ما يريد قبل أن يأتيه بريشة من جناح الذّل وهو يشير الى الآية الكريمة ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ. . .﴾[6] وهذا يدلل على مكانته الثقافية على أنها عامل من العوامل المؤثرة في تلقي المديح[7].

ومما استجادة الامدي لابي تمام قوله يمدح الواثق[8]:

---

(5) ينظر: كتاب الصناعتين: 125/1.
(1) ديوان ابي تمام: 22/1، واخبار ابي تمام: 33.
(2) الشورى/ 40.
(3) آل عمران / 21 ، والانشقاق/ 24.
(4) ينظر: شرح الصولي: 1/ 178- 179.
(5) الموازنة: 261/2.
(6) الاسراء / 34.
(7) ينظر: الاسس الجمالية في النقد العربي: 186.
(8) ديوان ابي تمام :329.

جعل الخلافَـة فيه ربّ قـوله -سبحانه- للشيء كن فيكـون
ولقد رأينـا هالـة في قلبنا وظهور خطبٍ دونـه وبطون
وَلِذاك قيلَ: مِنَ الظّنُونِ جَلِيّةُ صِدْقُ،وفي بعض القُلوبِ عُيُونُ

فاعرب عن استحسانه بطريقة لفظية فقال: "وهذه كهانة عجيبة من أبي تمام في الواثق لم يفطن لها غيره"[1].

فنرى استحسان الامدي للبيت الثالث على وجه التحديد لأن ابا تمام أطلق صفات مدح جديدة في ممدوحيه، إذ صيّر للقلوب عيون. وقد أحسّ الناقد بمواكبة الشاعر لتطور العصر الجديد واستعمال ما يتماشى معه من الفاظ وصفات مدحية وهذه احدى تجليات التغير في استجابة التلقي. فقد مال الشاعر ابو تمام في مدائحه الى تشخيص الأشياء، مستعينا بمخزونه الثقافي الذي عكسه النظام الفكري والحضاري في عصره، بوصفه عاملاً مؤثراً في الاستجابة.

وقد نالت اعجاب الامدي القصيدة التي مدح ابو تمام بها المعتصم في فتح عمورية وكان مطلعها[2]:

السيف أصدق انباءُ من الكتبِ
في حده الحد بين الجدّ واللّعب

فقد كشف الناقد عن اعجابه بهذا المطلع بطريقة لفظية فقال: "هو أحسن ابتداءاته"[3].

كما أفصح الحاتمي عن طريقة اعجابه بالابتداء ذاته فقال: "ومن بديع ابتداءاته: السيف أصدق..."[4].

وقد وفق الناقدان في عدّ هذا الابتداء من المطالع الحسنة . فهو استهلال يختلف عما تعوده السابقون من الشعراء في مطالع قصائدهم. وكذلك يختلف عن مطالع قصائده الاخرى. وقد أثر في ذلك التبدل الحضاري والفكري الذي اثر في العقلية العربية الجديدة بفعل التطور البيئي والزمني. فقد اثر في قصيدة أبي تمام تغير في بنيتها. فبدلاً من أن يبدأ قصيدته بوصف الديار أو بمطلع غزلي، استعاض عنها بأبتداءات جليلة في الحكمة فبدأ ابتداءً غير تقليدي. "والحق ان قصيدة عمورية ترينا كيف تطورت قصيدة المديح في العصر العباسي فقد اخذت تستوعب عناصر الثقافات المختلفة من عربية واسلامية وفارسية ويونانية وتحولها الى زخرف عقلي جديد، وقد سيطر عليها التعبير بهذا اللون الفلسفي من (توافر الاضداد) وهي مع ذلك ماتزال تغمر ابياتها بالزخرف الحسي الذي تركه مسلم، فاذا هي تزهي بثروة زخرفية هائلة ففي كل جانب منها لون او زخرف، فيه جمال وفيه فن وفيه فلسفة وثقافة على ضروب وصور مختلفة"[1].

ويعزو د.محمد عبد المطلب سبب الاعجاب بهذا المطلع الى شدة المواءمة بينه وبين الموضوع الذي انشئت القصيدة لأجله[2].

---

(1) الموازنة: 3/ 331، وينظر:الموازنة بين أبي تمام والبحتري - تحليل ودراسة، قاسم المومني: 101.
(2) ديوان ابي تمام: 4/1. والمرشد الى فهم اشعار العرب وصناعتها: 118.
(3) الموازنة:1/ 53.
(4) حلية المحاضرة: 208، والرسالة الحاتمية (ضمن كتاب الإبانة عن سرقات المتنبي، العميدي: 265، وينظر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 2/ 242.
(1) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د. شوقي ضيف: 182.
(2) ينظر: اتجاهات النقد: 168.

واذا كان ابو تمام خرج عن الواقع الى المبالغة فهي المبالغة الفلسفية التي يتوخى فيها بلوغ المستحيل لشدة توقه الى الخروج مما كان الناس يألفونه[3].

وكشف الناقدان لنا مكانة ودراية ابي تمام واطلاعه الواسع بالأدب فقد أظهر الشاعر تجديداً واضحا في فخامة المطالع وطريقة النظم وتغير وتطور بنية القصيدة التي لم تجئ على طريقة القدماء. وهذه هي تجليات التغير التي لها أثر كبير في استجابة تلقي المدح التي توخينا كشفها في كل نموذج شعري قدر الامكان.

وكان قول البحتري في المعتز[4]:

لا العدل يردعه ولا الـ تعنيف عن كرم يصدّهْ

موضع استهجان كثير من النقاد فلم يلق هذا المدح عند الآمدي استحسانا. وقد عبّر الناقد عن رفضه لهذا المدح قائلاً "وهذا عندي من أهجن ما مدح به خليفة وأقبحه ومن ذا يعنف الخليفة [على الكرم] أو يصّده. إنّ هذا بالهجو أولى منه بالمدح"[5].

ولم يستحسن ابن رشيق هذا المدح أيضاً فعبر بطريقة لفظية عن ذلك بقوله: "ولايجب ان يمدح الملك ببعض ما يتجه في غيره من الرؤساء وان كان فضيلة"[6].

لقد استعمل الشاعر كلمتي (يردعه) و(التعنيف) وهي الفاظ تستخدم للذم وليس للمدح ولا يليق بمنزلة الممدوح الاجتماعية. وورود مثل هذه الالفاظ في مواضع المدح تشكل عائقاً في استجابة تلقي المديح، الأمر الذي أدى الى ان يعرب الناقدان عن عدم استجابتهما لهذا المدح بقوليهما آنفي الذكر.

كما استهجن ابن سنان الخفاجي هذا المدح فقال: "وليس هذا مما يصلح للملوك فضلاً عن الأئمة والخلفاء"[1]، ولذلك قال احمد بدوي: "وعيب من شعر المدح ما لايصور الممدوح وينزل به عن مكانته"[2].

وقد عيب على البحتري أيضاً قوله[3]:

متى أردنا وجدنا من يقصر عنمسعاته أو فقدنا مَنْ يدانيه

فقيل: "ليس هذا بالجيد لأنه وصف يشرك ممدوحه فيه البقال والحمّال وباعة الدواء وغيرهم. لأن هؤلاء أيضاً متى شئنا وجدنا من يقصر عن مسعاتهم، وهو الحجام والكناس والنباش"[4]. ولكن الامدي يقول: "والبيت عندي صحيح وغرض البحتري فيه معروف"[5].

فبين من قال (ليس بالجيد) ومايراه الآمدي بونُ شاسع، وهذا يعود الى اختلاف الذائقة اللغوية والنقدية وهذه من معوقات الاستجابة لتلقي المديح.

ومما أُخِذ على المتنبي قوله يمدح كافوراً[6]:

أرق علي أرق ومثلي يأرق وجوى يزيد وعبرة تترقرق

---

(3) ينظر: فن المديح وتطوره في الشعر العربي: 246.
(4) ديوان البحتري:1/11-12.
(5) الموازنة: 2 /343.
(6) العمدة: 2/ 129.
(1) سر الفصاحة: 302.
(2) اسس النقد الادبي: 205.
(3) ديوان البحتري:2/322.
(4) الموازنة:2/ 355.
(5)م.ن:2/ 355.
(6) ديوان المتنبي:38.

وقد علق الحاتمي على هذا القول بقوله: "أهكذا تكون الافتتاحات"[7].

هذه التعليقة هي طريقة لفظية عبّر بها الناقد عن عدم استحسانه لهذا القول الذي ابتدأه المتنبي، وان سبب الاستهجان هو أن الممدوح لايخاطب بمثل هذه الافتتاحات التي يتطير منها المتلقي لما فيها من الفاظ تنغص الممدوح وتخدش مزاجه (أرق) و(عبرة تترقرق) فيجب ان يذهب الشاعر بعيداً عن ما يتطير منه أو ذكر ما يستجفى منه من الكلام أو يعكر مزاجه لانه يستهلك المعاني ويشين الالفاظ وهذا ما أشار اليه الجاحظ[1]. وان هذه الابتدءات وما شاكلها تضمنت الفاظا جاءت في غير موضعها المناسب وأخيراً فهي لاتتناسب ومنزلة الممدوح ومكانته الاجتماعية مما جعلها عائقاً في استجابة تلقي المدح.

وروى الحاتمي حواره مع المتنبي عن صورة كافور في قوله:[2]

فإن نلت ما أمّلت منكُ فربما شربت بماء يعجزُ الطيرَ وردُه

"إنها مدح أو ذم؟ قال: مدح. قلت: إنك جعلته بخيلاً لا يوصلك الى خيره من جهته وشبهت نفسك في وصولك الى ما وصلت فيه بشربك من ماء يعجز الطير وروده لبعده وترامي موضعه"[3].

فالناقد لم يستجد هذا المدح لانه أقرب الى الذم، فجاء بالفاظ تخالف المعنى، فشكلت عائقاً لاستجابة التلقي أيضاً كشفه الناقد باطلاعه ودرايته وثقافته الواسعة.

ومما أخذ على المتنبي قوله يمدح كافوراً:[4]

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

فلم يستحسن الثعالبي (429هـ) هذا القول الذي هو ابتداء قصيدة. وقد أفصح الناقد عن هذا بقوله: "ولأبي الطيب المتنبي ابتداءات ليست من أحرار الكلام وغرره، بل هي كما نعاها عليه الناعون مستشنعة لايرفع السمع لها حجابهُ ولايفتح القلب لها بابه كقوله استفتاح قصيدة في مدح ملك يريد أن يلقاه بها أول لقية [...] وفي الابتداء يذكر الموت والمنايا مافيه من الطيرة التي تنفر منها السوقة فضلاً عن الملوك"[5].

وقد وصف الثعالبي مثل هذا القول مما أعتل لفظة ولم يصح معناه، فاذا قرع السمع لم يصل الى القلب إلاّ بعد اتعاب الفكر وكد الخاطر.[6] واحسب أن هذا مما يُعد كشفاً لما في ضمير المتنبي من استصغار لكافور مع حاجته الى عطائه. فكانت امارات الحزن والقلق بادية على مطالع شعره.

اما ابن رشيق فهو الناقد الآخر الذي لم يلق عنده هذا الابتداء استحسانا، وقد أفصح عن ذلك بقوله: "ومن هذه الجهة بعينها [جهة استثقال مواجهة الملك]، عابوا على أبي الطيب قوله: كفى بك ...[...] فالعيب من باب التأدب للملوك وحسن السياسة لازم لأبي الطيب في هذا الابتداء..."[1].

ولايخفى ان سبب الاستهجان هو أن الممدوح يجب ألاّ يخاطب بمثل هذه الابتداءات التي لاتتناسب والمنزلة الاجتماعية للممدوح، والتي تبعث على النغاصة والكدر بذكر الموت وما يتطير منه المتلقي . "فالفطن الحاذق يختار للأوقات ما يشاكلها وينظر في أحوال المخاطبين؛

---

[7] الرسالة الحاتمية (ضمن كتاب الابابة): 258.
[1] ينظر: م. ن: 257.
[2] ديوان المتنبي:351/1.
[3] الرسالة الحاتمية: 257.
[4] ديوان المتنبي:623/2.
[5] يتيمة الدهر، الثعالبي: 162/1.
[6] ينظر: يتيمة الدهر 1/ 162 واتجاهات النقد: 126.
[1] العمدة: 222/1.

فيقصد محابّهم ويميل الى شهواتهم وان خالفت شهوته ويتفقد ما يكرهون سماعه فيجتنب ذكره..."[2] . فالممدوح وان علم ان الشاعر انما يخاطب نفسه لكن لاينبغي ان يواجه بمثل هذا الخطاب بما يستثقل به من مواجهة وأقصد به كاف الخطاب فيقول (كفى بك) وقد أشرنا فيما سبق الى مثل هذا النموذج في مخاطبة جرير لعبد الملك حين قال له: "أتصحوا أم فؤادك غير صاح..."[3].

وهذا موضع غير مناسب لعملية توصيل المدحة فاستوى عائقا في التلقي. ولم يستحسن الثعالبي قول المتنبي[4]:

أما وحقك وهو غاية مقسم للحق أنت وما سواك الباطلُ
الطيب أنت اذا أصابك طيبه والماء أنت اذا اغتسلت الغاسلُ

فيشير الناقد الى تقدير الكلام: "الطيب أنت طيبه إذا أصابك والماء أنت غاسله اذا اغتسلت به"[5] فهذه الالفاظ تخالف المعاني وهي في غير موضعها المناسب لانها جاءت على غير سياقها الصحيح وهذه تجليات تغير –تغير سياق الكلام- شكلت عائقا في استجابة تلقي المديح.

ومن هذا القبيل أيضاً عدم استحسانه قوله[6]:

أنّى يكون أبا البرايا أدمُ وابوك والثقلان أنت محمدُ

فتقدير الكلام لدى الثعالبي:

"أنى يكون أدمُ أبو البرايا وابوك محمدُ وانت الثقلان"[1]

وقد عاب الثعالبي على المتنبي عرض اسلوبه فوصفه بأنه (أحد مراكبه الخشنة...) ومن النصين المتقدمين نجد أن الثعالبي لم يستحسن هذا المديح من المتنبي لغموض اسلوبه[2]. وقد أشار الجاحظ الى مثل هذا فقد أوصى بالبعد عنه، فقد حذّر بالبعد عن التعقيد الذي "يستهلك المعاني ويشين الألفاظ"[3].

فيكشف الناقد بهذا التقدير سبب استهجانه لمثل هذه الاشعار لأنه جاء بما يخالف سياق الكلام فقد وضع الشاعر الالفاظ في غير مواضعها، وهذا تعسف كما يذكر المرزباني: "والواقع كلامه على المجازفة زايل في التقديم والتأخير، زايل عن الاعراب، زايغ عن الصواب"[4]. زد على ذلك أن الشاعر خرج عن المديح الواقعي، وسلك الى المبالغة التي أوقعته بالخطأ، وكلاهما من المواضع التي تعيق استجابة تلقي المديح.

واستهجن الصاحب بن عباد (385هـ) قول المتنبي[5]:

قد كنتُ اشفقُ مِن دمعي على بصري فاليوم كل عزيز بعدكم هانا
لو استطعتُ ركبتُ الناسَ كلهمُ الى سعيد بن عبد الله بعرانا

---

[2] ينظر: م.ن: 222/1.
[3] ينظر: بحثنا ص23.
[4] ديوان المتنبي:271.
[5] يتيمة الدهر: 167/1.
[6] ديوان المتنبي:79.
[1] يتيمة الدهر: 70/1.
[2] ينظر: اتجاهات النقد: 125.
[3] البيان والتبيين: 135/1، وينظر المرشد في فهم اشعار العرب وصناعتها: 5.
[4] ينظر: الموشح: 52.
[5] ديوان المتنبي:273.

وعبّر عن ذلك بقوله: "وفي الناس أمهُ فهل ينشط لركوبها؟ وكذلك الممدوح لعل له عصبة لايحب أن يركبوا اليه فهل في الارض أفحش من هذا التسحب، وأوضع من هذا التبسط"[6].

أما الثعالبي فهو الآخر لم يقبل هذا المدح وأفصح بطريقة لفظية عن ذلك قائلاً: "ثم أراد أن يزيد على الشعراء في وصف المطايا، فأتى –كما قال الصاحب- بأخزى الخزايا"[7]....

وابن سنان لم يرض بهذا الشعر وعبّر عن عدم رضاه بطريقة لفظية قائلاً: "ومن جملة الناس أمهُ فكان ينبغي أن يركبها"[1].

إن مثل هذه الزيادة في الوصف تشكل موضعا غير مناسب لعملية التوصيل لذا كانت موضع اتهام النقاد، فجاء استهجانهم لقول المتنبي المشار اليه وقد اعربوا عن عدم استحسانهم اليه لفحش معناه، هذا من جهة. ومن جهة اخرى لأن الالفاظ كانت مستخدمة في غير محلها وموضعها المناسب، فصارت عائقاً لاستجابة تلقي المديح.

ويرى الثعالبي أن المتنبي يخاطب الممدوح من الملوك بمثل مخاطبة المحبوب، ويرى أن المتنبي تفرد بهذا المذهب واستكثر من سلوكه اقتداراً منه وتجرؤاً في الالفاظ والمعاني ورفعاً لنفسه عن درجة الشعراء وتدريجاً لها الى مماثلة الملوك في مثل قوله لكافور[2]:

وما أنا بالباغي على الحب رشوةً ضعيف هوى يبغي عليه ثواب

وقوله لعضد الدولة[3]:

أروح وقد ختمت على فؤادي بحبك أن يحلّ به سواكا

ولم يعهد ذلك من شعراء العرب جاهليين او اسلاميين، وتفسيره لايمكن أن نجده الا في حياة الشاعر وطبيعته النفسية[4].

ويقول محمد منذور "أمّا عن رغبته في أن يرفع نفسه الى مرتبة ممدوحيه بمخاطبته لهم بلغة الحب فأمر قد لايكون صحيحاً في مدحه لكافور وابن العميد وعضد الدولة. أما مدحه لسيف الدولة فقد كان مدحاً صادقاً لاتكلف فيه ولا التواء وهو مدح أشبه بالحب منه بالتملق"[5].

ومن شعراء المديح المفجع البصري (ت327هـ) الذي استجاد له الثعالبي قصيدته التي يمدح بها الامام علي (عليه السلام) المسماة (ذات الأشباه) يصور فيها مناقبه (ع) مطلعها[1]:

أيها اللائمي لحب عليّ قم ذميماً الى الجحيم خزيّا
اشبه الانبياء كهلاً وزولا وفطيماً وراضعا وغذيا

وقوله[2]:

زفرات تعتادني عند ذكرا ك وذكراك ما تريم فؤادي

---

(6) الكشف عن مساوئ المتنبي، للصاحب بن عباد: 249.
(7) يتيمة الدهر: 1/ 168-169.
(1) سر الفصاحة: 253.
(2) ديوان المتنبي:310.
(3) م.ن:801.
(4) ينظر: يتيمة الدهر:308/1، والنقد المنهجي عند العرب ، د.محمد مندور: 315، والنقد الادبي: 485، وشعراء وادباء العصر العباسي في سامراء، عبد الرزاق البدري: 307، وتاريخ النقد الادبي عند العرب- نقد الشعر: 376، واسس النقد الادبي: 195.
(5) النقد المنهجي عند العرب: 315.
(1) ينظر: يتيمة الدهر: 2/ 261.
(2) ديوان المفجع:261.

وسروري قد غاب عني مذ غبـ ت فهل كنتما على ميعـاد

ويعبر عن استجادته لهذا الشعر بقوله: "إن شعره كثير الحلاوة يكاد يقطر من ماء الظرف"[3].

وجاء في العمدة: أنشد محمد بن عبد الله النحوي (ت412هـ):

تجنبك الجيوش أبا خبيب وجادَ على منازلك السحاب

فهو إن دعا له فانما أراد أن يعافى من الجيوش، وان يجوده السحاب من السحاب فتخصب أرضه. وإن دعا عليه قال: لابقي لك خير تطمع فيه الجيوش فتجنب ديارك لعلمهم بقلة الخير عندك ويدعو لأن تدرس الامطار أرضه.[4]

وجاء ايضاً انه أنشد[5]:

إني على كل إيسار ومعسرة أدعو حبيشاً كما ندعو ابنة الجبل

يريد أنه يجيب بسرعة كالصدى، وهو ابنة الجبل، وقيل: ابنة الجبل الصخر، المنحدرة من اعلاه فهذا مدح لا محالة. فَمَنْ مدح جعله كالأول في سرعة الاجابة وَمَنْ ذم نسبهم الى الثقل عن اجابته مثل الجبال[6].

وهنا يبدو من هذين المثالين أن ثمة ما يشكل بين المدح والذم. اذ أن هذا المدح وما شاكله يحتمل الوجهين فمن أراد المدح أصاب في أن يجعله كالأول ومن أراد الذم جعله كالثاني. وهذا موضع غير مناسب لعملية التوصيل في تلقي المدح لأن فيه ما يعيق استجابة التلقي.

ويتضح من تجوالنا في رياض المديح العباسي وموقف النقاد منه من حيث التلقي، أن النقاد كانوا يعربون عن استجابتهم لهذا المديح بطرائق لفظية أسوة بقريناتها في المديح الأموي. ففي ما يخص الاستجادة كانوا يقولون مثلاً: (ومن افضل ما مدح به الملوك وأكثره اصابة للغرض ما ناسب قول...) و(من الاشعار المتقنة المستوفاة المعاني الحسنة الوصف السلسة الالفاظ) و(هذا أحسن واكمل للمدح لتوفره على سرعة اصابة الحزم) و(افضل ابتداء صنعه شاعر) و(هذا احسن كلام وابلغه في المدح) و(فإنها من عيون القصيدة وان كانت كلها عيناً).

اما فيما يتعلق بعدم الاستجادة فكان من مثل قولهم : (ومما يؤخذ عليه من الافراط) و(انه كلام رديء مستهجن في غير موضعه) و(هذا معنى يقصر بالممدوح ويغضُّ مِنْ حَسَبه ويحقر من شأنه) و(تناول معنىً بارداً وغرضا فاسداً) و(إنّ هذا بالهجو أولى منه بالمدح).

أما المعوقات التي كانت تقف حائلاً دون استجابة بعض النقاد للمديح العباسي فكان منها: (اختلاف الذائقة النقدية واللغوية)، كعدم استحسان بعض النقاد لبيت ابي نواس: واخفت أهل الشرك...

واستحسان بعضهم الآخر لمثل هذا المديح.

وكذلك التباين بين الناقدين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي في ابيات اشجع السلمي في الرشيد: وصَلَتْ يداكَ السيف يومَ تقطّعت أيدي الرجال وزلّت الأقدام

ومن المعوقات الاخرى؛ المواضع غير المناسبة ومنها المديح كالهجاء، ومثاله عدم استحسان الامدي لبيت ابي تمام:

سعى فاستنزل الشرف اقتساراً ولو لا السعي لم تكن المساعي

---

[3] يتيمة الدهر: 362/2، وينظر: تاريخ الادب العربي- العصر العباسي الثاني :398.

[4] ينظر: العمدة: 187/2.

[5] م.ن: 188/2.

[6] ينظر: م.ن: 188/2.

لان المعنى صار فاسداً بحسب ما يراه الناقد فهو موضع غير مناسب لانه هجاء صريح كما يقول الناقد.

ومن المواضع الاخرى الالفاظ التي لاتناسب منزلة الممدوح كاستخدام الشاعر البحتري كلمات ذم في المدح مثل كلمتي (يردعه) و(التعنيف) في بيته:

لا العدل يردعه ولا الـ تعنيف عن كـرم يصده

كذلك منها قول المتنبي:

فإن نلت ما أملّت منك فربما شربتُ بماء يعجزُ الطير وردُه

وهذه الفاظ تخالف المعنى لانها اقرب الى الذم كما يرى الناقد (الحاتمي).

ومن المواضع غير المناسبة الاخرى؛ الابتداءات غير الموفقة ومثالها ما أخذ على المتنبي كقوله يمدح كافوراً:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

أما آخر هذه المواضع غير المناسبة فهو ما أشكل من المديح والهجاء. ومثاله قول محمد بن عبد الله النحوي:

تجنبك الجيوش أبا خبيب وجاد على منازلك السحاب

وقوله:

اني على كل ايسار ومعسرة ادعو حبيشاً كما ندعو ابنة الجبل

فمن ذم نسبهم الى الثقل عن اجابته مثل الجبال، ومن مدح جعله كالاول في سرعة الاجابة.

وثمة (تجليات تغير) تتمثل في تغير الصفات كرفض الامدي بعض المعاني التي لاتعرف الاّ بعد الكد والتعب ومنها قول ابي تمام:

فلويت بالمعروف اعناق المنى وحطمت بالانجاز ظهر الموعد

ومثل هذه الصفات لم يعتدها الناس.

كذلك استخدام صفات غير مألوفة مثل قول ابي تمام:

رقيق حواشي الحلم لو ان حلمه بكفيك ما ماريت في أنه برد

اما فيما يخص تغير الالفاظ فمنه قول ابي تمام:

لا تسقني ماء الملام فإنني صبُ قد استعذبت ماء بكائي

اما ما يتعلق بتجليات التغير في بنية القصيدة فمثالها : ابتداء ابي تمام:

السيف اصدق انباء من الكتب....

فقد بدأ قصيدته بالحكمة وهو ابتداء غير تقليدي فلم يبدأها بوصف الديار.

أما تجليات التغير في السياق فيتمثل في التقديم والتأخير الذي استخدمه المتنبي في قوله:

أنى يكون ابو البرايا أدمٌ وابوك والثقلان أنت محمدٌ

فلم ينل استحسان بعض النقاد لأنه جاء بما يخالف سياق الكلام وهذا قرين لقول الفرزدق:

وما مثله في الناس...

اما من ناحية العوامل التي تؤثر في استجابة المديح وتلقيه لدى الناقد للمديح العباسي فكان من اهمها المكانة الثقافية للناقد او الشاعر كما هو بيّن في قول ابي تمام:

سأحمد نصراً ما حُييت وإنني لاعلَمُ أنْ قدْ جلَّ نصرٌ عن الحمد

الذي كشف الناقدان ابو هلال والامدي عن هذا الخطأ بفضل ثقافتهما النقدية التي تعد عاملاً مؤثراً من الاستجابة. وكذلك مكانة القاضي الجرجاني التي من خلالها التفت الى اخطاء الشعراء في الالفاظ والمعاني المتمثلة في قول علي بن جبلة مثلاً:

وما سوَّدَتْ عجلا مآثر عزمهم ولكن بهم سادت على غيرها عجل

والاشارة الى مثل قول زهير:

ومايكُ من خير أتوه فانما

توارثـه آبـاء آبائهـم قبـل

ومـن العوامـل الاخـرى المـؤثرة فـي التلقـي والاسـتجابة للمـديح؛ تبـدل النظـام الفكـري والحضاري، وهذا يتضح في رقي ابي تمام في الفاظه ومعانيه الى الابداع ورفعِ الناس لمستواه فتغيرت الفاظه ومعانيه نتيجة لتطور المجتمع وتبدل النظام الفكري والحضاري.

هذا الفصل –كما هو واضح- يُشكّلُ حلقة في الوقوف على تلقي الناقد لغرض المديح في عصوره المختلفة (الجاهلي، والاسلامي، والاموي، والعباسي) ولكي نكشف بدقة ووضوح عن معطيات هذا التلقي رأينا أن نعقده لنتبين تلقي النقاد للمديح في عصوره الأربعة، معتمدين على ثقافتهم النقدية التي من خلالها عبّروا عن استجابتهم وعدمها لغرض المديح.

ولم يكن النقاد في تلقيهم هذا يعبّرون عن الاستجادة او عدمها فحسب وانما كان منهم مَنْ يُعلل ويُسوغ أحكامه النقدية ومنهم مَنْ يُوجه المتلقي الى الوجه الصحيح للمدح الجيد.

لاحظنا في تلقي الناقد للمديح، أن النقاد كانوا متفقين في الاعراب عن استجادتهم للمديح بـالطرائق اللفظيّـة (القول) فقط دون الطرائـق الاخرى (التصـرف والمـال)، التـي عهـدناها عنـد الممدوحين. وكانت هذه الطرائق تتباين بين الاستحسان والاستهجان أو القبول والرفض معلّلين وموجهين احياناً اخرى. ولا نريد أن نثقل في ايراد الامثلة لاننا اشرنا اليها في اثناء البحث.

أما من حيث معوقات الاستجابة للمديح فلم يتفق النقاد على معوقات بعينها فكان منهم من يرى الالفاظ المخالفة لمعانيها عائقاً لمعوقات الاستجابة ومنهم من لايرى ذلك. ومرّد هذا يعود الى اختلاف الذائقة اللغوية والنقدية بين النقاد أنفسهم.

وما يقال في الالفاظ المخالفة لمعانيها يقال عن الابتداءات التي سميت استهلالات غير موفقة.

اما العوامل المؤثرة فكانت تتمثل بالقبول الفكري والحضاري والمكانة الثقافية عند اغلب النقاد.

تلقي المتذوق لغرض المديح

مثلما كانت لنا وقفة في الفصل الثاني على (تلقي الناقد لغرض المديح) نقف الآن في هذا الفصل على (تلقي المتذوق لغرض المديح)، ايضاً متّبعين المنهج الذي سلكناه في الفصل الثاني لنتبين استجابة المتذوق للمدح من خلال ما مَثّلنا له في هذا الفصل.

إن المتذوق هو الذي يملك الاستعداد للاستجابة للنصوص لابداء استجابته استحساناً أو استهجاناً ولكنه غير مختص بالنقد أو لم يهيمن النقد على اهتماماته الاخرى. وقد يكون على مقربة من الشاعر أحياناً أو بعيداً عنه أحياناً أخرى فهو كالممدوح مرة وكالناقد مرة اخرى. أي قد تفصل المتذوق عن زمن قول الشعر فاصلة زمنية قصيرة أو طويلة وقد لاتفصله. لهذا فقد نرى ان المتذوق يثيب المادح مباشرة اذا كان لايفصله عنه فاصل زمني.

وفي هذا الفصل سنرى ان هناك طرائق جديدة ظهرت لم ترها عند الممدوحين ولا عند النقاد وهي أن المتذوق قد يكون شاعراً فيرد على المادح استجابة أو عدم استجابة بمثل قول الشاعر أي بالشعر.

لذا فالشعراء (المتذوقون) هم –بدرجة ما- نقاد يصدرون احكامهم النقدية من خلال الاستجابة لشعر المادح استحساناً أو استهجاناً بالطرائق التي عرفناها. ولولا أن المتذوق يجمع في صفات الشاعر والفيلسوف والناقد والمثقف لكان الفضل على غير هذه الصورة. وان دور المتذوق يكون اكثر وخصوصاً في غرض الغزل، لان الذوق هو الحكم. وهذا الحكم يتأتى من الاثر النفسي المباشر الذي يخلقه النص لحظة محاورته المتلقي، أو الحكم الناتج عن التذوق الذي يؤدي الى الالتذاذ والاطراب، وهذا ماسنراه عند الوليد.

تلقي المتذوق لغرض المديح الجاهلي

وهنا نجد أن المتذوّق يأخذ دور الناقد في تلقيه للمرويات والنصوص الجاهلية فيعرب عنها بالاستحسان أو الاستهجان، وبالطرائق التي عرفناها، والمتذوق الذي قد يكون شاعراً أو لغوياً او مثقفاً ثقافة عامة؛ هو الذي يصدر أحكامه على النص. ولربما يثيب المادح إذا لم تكن تفصله عنه فاصلة زمنية. علماً أن طرائق الاستجابة لديه محدودة في اطار الطرائق اللفظية في الاكثر، وقد تؤثر فيها عوامل وقد تحول دونها معوقات سنكشف عنها في اثناء البحث.

فقد حكي أن الوليد طلب من الشعبي أن يكون حكما بين النابغة الذبياني وبين أمرئ القيس. فأُنشد الوليد أبيات النابغة التي أولها[1]:

كليني لِهمّ يا أميمةَ ناصبِ وليل أقاسيه بطيء الكواكبِ

[1] ديوان النابغة الذبياني: 2.

وأنشد مسلمة أبيات امرئ القيس التي منها:[2]

وليل كموجِ البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

فضرب الوليد برجله طرباً ، فقال الشعبي : بانت القضية[3]. فقد استحسن الوليد – بصفته متذوقا- أبيات امرئ القيس وعبّر عن استحسانه لها بطريقة التصرف المعنوية فضرب برجله طرباً واستحسنها الشعبي وعبر عن استحسانه بقوله: بانت القضيّة. فقد عبّر المتذوقان عن هذا الاستحسان بالقول والتصرف.

وقد اختلفوا في قول أبي الطمحان القيني[4]:

أضاءتْ لهمْ أحسابهم ووجوهُهمْدُجى اللّيلِ حتَّى نَظَّمَ الجزعَ ثاقِبُهْ

فقالوا: إنّه أمدح بيت قيل في الجاهلية، وقالوا : بل أكذب بيت قيل[1]. ولا سبب في هذا التباين في الاستحسان والاستهجان إلاّ اختلاف الذائقة اللغوّية والنقديّة بين المتذوقين. ويعد هذا أحياناً عائقاً من معوقات استجابة تلقي المدح.

وعمد ابن شرف الى بيت زهير الذي كان يعدّه قدامة بن جعفر من نماذج المدح الجيد وهو[2]:

على مكثريهم حق مَنْ يعتريهم وعند المقلّين السماحة والبذل

فلم يلق استحسانه وعابه على الشاعر لأنه ذم هؤلاء الناس حين أخبرهم أن فيهم مقلين ومكثرين. وقد أفصح المتذوق عن عدم استجادته لهذا المدح بقوله: لو كان مكثروهم كرماء لبذلوا لمقلّيهم الأموال حتى يستووا في الحال فيرى ابن شرف أنه مخل بالمدح[3]. ونتفق مع ابن شرف لأن حال الدنيا هكذا، خلق الناس غير متساوين فيهم المقل وفيهم المكثر. وإن كان رأي ابن شرف مقبولا في حال أنّ الأقربين أولى بالمعروف فالاحسان إنّما يكون لذويهم. وإنّ ابن شرف لَمْ يستحسن هذا البيت لأنه يرى عدم توفر الجانب الأخلاقي والإجتماعي ، فشكل عائقاً في الإستجابة والتلقي.

وقد لقيت أبيات زهير اهتمام بعض المتذوقين استحساناً او استهجاناً فقد كان قدامة بن موسى عالماً بالشعر وكان يُقدم زهيراً ويستجيد قوله[4]:

وقَد جَعلَ المبتغون الخير في هرمٍ و السائلون الى أبوابه طُرقا

إنْ تَلْقَ يوماً على علاّته هرمــاً تلقَ السّماحة منه والنّدى خلقا[5]

فقد استحسن المتذوق أبيات زهير وعبّر عن استحسانه بتقديمه واستجادة قوله..

وهذا مدح جيد لانه صادق يعبر عن الذات أنى وجدت صفات حسنة في الممدوح "هرم" لموقفه المشرف.

---

(2) شرح ديوان امرئ القيس:3.

(3) ينظر: الموشح: 31-32، والنقد الادبي -أصوله ومناهجه ، سيد قطب: 174-175.

(4) ديوان أبي الطمحان:

(1) ينظر: وفيات الاعيان : 1/ 60.

(2) ديوان زهير: 87.

(3) ينظر:مسائل الانتقاد،ابو عبد الله بن شرف القيراوني:70،وتاريخ النقد الادبي عند العرب-نقد الشعر:467.

(4) ديوان زهير: 60.

(5) الشعر والشعراء: 51.

وعبد الملك يسأل القوم من الشعراء أي بيت امدح؟ فيتفقون على بيت زهير[1]:

تراهُ إذا ما جئتـه مُتهللاً كأنكَ تُعطيهِ الذي أنتَ سائِلُه[2]

وكان الحطيئة يقول: امدح بيت قول زهير: (تراه...)[3].

وقد يستشف من ذلك أن استحسانهم ناجم عن عدم خروج زهير عن المدح الواقعي. لكن خلف الأحمر (ت180هـ) بوصفه متذوقاً آخر لم يستحسن قول زهير: تراه اذا ما جئته...

ويعبر عن عدم استحسانه بطريقة لفظية فيقول: أغلب المدح كان مَلَقاً كقول زهير: تراه...[4]

إن هذا التباين في الاستجابة كانَ مرجعهُ اختلاف الذائقة اللّغوية والنقدية عند المتذوقين.

ويروى أن عبد الله بن جعفر بن درستويه قال؛ أخبرني علي بن مهدي الكسوري عن حبيب: لا اعلم أحداً أحسن في صناعة الترديد[*]من زهير في قوله[5]:

إنْ تلق يوماً على علاّته هرماً تلق السماحة منه والندى خلقا[6]

فقد استجاد المتذوق هذا البيت وأفصح عن الاستجادة بهذا القول.

أما قول زهير[7]:

نقيّ تقيّ لمْ يكثّر غنيمة بنهكة ذي القربى ولا بحقلّد

فلم يستسغ الرواة (المتذوقون) هذا الشعر من زهير فقد أخذوا عليه واستبشعوا لفظة (بحقلد) وعبروا عن عدم استحسانهم لهذا البيت بطريقة لفظية إذ قالوا: ليس في لفظ زهير أنكر منه أي من لفظ (بحقلد)[1]. وهذا يعود الى اختلاف الذائقة اللغوية بوصفها أحياناً عاملاً مهماً في استجابة تلقي المديح. ولربّ سائل يعترض على قول عمر انه كان "لا يَتبع حوشي الكلام"[2] فالجواب بأنه قد وَصَفَهُ بالصفة الغالبة العامة، أو قد تكون هذه اللفظة في وقته غير حوشية ومردّ ذلك الى النظام الفكري والحضاري وتطور الزمن الذي يُعدّ عاملاً مؤثراً في استجابة تلقي المديح.

وقيل أن عمراً استحسن الصدق لذاته، ولما فيه من مكارم الاخلاق، والمبالغة بخلاف ما وصف، ويشهد لقول عمر (رض) في زهير أنه لايمدح الرجل الاّ بما فيه استحساناً لصدقه ما جاء به الأثر أن رجلاً قال لزهير: أني سمعتك تقول لهرم:[3]

---

(1) ديوان زهير: 96.
(2) ينظر: الشعر والشعراء: 51.
(3) ينظر: العمدة: 2/ 139.
(4) ينظر: م.ن: 2/141.
(*) الترديد= تعليق الشاعر لفظة في البيت بمعنى ثم يرددها فيه بعينها، ويعلقها بمعنى آخر في البيت نفسه.
(5) ديوان زهير : 60.
(6) ينظر: نقد الشعر: 70-71 ، وحلية المحاضرة: 154/1.
(7) ديوان زهير: 34.
(1) ينظر: الموازنة : 2/ 266-267 ، وكتاب الصناعتين: 236.
(2) الشعر والشعراء: 51.
(3) ديوان زهير: 41.

ولأنتَ أشجعُ مِن أسامةَ إذ دُعِيَتْ نَزَالِ ولج في الذُّعر

وانك لاتكذب في شعرك فكيف جعلته اشجع من الأسد؟

فالرجل لم يستحسن قول زهير لأنه كذب في شعره وبالغ وأعرب عن عدم استجابته بقوله: (وانك ...) ولكن زهيراً ردّ عليه فقال: إني رأيته فتح مدينة وحده وما رأيت أسداً فتحها قط!!.

وبهذا فقد خرّج لنفسه طريقاً الى الصدق وبعيداً عن المبالغة[4].

وما ردّ زهير الاّ دليل على مكانته الثقافية التي هي عامل من عوامل التأثير في استجابة تلقي المدح. وهذا مايجبُ التأكيد عليه في فن المديح واثره في التلقي.

والصدق في الشعر فضيلة لاتنكر عند قسم من النقاد ، ومن هذا المنطلق فضّل عمر بن الخطاب زهير بن أبي سلمى لأنه لا يمدح الرجل الاّ بما فيه[5] ثم قال أليس هو الذي يقول:

اذا ابتدرت قيس بن عيلان غايةً من المجد من يسبق اليها يسوّد

سبقت اليها كل طلق مبرز سبوق الى الغايات غير مزند

وقد جعله أشعر الشعراء بناء على هذه الخصيصة وخصائص أخرى[1]

واختلف النقاد في قضية تكسب زهير بمدحه بين مثبت[2] ونافٍ[3] ومعلل[4].

وجاء النابغة الذبياني يمدح النعمان بن المنذر بقصيدته التي منها[5]:

ألم تَرَ أَنَّ الله أعطاكَ سْورَةً ترى كلَّ ملك دونها يتذبذبُ

بأنك شمسُ والملوك كواكبُ إذا طَلَعَتْ لَم يبدُ منهنّ كوكبُ

وكان حسان حاضراً وسمع هذا المدح ورأى الجائزة التي اعطاها النعمان للنابغة وهي مائة من الابل السود ومعها رعاؤها وكلابها، فاستحسن حسان هذا المدح وكشف عن استحسانه هذا بقوله: "فما حسدت أحداً حسدي النابغة لما رأيت من جزيل عطيته وسمعت من فضل شعره"[6] وقيل: إنه قال: "فما أدرى أأحسده على جودة شعره أم على جزيل عطيته"[7]. فقد تمكن الشاعر مِن اختيار صفات مدح والفاظ جعلت ممدوحه يتميز عن غيره من الملوك فجعله شمساً بين الكواكب . وهذا يعني أن الشاعر ذو مكانة ثقافية واسعة راعى من خلالها المكانة الاجتماعية لممدوحه. فيُعدّ هذا عاملاً من العوامل المؤثرة في عملية استجابة التلقي.

---

(4) ينظر: العمدة: 1/98-99، و1/81.

(5) ينظر: طبقات فحول الشعراء: 1/63، والاغاني: 10/ 299، والعمدة: 1/98، وقضايا النقد العربي قديمها وحديثها، د. داود غطاشة وحسين راضي: 14.

(1) ينظر: الشعر والشعراء: 69.

(2) ينظر: العقد الفريد ابن عبد ربه: 5/281.

(3) ينظر: خزانة الادب ولب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي: 2/292 ، والتكسب بالشعر: 14.

(4) ينظر: فن المديح: 67.

(5) ديوان النابغة الذبياني: 17.

(6) الشعر والشعراء :65.

(7) م.ن:62.

وروي ان الحطيئة قال عن البيت الثاني بأنه أمدح بيت[8].

ولكن أذواق الناس قد تختلف باختلاف العصور فلما قال النابغة:[9]

وكنت أمرأً لا أمدح الدهر سوقةً فلست على خير أتاك بحاسد

عيب عليه هذا ولم يستحسن منه وقد أفصح المتذوقون عن ذلك بقولهم: كيف يحسده على ما قد جاد به؟[1]

والمعاني هذه غير مرضية لأنها جاءت في غير محلها فخالفت السّياق مما صارت من المواضع غير المناسبة التي شكلت عاملاً سلبياً في استجابة التلقي.

وقد كان الاخطل يعترف بشاعرية النابغة، وتفوقه عليه، ففي مجلس من مجالس عبد الملك سأل الشعبي الأخطلَ عن أشعر الناس، فأجابه ؛ أنا. وقد ردّ الشعبي عليه فقال: يا أخطل أشعر منك الذي يقول في النعمان بن الحارث[2]:

هذا غلام حسن وجههُ مستقبل الخير سريع التمام

فلما سمع الاخطل هذا الكلام قال: صدق والله يا أمير المؤمنين النابغة اشعر مني[3].

فقد كان المتذوق (الشعبي) يستحسن قول النابغة فاعرب عن استحسانه بطريقة لفظية يردّ بها على الأخطل (أشعر منك الذي يقول...).

كما أن اعتراف الأخطل نفسه بشاعرية النابغة يعني استجادته له أيضاً بوصفه متذوقاً. ويدلُ هذا على أن النابغة يمتلك مقدرة أدبيّة واسعة، ويَدل على المكانة الثقافية للمتذوق، بوصفها عاملاً مؤثراً في استجابة تلقي المديح.

ولما أنشد الاعشى قصيدته التي أولها[4]:

مابكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وهل تردّ سؤالي

كان النابغة يستحسن ذلك المدح ويعبر عن استحسانه بتفضيله الاعشى على حسان والخنساء. وظهر التفضيل في قوله لحسان "أنت شاعر، ولكنك أقللت جفانك واسيافك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن انجبك"[1].

فكان النابغة لايريد من الشاعر أن يختار الالفاظ التي تؤدي المعنى المقصود فحسب بل أن يخضع المعنى الى العرف والتقاليد فيفخر بمن انجبه لا بمن ولده[2].

وان دلّ هذا على شيء فانما يدل على مكانة المتذوق الثقافية والاجتماعية بوصفها عاملاً مؤثراً في استجابة تلقي المدح. وقد علقنا[3] في فصل سابق على هذا النص بأنه

---

[8] ينظر: العمدة: 139/2.
[9] ديوان النابغة الذبياني: 45.
[1] ينظر : الموشح: 54-55.
[2] ديوان النابغة الذبياني:117.
[3] ينظر: الشعر والشعراء: 61 ، والعمدة: 2/ 229.
[4] ديوان الاعشى: 30.
[1] ينظر: الموشح: 60 ، والعمدة : 2/ 53.
[2] ينظر: النظرية النقدية: 139.
[3] ينظر ص من هذا البحث.

استهلال لقصيدة الاعشى وقد أورده الشاعر في موضع غير مناسب فكان ذلك من معوقات التلّقي والاستجابة للمديح. أما في هذا الموضع فقد أوردناه لبيان طريقة الاعراب عن الاستجادة لدى النابغة -بوصفه متذوقاً لشعر المديح- وبيت حسان هو[4]:

لنا الجفنات الغرّ يلمعن بالضحى
واسيافنا يقطرنَ من نجدةٍ دَمَا

وقد نالت قصيدة الأعشى التي قالها في قيس بن معد يكرب، والتي منها:[5]

واذا تكون كتيبة ملمومةُ خرساء يخشى الذائدون نزالها
كنت المقدم غيرَ لابس جُنة بالسيف تضرب مُعلماً أبطالها
وعلمت أنّ النفس تلقى حتفها ماكان خالقها المليك قضى لها

نالت استحسان عبد الملك وكان معجباً بالاعشى وقد قال بطريقة لفظية على حد تعبيره: فمن زعم أن أحداً من الشعراء أشعر من الأعشى فليس يعرف بالشعر[6].

وقد عبّر عن اعجابه بهذه المدحة: واذا تجيء كتيبة...

بطريقة لفظية زيادة على ما سبق ذكره فقال: "أفلا قلت كما قال الاعشى لقيس بن معد يكرب"[1]. وهذا كلام قاله عندما مدحه كثير بقصيدته التي منها[2]:

على بن أبي العاص دلاصُ حَصينَةٌ أجادَ المُسدّى سردَها وأذالها

فالمتذوق كان يبغي المبالغة في وصف الشجاعة كما وصف الأعشى قيساً، في حين فضّل كثّير المديح الواقعي الذي جاء به الاسلام . وهذا الاختلاف دليل واضح على تطور وتبدل النظام الفكري والحضاري الذي عكسته البيئة والمجتمع والذي هو من العوامل المؤثرة في استجابة تلقي المديح، وقد ذكرنا هذا في فصل سابق الا أنه كان يخص الناقد.

ولما قالت الخنساء (ت24هـ) في مدح أخيها[3]:

جارى أباه فاقبلا وهما يتعاوران ملاءة الحُضْر
حتى إذا نزت القلوب وقد لزّت هناك العذر بالعذر
وعلا هتاف الناس:ايّهما؟ قال المجيب هناك:لاأدري

فلم يستجب بعض المتذوقين لهذا القول، وقد أعربوا عن عدم الاستجابة بقولهم للخنساء: ما مدحتِ أخاك حتى هجّنتِ أباك. لكن الشريف الرضي استحسن هذا المديح من الخنساء وقد عبّر عن هذا الاستحسان بقوله: انها بلغت النهاية في المدح لأخيها من غير إزراء على أبيها لأنها جعلت تقدم أبيه له عن قدره منه على المساواة وعن غير تقصير منه وأنما أخرج له عن السبق معرفة بحقه وتسليما لكبر سنه[4]. وبين ما أخذ على الخنساء

---

(4) ديوان حسان:131
(5) ديوان الاعشى: 33.
(6) ينظر: الموشح: 231.
(1) طبقات فحول الشعراء: 2/ 541.
(2) شرح ديوان كثير:152.
(3) ديوان الخنساء:81.
(4) ينظر: امالي المرتضى: 1/98-99.

في هذه الأبيات من نقد المتذوقين وما رآهُ الشريف الرضي بون كبير، ويعود ذلك الى اختلاف الذائقة اللغوية والنقدية بوصفها أحياناً عائقاً لاستجابة تلقي المديح.

ولما كتب الوليد بن عقبة الى لبيد أبياته[5]:

أرى الجزّار يشحذُ شفرتيه إذا هبتْ رياحُ أبي عقيلِ
أشم الأنف أ صيد عامريٌّ طويل الباع كالسيف الصقيلِ

اجابته ابنة لبيد فقالت:

اذا هبت رياح أبي عقيل دعونا عند هبتها الوليدا
اشمّ الأنف أروع عبشميّاً أعان على مروءته لبيدا

وقد استحسن المتذوق لبيد قول إبنته وقد أعرب لبيد عن استحسانه لشعرها بقوله: أحسنت لولا أنكِ استطعمته. فقالت إنّ الملوك لايستحيي من مسألتهم. فقال لها وانت في هذه اشعر[1].

يبدو من قول لبيد لأبنته (لولا انكِ استطعمته) أنه لم يبد استحساناً تاماً لشعرها لأنها استطعمت الممدوح ومثل هذا يعد عائقاً في الاستجابة والتلقي الاّ إنها سوغت قولها ذلك بان الملوك لايستحيي من مسألتهم. فعدل لبيد مؤكداً استحسانه واستجابته بقوله لها (وانتِ في هذه اشعر).

ويذكر الحصري القيراوني أن من حُرّ المديح وجيد الشعر قول الحطيأة في هرم[2]:

تزور أمرأً يُعطي على الحمد مالهَ ومن يُعط أثمان المحامد يُحمدِ
يرى البخل لايُبقي على المرء ماله ويعلم أن المرء غير مخلـدِ
كسوبُ ومتلاف إذا ما سألتــه تهلل واهتز أُهتزاز المهنـدِ
متى تأته تعشو الى ضوء نــاره تجد خير نار عندها خير موقدِ

وهذه المدحة لم تنل اعجاب الخليفة عمر وقد أعرب عن عدم اعجابه لها حين قال بطريقة لفظية: ذاك رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم[3]. أي أن مثل هذا المدح لايستحقه الاّ رسول الله (ﷺ). وفي رواية اخرى قيل أن عمر اتخذ الصدق مقياساً للشعر حين استمع الى قول الحطيأة: متى تأته تعشو الى ضوء ناره... فقال: كذب بل تلك نار موسى نبي الله (عليه السلام)[1].

وقد حظيت قصيدة حسان اللامية باهتمام المتذوقين، فقد ذكر ابن رشيق أن الحطيأة لما حضرته الوفاة قال: أبلغوا الأنصار أن أخاهم أمدح الناس حيث يقول:[2]

بيض الوجوه كريمة احسابهم شمّ الانوفِ من الطراز الأول
يغشون حتى ما تهرّ كـلاِبهم لا يسألون عن السّوادِ المقبِلِ

---

[5] ديوان الوليد:12.
[1] ينظر: الشعر والشعراء: 1/ 124، والاغاني: 15/ 298-299، والعمدة 82/1 (وفيه اختلاف طفيف).
[2] ديوان الحطيأة:37.
[3] ينظر: زهر الآداب : 4/ 177-178 ، والعمدة: 2/ 137.
[1] ينظر: الاغاني: 2/ 200.
[2] ديوان حسان:123.

فالحطيأة –بصفته متذوقاً- قد استجاد شعر حسان وعبّر عن استجادته له بهذه الطريقة اللفظية التي ذكرناها[3].

وعبد الملك بوصفه متذوقاً آخر يستجيد قول حسان متقدم الذكر (يغشون حتى ما قهر كلابهم...)

وقد عبّر عن استجادته لما سأل أولاده عن أمدح بيت، وأدلى كل واحد منهم برأيه فقال عبد الملك[4] : بل قول حسان بن ثابت:

بيض الوجوه كريمة احسابهم شمّ الانوفِ من الطراز الأول
يغشون حتى ما تهرّ كلابِهم لا يسألون عن السّوادِ المقبِلِ

وقد قال متذوقون آخرون: بل بيت الاعشى[5]:

فتىً لو يُباري الشمسَ أَلْفَتَ قِناعها أو القَمرَ السّاري لألقى المقالدا

أمدح منه[6] – أي من بيت حسان المتقدم ذكره:

(بيض الوجوه...)

معبرين بطريقة لفظية عن استجادتهم له فقالوا: (بل أمدح منه...) وهذا التباين في الآراء النقدية يدل على اختلاف الذائقة اللغوية والنقدية بوصفه احياناً عائقاً لاستجابة تلقي المدحة.

فيما تقدم لاحظنا أن المتذوق وقف على النصوص الجاهلية التي تختص بالمديح مُعرباً عن استجادته أو عدمها بأساليب لفظية، قد يتجاوزها أحياناً قليلة فيتصرف في بعض الأحيان. وقد يُعلل ويوجه المتلقي أو الشاعر (المادح) الى ما يوافق ذوقه الخاص.

ومن طرائق الاعراب عن الاستجادة التي عبّر بها المتذوق قول بعضهم: بانت القضية وقول بعضهم: فما أدرِي أأحسده على جودة شعره أم على جزيل عطيته. وقول الآخر: (أبلغوا الأنصار أن أخاهم أمدح الناس).

وكان المتذوق يعرب عن استجابته للمدح بطريقة التصرف في أحيان قليلة مِنْ مثل تصرف أحدهم بأن يضرب برجله طرباً.

أما الاعراب عن عدم الاستجابة فكان منها، قولهم: (لو كان مكثروهم كرماء لبذلوا لمقليهم الأموال) و(ليس هذا أجود من قول الاعشى في قيس بن معد يكرب) و(ذاك رسول الله) و (كذب بل تلك نار موسى).

وقد لاحظنا من خلال الوقوف على الوقائع والمرويات التي اختصت بتلقي المتذوق للمديح الجاهلي أن ثمة معوقات كانت تقف عائقاً في طريق الاستجابة والتلقي من مثل: اختلاف الذائقة اللغوية والنقدية بين المتذوق والمادح من جهة، وبين المتذوقين أنفسهم من جهة أخرى ومثال ذلك: اختلاف المتذوقين في موقفهم من بيت أبي الطمحان، فقال

---

[3] ينظر: العمدة 2/ 139، والاغاني : 2/ 195-196.
[4] ينظر: حلية المحاضرة: 1/ 338.
[5] ديوان الاعشى: 65.
[6] ينظر: العمدة: 139/2.

بعضهم: إنه (أمدح بيت قيل في الجاهلية) وقال أخرون (بل أكذب بيت قيل) . ولا يخفى أن مردَّ ذلك التباين يعود الى اختلاف الذائقة.

أما اختلاف الذائقة بين المتذوقين والمادح فمثاله: عدم استساغة الرواة لبيت زهير:

نقي تقي لم يكثر غنيمة بنهكة ذي القربى ولا بحقلد

فاستبشعوا لفظة (بحقلد) وأنكروها عليه، في حين أن هذه اللفظة لم تكن من الحوشي والمستهجن في زمن الشاعر وهذا دليل على اختلاف ذائقة كل من المتذوق والمادح، لأن المتذوقين (الرواة) عبّروا عن هذا الاستهجان في زمنهم الذي يبعد كثيراً عن زمن الشاعر.

ومن المعوقات الاخرى التي كانت حجر عثرة في طريقة استجابة وتلقي المتذوق؛ المواضع غير المناسبة، ومن امثلتها المعاني. فقد أنكر المتذوقون بيت النابغة:

وكنت أمرأً لا أمدح الدهر سوقة فلست على خير أتاك بحاسد

لأن الحسد لايّصح على ما قد جاد به الممدوح. فالمعنى هنا جاء في غير محله المناسب ممّا جعله عائقاً في الاستجابة والتلقي لغرض المديح.

أما من ناحية العوامل التي كان لها تأثيرُ في الاستجابة والتلقي لدى المتذوق فكان من بينها المكانة الثقافية للمتذوق كما هو واضح في موقف النابغة من قول حسان: لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى واسيافنا يقطرِن من نجدةٍ دما

إذ قال لحسان أقللت جفانك واسيافك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن أنجبك. فأراد النابغة – بوصفه متذوقاً- أن يُخضِع الشاعر معناه الى العرف والتقاليد فيفخر بمن أنجبه لا بمن ولده.

ومن العوامل الأخرى المؤثرة في الاستجابة والتلقي؛ تبدل النظام الفكري والحضاري، وهذا يبدو جليّا في موقف المتذوقين من شعر زهير في قوله: نقي تقي... المشار اليه قبل قليل.

تلقي المتذوق لغرض المديح الاموي

ومن خلال استقراء النصوص التي تخص غرض المديح لم نعثر على موقف للمتذوق من المديح الاسلامي في كتب النقد القديم التي كانت مصدراً للدراسة. في حين تم الوقوف على نصوص لا بأس بها تكشف لنا مدى استجابة وتلقي المتذوق للمديح الاموي والتي سنتبينها من خلال استعراض عدد من تلك النصوص موضحين طرائق الاعراب

عن الاستجابة وعدمها. والمعوقات التي تحول دونها، والعوامل المؤثرة فيها وتجليات التغير في تلك الاستجابة.

فيروي ابن رشيق أن مصعب بن الزبير أتى بأسارى من أصحاب المختار، فأمر بقتلهم، وقد تعلق به أسير منهم فقال له: "ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة الى صورتك هذه الحسنة ووجهك المليح الذي يستضاء به فأتعلق بك وأقول: يارب سلْ مُصعباً فيم قتلني. فاستحيا مصعب وأمر بإطلاقه. فقال أيها الأمير اجعل ما وهبت من حياتي في خفض ودعة من العيش. قال: قد أمرت لك بثلاثين الف درهم. قال: أُشهدك أيها الأمير أن شطر هذا المال لعبيد الله بن قيس الرقيات. قال : وَلِمَ ذلك. قال: لقوله[1]:

انّما مصعبُ شِهابُ مِن اللهِ تَجلّتْ عَن وَجهِهِ الظلْماءُ

فضحك مصعب وقال: اقبض ما أمرنا لك به ولا بن قيس عندنا مثله"[2] وهذا ينم عن استجادة الأسير –بوصفه متذوقا- لشعر ابن الرقيات، وقد عبّر عن استجادته له بطريقة مادية ومعنوية، اذ أشهد الأمير بأنّه شطر المال لأبن الرقيات لقوله: (إنّما مصعب...).

ويسأل عبد الملك اولاده عن أمدح بيت قالته العرب فيقول سليمان قول ابن الرقيات[3]:

مانقموا من بني أمية الاّ أنّهم يحملون إن غضبوا
انهم معدن الملوك فما تصلح الاّ عليهم العرب

اما الوليد ففضل قول الاخطل[1]:

شُمْسُ العداوةِ حتى يُستقاد لهم واعظمُ النّاسِ أحلاماً إذا قَدَروا

في حين فضّل مسلمة قول جرير[2]:

أَلَسْتم خيرَ مَنْ ركبَ المطايا وأندى العالَمين بطونَ راحِ[3]

فقد استحسن كل منهم قول صاحبه وعبّروا عن استحسانهم بطريقة لفظية كما ذكر. وهذا التباين في الرأي النقدي يكشف عن مدى اختلاف الذائقة اللغوية والنقدية عند اولاد عبد الملك.

ويذكر ابو هلال العسكري رواية عن الجاحظ انه قال:

وممن أراد أن يمدح فهجا؛ الاخطل. فقد انبرى لهُ فتى فقال له: أردت ان تمدح سماكاً الاسدي فهجوته فقلت[4]:

نعم المجيرُ سماكا من بني أسد بالطّف إذ قَتَلَت جيرانَها مُضَرُ
قد كنتُ أحسُبُه قيْنا وأنبؤهُ فاليوم طُيّرَ عن أثوابِه الشَرَرُ[5]

---

(1) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: 91.
(2) العمدة: 1/ 71.
(3) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: 4-5.
(1) شعر الاخطل: 192.
(2) ديوان جرير:77.
(3) ينظر: حلية المحاضرة : 388/1.
(4) شعر الاخطل: 673-674.

ومما نريد الكشف عنه من هذا القول هو بيان عدم استجابة المتذوق لهذا المدح وقد عبّر عن عدم الاستحسان بقوله: (اردت أن تمدح سماكا فهجوته فقلت...) وعبّر بطريقة لفظية كما بيّنا . ومن خلال هذا القول كذلك نستدل على أن المتذوق ذو مكانة ثقافية كبيرة مكّنته من كشف خطأ الاخطل، لأنه جاء بألفاظ لاتناسب المدح.

وقد يكون مردّ هذا اللبس الى عاملين: الأول مكانة الفتى الثقافية –بوصفه متذوقاً- التي جعلته يميز الهجاء من المديح في حين كان الشاعر دون تلك المكانة بوصفها عاملاً مؤثراً في استجابة التلقي، والثاني اختلاف الذائقة اللّغوية والنقدية بينهما بوصفه أحياناً معوقاً من معوقات استجابة تلقي شعر المديح.

وذات يوم كان الطرماح (ت100هـ) جالساً في حلقة فيها رجل من بني عبس، فأنشد الرجل العبسي قول كثير[1]:

فكنت المعلّى إذ أجلت قَداحَهُمْ وجال المنيح وسطها يتقلقلُ

فاعرب الطرماح عن عدم استجادته بطريقة لفظية لقول كثير معللاً ذلك قائلاً: أما أنه ما أراد به أنه اعلاهم كعبا ولكنه مَوّه عليه في الظاهر وعنى في الباطن انه السابع من الخلفاء. وقد قيل، فعجبنا من تنبه الطرماح لمعنى قول كثيّر وذهب على عبد الملك فظنّه مدحاً. لكنه إيهام بالمدح[2]. ويستشف من ذلك بأن المتذوق ذو مكانة ثقافية واسعة، أن ولديه باعاً في النقد والأدب مكنته من تمييز الشعر المموه الذي يدل هو الآخر على أن كثيّراً الشاعر يمتلك معرفة ومقدرة ثقافية واسعة استطاع أن يجيز على ممدوحه من خلالها، هذا المديح المبطن. فمكانة الشاعر والمتذوق الثقافيتان تعدان عاملاً مؤثراً في استجابة تلقي غرض المديح .

وحين سمع عبد الملك قول كثير في عبد العزيز بن مروان[3]:

وما زالت رقاك تسلّ صنعتي وتخرج من مكامنها ضبابي

ويرقيني لك الراقون حتى اجابك حية تحت الحجابَ

قال لعبد العزيز: ما مدحك انما جعلك راقياً للحيات[4]

وعيب على كثيّر قوله بمدح عمر بن عبد العزيز:[5]

رأيتُ ابن ليلى يعتري صلب مالهِ مسائل شتّى من عني ومصْرم

فلم يستحسنوه من كثير، وعبّر المتذوقون عن عدم استجادتهم له بقولهم: لأن هذا إنما يقع دون الخليفة والملك وانما أخذه من قول زهير في هرم، وليس بملك لذلك حسن قوله[1]:

هو الجوادُ الذي يُعطيك نائلهُ عفواً ويظلم أحياناً فَيَظلِّمُ[2]

---

[5] ينظر: كتاب الصناعتين: 92/1.
[1] شرح ديوان كثير:164.
[2] ينظر: العمدة: 2/ 230.
[3] شرح ديوان كثير: 39.
[4] الموشح: 228.
[5] شرح ديوان كثير:218.
[1] ديوان زهير:139.

ومن النص يبدو أن الشاعر لم يراع المنزلة الاجتماعية للممدوح بكونه ملكاً وهذا يشكل عاملاً مؤثراً في الاستجابة والتلقي. ولكن ربما قصد الشاعر ذلك وتعمده لأنه على دراية واسعة بالشعر.

ومثل هذا تماماً حدث للأحوص (ت105هـ) في مدح احد الملوك فقال:[3]

وأراك تفعل ما تقول وبعضهمُ مذِق الحديث يقولُ ما لايفعلُ

فلم ينل اعجاب المتذوقين، وقد أفصحوا عن عدم الاعجاب بطريقة لفظية إذ قالوا: إن الملوك لاتمدح بما يلزمها فعلهُ كما تُمدح العامة، وانما تمدح بالاغراق والتفضل بما لايتسع غيرهم لبذله[4]. فالشاعر لم يراع منزلة ممدوحه الاجتماعية بوصفها عاملاً مؤثراً في استجابة التلقي. فجاء بصفات مدح لا تليق به. فللملك صفات مدح تختلف عن صفات المدح للعامة.

وعندما مدح الفرزدق (ت110هـ) وكيع بن سويد بقصيدته التي منها[5]:

اذا التفت الأبطال أبصرتَ وجههُ مضيئاً واعناق الكُماة خضوعُ

فلم يُستجدوا منه ذلك، وعبّروا عن عدم استجادتهم بطريقة لفظية فقالوا: "أساء القسمة واخطأ الترتيب وانما يجب أن يقول أبصرته ساميا واعناق الملوك خضوع، أو أبصرته مضيئاً واعناق الكماة كاسفة، لان مضيئاً لا تتواءم مع الخضوع"[6].

ولايخفى أن صورة الفرزدق هنا صورة راقية لكن المتذوقين لم يستجيدوا ذلك لاختلاف الذائقة اللغوية والنقدية.

وذكر أن الفرزدق لمّا هرب من زياد حين استعدى عليه بنو نهشل في هجائه إياهم أتى سعيد بن العاص –وهو على المدينة أيام معاوية- فاستجاره فأجاره، وعنده الحطيأة وكعب بن جعيل التغلبي فأنشده الفرزدق مدحته إياه التي يقول فيها[1]:

ترى الغُرَّ الجحاجحَ من قريشٍ إذا ما الأمَرُ في الحدثان عالاَ

بَني عمّ النّبي ورهطَ عمروٍ و عثمانَ الأُلى غَلَبوا فعالا

قياماً ينظرونَ الى سعيدٍ كأنَّهُمُ يرَونَ به هِلالا

فقد نالت هذه المدحة اعجاب المتذوق (الحطيأة) وقد أفصح عن هذا الاعجاب بطريقة لفظية فقال: هذا والله الشعر لا ما تعلّل به اليوم أيها الامير، فقال له كعب فضله على نفسك ولا تفضله على غيرك. قال: بل والله أفضله على نفسي وعلى غيري. ثم قال له الحطيأة: ياغلام لئن بقيت لتبرزن علينا...[2]

فقد استطاع الشاعر ان يختار الالفاظ والمعاني التي ترضي الممدوح وقد استحسنها المتذوق. وما اختيار هذه الصفات والمعاني التي راعى الشاعر من خلالها مكانة ممدوحه

---

[2] ينظر: الشعر والشعراء: 71، والعمدة: 2/ 130.
[3] شعر الاحوص:160.
[4] ينظر: العمدة: 2/ 130، واستقبال النص عند العرب، محمد رضا مبارك: 265.
[5] ديوان الفرزدق:160.
[6] الموازنة: 1/45-46.
[1] ديوان الفرزدق: 615.
[2] ينظر: طبقات فحول الشعراء: 2/ 321-322.

الاجتماعية الاّ دليل على ذكاء الشاعر وطول باعه في المدح الجيد والناتج عن مكانته الثقافية بوصفها عاملاً مؤثراً في استجابة تلقي المديح، أما الخلاف الذي شب بينه وبين كعب فيعود الى اختلاف الذائقة اللغوية والنقدية بينهما. وربما يكون للحسد أثر في ذلك.

وقال اعرابي للأصمعي "أفلا تنشدني من بعض شعر أهل الحضر حتى أقيسه على شعر أصحابنا فأنشد شعراً لرجل امتدح به مسلمة بن عبد الملك:

أمسلم أنت البحر إنْ جاد وارد وليث إذا ما الحرب طار عقابها
وانت كسيف الهندواني إنْ غدت حوادث من حرب يعبّ عبابها
وما خلفت اكرومة في امرئ له ولاغاية الاّ اليك مآبها
كأنك ديّان عليّ موكل بها وعلى كفيّك يجري حسابها
اليك وصلنا العيس اذ لم نجد لها أخاثقة يرجى لديه ثوابها"[1]

فلم يستحسن الاعرابي – بصفته متذوقاً- هذا المدح وقد عبّر عن عدم استحسانه له بطريقة لفظية وكذلك بالتصرف فقد "ابتسم وهز رأسه فظننا أن ذلك لإستحسانه الشعر ثم قال: يا أصمعي هذا شعر مهلهل ، خلق النسج، خطؤه اكثر من صوابه يغطي عيوبه حسن الروي ورواية المنشد. يشبهون الملك اذا امتدح بالأسد. والأسد أبخر شتيم المنظر، وربما طرده شرذمة من امائنا..."[2].

ولا أدل من ذلك على مكانة المتذوق الثقافية التي رفض بها الصفات التي وصف فيها الشاعر ممدوحه، تلك الصفات التي لم تنل اعجاب اغلب ملوك بني أمية ومنهم عبد الملك لأنها صفات غير اسلامية ولاتدل على عظم مكانة ومنزلة الممدوح كخليفة الله في الأرض. ثم تنبّه المتذوق على شيء آخر هو أن العيب في هذا المدح غطّى عليه حسن الروي ورواية المنشد، وما جاء ذلك الاّ من أثر المكانة الثقافية التي يتمتع بها المتذوق.

وقد عابوا على ذي الرّمة قوله[3]:

ألا يا اسلمي يا دارمَيَّ على البِلى وما زال منهلاً بجرعائك القطرُ

فلم يستجد المتذوقون هذا المدح وقد عبّروا عن عدم استجادتهم بقولهم:

اذا لم يزل القطر عليها عفى آثارها ودرس معالمها.

ويستشف من ذلك ان المتذوقين لم يستجيبوا لهذا الشعر وكان على الشاعر الاحتراز في هذا وأن يقول كما قال طرفة "غيرَ مُفْسِدِها" حتى يتجاوز هذا ويتخلص من الطعن[4].

ولما قدم ذو الرّمة من الكوفة لقيه الكميت فقال له إنيّ قد عارضتك بقصيدتك فقال: أي القصائد؟ قال قولك[1]:

ما بال عينك منها الدمع ينسكبُ كأنه من كلى مفريةٍ سربُ

---

(1) فحولة الشعراء: 79-80.
(2) م.ن: 80.
(3) ديوان ذي الرّمة:206.
(4) ينظر: سر الفصاحة: 265-266، وديوان طرفة:146.
(1) ديوان ذي الرّمة:1.

وأنشده القصيدة التي قالها وهي[2]:

هل أنت عن مطلب الايفاع منقلبُ أم هل يُحسن من ذي الشيبة اللّعب

فاستحسن منه ذو الرّمة هذا الشعر وقد كشف عن استحسانه بطريقة لفظية فقال: "ما أحسن ما قلت"[3].

ولما سمع أبو عمرو بن العلاء مدحة جرير في عبد الملك، ومنها قوله[4]:

الستم خيرَ مَن ركب المطايا وأندى العالمينَ بطونَ راحِ

قال المتذوق مستحسناً هذا المدح: "بيت جرير أمدح لانه أسير ما قيل في المدح وأسهله"[5].

وقد دلّ ذلك على أن الشاعر أضفى صفات مدح راعى فيها منزلة ممدوحه الاجتماعية التي عكستها مكانته الثقافية، بوصفها عاملاً مؤثراً في استجابة تلقي المديح. فكشف عنها المتذوق بفضل مكانته الثقافية أيضاً على أنها من عوامل التأثير في الاستجابة والتلقي.

بعد الوقوف على استجابة وتلقي المتذوق للمديح الاموي، تبين لنا أن المتذوق كان يعرب عن استجابته لذلك المديح بطرائق لفظية منها؛ افصاح المتذوق (الحطيأة) عن اعجابه لمدحة الفرزدق في سعيد بن العاص: (هذا والله الشعر لا ما تُعلّل به اليوم أيها الأمير). وقول ابي عمرو بن العلاء: (بيت جرير اسير ما قيل في المدح واسهلهُ)، عند سماعه مدحة جرير في عبد الملك.

وقد أعرب المتذوق أيضاً عن عدم استجادته لبعض المديح بطريقة لفظية أيضاً من مثل عدم استحسان المتذوقين لقول الأحوص في مدح الملوك: (إنّ الملوك لا تُمدح بما يلزمها فعله كما تُمدح العامة، وانما تمدح بالاغراق والتفضيل)، ومثل اعراب الفتى المتذوق عن عدم استحسانه لمدحة الأخطل في سماك (أردتَ أن تمدح سماكاً فهجوته).

وقد اعرب المتذوق عن عدم استجادته للمديح بالتصرف حينا، فقد ابتسم اعرابي وهزّ رأسه معرباً عن عدم استحسانه لشعر رجل مدح به مسلمة بن عبد الملك.

ومن متابعة النصوص المدحية ومواقف المتذوقين منها، لم نلتقط إلا طريقة استجادة مادية واحدة للمتذوق يُعربُ بها عن استحسانه للمديح. فقد تصرف أسير بوصفه متذوقاً بشطر المال الذي أمر له به مصعب بن الزبير بعد أن أطلق سراحه، لعبيد الله ابن قيس الرّقيات لقوله: (إنما مصعب...)

وهذا دليل واضح لاعرابه عن استجادة هذا الشعر بطريقة ماديّة. وقد تبين لنا أيضاً أن ثمة معوقات حالت دون استجابة المتذوق لشعر المديح الأموي. فكان من بينها اختلاف الذائقة اللّغوية والنقدية بين المادح والمتذوق، كما هو بيّن في عدم استجادة المتذوق بيت الفرزدق في مدح وكيع بن سويد، وقد يرى المتذوق غير ما يراه الشاعر من حيث إنه أساء

---

[2] الروضة المختارة (القصائد الهاشميات): 25.

[3] ينظر: الموشح: 173، وتاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري، نجيب البهبيتي: 293.

[4] ديوان جرير:77.

[5] حلية المحاضرة: 1/ 342، وينظر: العمدة: 2/ 139.

القسمة وأخطأ الترتيب وكان يجب عليه القول؛ أبصرته سامياً واعناق الملوك خضوع أو ابصرتهُ مضيئاً واعناق الكماة كاسفة. ومردّ ذلك التباين في وجهتي نظر الشاعر والمتذوق اختلاف الذائقة اللغوية والنقدية لكل منهما.

ومن المعوقات الاخرى التي وقفت عائقاً في استجابة التلقي للمتذوق المواضع غير المناسبة فلم ينل بيت الأحوص إعجاب المتذوقين لورود لفظة (مذق) وهي من الفاظ الذم جاء بها في موضع المدح مما جعلها عائقاً في استجابة المتذوق.

وقد كشفت لنا النصوص التي تم استعراضها عن عوامل كانت وراء استجابة وتلقي المتذوق للمديح المموّه فكان منها المكانة الثقافية للمتذوق والمادح، فمن ذلك مثلا تنبّه الطرماح للمديح المموّه الذي أجازهُ كثيّر على عبد الملك، معلقاً على البيت أن الشاعر موّه على ممدوحه في الظاهر وعنى في الباطن أنه السابع من الخلفاء في حين جاز هذا الشعر على عبد الملك فظنه مدحاً وهذا يكشف عن المكانة الثقافية للمادح والمتذوق بوصفها عاملاً مؤثراً في الاستجابة والتلقي. ومنها أيضاً عدم استحسان كثيّر –بوصفه متذوقاً- شعر الأحوص في الأمويين، وان عدم الاستحسان هذا ناتج عن علمه الواسع بالشعر وسعة باعه وذكائه المفرط ومكانته الثقافية بوصفها عاملاً مؤثراً في استجابة المتذوق وتلقيه لغرض المديح. ولم تكشف لنا النصوص عن عوامل أخرى مؤثرة في استجابة التلقي.

أما فيما يخص تجليات تغير الاستجابة في التلقي للمديح فقد كشفت لنا النصوص عن تجليات تغير صفات مدحية، فلم يستحسن الاعرابي بوصفه متذوقاً الشعر الذي رواه الأصمعي في مدح مسلمة، وذكر أن خطأ الشاعر اكثر من صوابه لكن حسن الروي ورواية المنشد غطّت على عيوب الشعر ثم يضيف قائلاً يشبهون الملك بالأسد والأسد أبخر شتيم المنظر وربما طرده شرذمة من الإماء، وإن مثل هذه الصفات كتشبيه الملك بالاسد، لا تدل على عظم مكانة الممدوح ومنزلته كخليفة لله في الارض. ومما يدعم ما ذهب اليه المتذوق رفض ملوك بني أمية تلك الصفات فقد وجّه عبد الملك الشعراء حين قال لهم: تشبهوني بالأسد مرة وبالصقر أخرى وبالباز ثالثة الا قلتم كما قال أيمن بن خريم في بني هاشم:

نهاركم مكابدة وصومُ وليلكم صلاة واقتراءُ

تلقي المتذوق لغرض المديح العباسي

عرفنا ان العصر العباسي كان زاخراً بالعطاء الفكري والثقافي في جميع مستوياته. فقد كانت المنافذ متعددة الثقافة للنقاد والشعراء، وقد أصبح اكثر تخصصا حتى صار من الشعراء من له باع في اصدار الاحكام النقدية. وسنتبين من خلال المرويات والاخبار كيفية تلقي المتذوق للمدحة العباسية، موضحين كيفية تعبيرهم عن الاستجابة لهذه المدحة بالطرائق اللفظية وغيرها قبولاً أو رفضاً، واهم العوامل المؤثرة وتجليات التغير وكذلك المعوقات التي تحول دون الاستجابة لتلقي المديح.

يروى ابن المعتز أن أبا دلامة (ت161هـ) أنشد أبا جعفر المنصور مديحاً فاستحسنهُ وقد جعل مَنْ عندَهُ مِنْ ندمائه يستحسنه أيضاً، ولكن الندماء أفرطوا في الاستحسان. وقد تنبه الشاعر على ذلك، فأشار للمنصور بأن الندماء لايعرفون الجيد من الرديء من الشعر، انما جاء استحسانهم هذا من استحسان الممدوح للشعر فخاطب الشاعر المنصور قائلاً: إنْ شئت اثبت لك ذلك. فقال؛ افعل، فأنشده[1]:

أنعتُ مهراً كاملاً في قَدْره مُركباً عجانُه[*] في ظهره

فلما فرغ منها، استحسنوها فقال أبو دلامة: ألم اخبرك يا أمير؟ فقال المنصور: صدق والله أبو دلامة كيف يكون عجانه في ظهره[2]؟

وقيل اختصم أبو دلامة مع رجل الى (عافية) قاضي أبي جعفر المنصور فادعى "الرجل عليه فقال له القاضي ما تقول؟ قال اسمع أولاً وأنشأ يقول[3]:

لقد خاصَمَتْني دُهاة الرّجال و خاصمْتها سنّة وافيهْ
فما أدحض اللهُ لي حجّةً ولاخيب اللهُ لي قافيهْ
فمن خِفتُ من جوره في القضاء فلستُ أخافك ياعافيهْ

فغضب وقال: لأشكونك الى أمير المؤمنين. قال أبو دلامة: وَلِمَ تشكوني؟ قال: لأنك هجوتني . قال: اذن والله يعزلك. قال عافية: وَلِمَ يعزلني؟ قال: لأنك لاتعرف المدح من الهجاء"[1].

وهذا النص يكشف عن مكانة الشاعر الثقافية التي فاقت مكانة الممدوح بوصفها عاملاً مؤثراً في تلقي المديح وذلك بيّن من خلال عدم الاستجابة لهذا المدح، لأنه لَمْ يفرّق بين المدحة والهجاء. وهذا موضع إشكال بين المدح والهجاء مما يُعد عائقاً في الاستجابة والتلقي. إلا أن هذا الاشكال يمكن أن يتبدد حين نفهم أن الشاعر أراد أن يقول لممدوحه إنك عادل فلا أخافك، في حين فهمها المتذوق على أنها استخفاف بالممدوح.

وقد استحسن العتبي للسيد الحميري قصيدته التي منها[2]:

---

[1] ابو دلامة الاسدي الرجل الشاعر والناقد الساخر: 79.
[*] عجانه=العنق تحت الذقن أو القضيب الممتد الى الدبر.
[2] ينظر: طبقات الشعراء: 59.
[3] ابو دلامة الاسدي الرجل الشاعر والناقد الساخر: 79.
[1] طبقات الشعراء: 58.
[2] ديوان السيد الحميري: 295 وقد ورد فيه (اشهد بالله) بدلاً من (أقسم بالله).

أقسمُ باللــه وآلائــه والمرءُ عما قــال مسؤولُ
إنّ علي بن أبي طالـب على التقى والبّر مجبــولُ

وقد أفصح المتذوق (العتبي) عن هذا الاستحسان لمديح السيد الحميري بطريقة لفظية قائلاً: "أحسن والله، هذا هو الشعر الذي يهجم على القلب بلا حجاب"[3]وقد جاء استحسان العتبي له لأن الشاعر لم يبالغ في شعره بل أضفى صفات مدح واقعية كانت في الممدوح حقاً، وقد تمكن الشاعر من اعطاء الممدوح حقّه بفضل درايته ومكانته الثقافية التي عرف من خلالها كيف يراعي منزلته الاجتماعية.

وأنشد مروان بن أبي حفصة عمارة بن عقيل (ت239هـ) بيته في المأمون[4]:

أضحى إمامُ الهدى المأمونُ مشتغِلاً بالدين والنـاس بالدنيـا مشاغيلُ

فقال له: "ما زدته على أن وصفته بصفة عجوز في يدها مسباحُها؛ فهلا قُلت كما قال جدي في عمر بن عبد العزيز:

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبهُ ولا عرض الدنيا عن الدين شاغلُه"[1]

فعمارة لم يستحسن هذا الشعر، وقد أفصح عن عدم استحسانه بقولـه: (مازدتـه على أن وصفته بصفة عجوز في يدها مسباحها..)

فأراد المتذوق (عمارة) أن الممدوح فوق هذا المستوى. وبعبارة أخرى ان الشاعر لَمْ يراع منزلته الاجتماعية على الرغم من الصفات الدينية التي أطلقها الشاعر لممدوحه وهي بيّنة جليّة، واخيراً فإن عدم مراعاة الممدوح يُعدّ عائقاً مؤثراً في استجابة وتلقي المديح.

وانشد مروان قصيدته التي يقول فيها[2]:

بنـو مطر يـوم اللقاء كأنّهم أسودُ لها في غيل خفّان أشْبلُ
هم يمنعون الجارَ حتّى كانّما لجارهم بين السماكين منـزلُ
بهاليل في الاسلام سادوا ولم يكن كـأولهـم في الجاهليـة أولُ
هم القوم إن قالوا أصابوا،وان دعوا أجابوا، وإن أُعطوا أطابوا واجزلوا
ولا يستطيع الفاعلـون فعالهُم وإن أحسنـوا في النائبات واجملوا

فقد استحسن ابو يوسف القاضي هذه المدحة وكشف عن استحسانه بطريقة لفظية بقوله: لمن هذا الشعر أصلحك الله فما سمعت أحسن منه؟ –وكان يسأل يحيي بن خالد- فقال يحيى : يقوله ابن ابي حفصة في أبي هذا الفتى، وأومأ الى شرحبيل بن معن بن زائدة، فكان قوله أسر اليّ من جليل الفوائد[3]، وهذا يَنِمُ عن مكانة الشاعر الثقافية التي بوساطتها تمكن من أن يجيء بصفات ومعاني مدح تليق بمنزلة الممدوح الاجتماعية، بوصفها عاملاً مؤثراً في استجابة تلقي المديح، وتدفع المتذوق الى السؤال عن قائله.

---

(3) ينظر: الاغاني: 7/ 10-11 . وذكرت الابيات في مفاتيح الجنان، عباس القميّ: 383.
(4) مروان بن ابي حفصة وشعره:61.
(1) الموازنة: 63/1 ، وينظر: كتاب الصناعتين: 1/ 125.
(2) مروان بن ابي حفصة وشعره.203.
(3) ينظر: العمدة: 2/ 142، وكتاب الصناعتين: 109.

وقيل لشرحبيل انشدني اجود ما قاله ابن أبي حفصة في أبيك فأنشده[4]:

نعمَ المناخُ لراغبٍ ولراهبِ مما تصيبُ جوانح الأزمانِ
معنُ بن زائدةَ الذي زيدتْ به شرقاً على شرف بنو شيبانِ
إن عُدَّ أيامُ اللقاء فَإنّما يوماه يوم ندى ويوم طعانِ
يكسو الأسرة والمنابرَ بهجةً و يزينُها بجهارة وبيانِ
تمضي اسنتّه ويُسفر وجهُهُ في الحرب عندَ تغيّر الألوانِ
نفسي فدَاك أبا الوليد إذا بدا رَهَجُ السنابك والرماح دوانِ[1]

وهذا يكشف عن استحسان شرحبيل مدحة مروان في معن بن زائدة. ولكن يحيى (المتذوق الآخر) قال : أنت لاتدري جيد ما مدح به أبوك، أجود من هذا قوله[2]:

تشابه يوماه علينا فأشكلا فلا نحن ندري أيّ يوميه أفضل
أيومُ نداه الغمر،أم يومُ بأسِهِ؟ وما منهما الاّ أغرّ، محجّلُ[3]

وهذا يعني أن يحيى استحسن هذه المدحة وفضلها على غيرها في أبي شرحبيل (معن) وأفصح عن هذا الاستحسان بقوله: (أنت لاتدري جيد ما مدح به ابوك، اجود من هذا قوله: تشابه يوماه...)

وذكر أن الشعراء اجتمعوا بباب المعتصم فبعث اليهم، مَنْ كان منكم يحسن أن يقول كقول منصور النميري في الرشيد[4]:

إنّ المكارمَ والمعروف أوديةُ أحلك الله منها حيث تجتمعُ
فليدخل[5].

فقد استحسن المعتصم –بصفته متذوقاً- شعر منصور النميري وأعرب عن استحسانه بطريقة لفظية قائلاً: "من كان منكم يحسن أن يقول كقول منصور النميري في الرشيد: إنّ المكارم... فليدخل".

وقد ذكر ابن المعتز أن الشاعر ربيعة الرقي (ت198 هـ) مدح العباس ابن محمد بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب فقال[1]:

لو قيل للعباس يا ابن محمد قل لا وأنت مخلّد ما قالها
ماإن اعدّ من المكارم خصلة الاّ وجدتك عمها أو خالها
واذا الملوك تسايروا في بلدة كانوا كواكبها وانت هلالها
إنّ المكارم لم تزل معقولة حتى حللت براحتيك عقالها

وقد اغتاظ الرقي لأنه بعث اليه بأقل مما كان يؤمل، فكتب اليه رقعة وطلب من حاجبه أن يضعها في أدواته ففعل الحاجب، وقد كتب في الرقعة[2]:

---

(4) مروان بن ابي حفصة: 69.
(1) ينظر: العمدة: 2/ 142.
(2) مروان بن ابي حفصة وشعره: 198.
(3) ينظر: العمدة: 2/ 142.
(4) م.ن : 3/142-143.
(5) ينظر: م.ن : 2/ 139، وزهر الاداب: 3/66.
(1) شعر: ربيعة الرقي:87.

مدحتك مدحة السّيف المحلّى لتجري في الكرام كما جريتُ
فهبها مدحة ذهبت ضياعاً كذبت عليك فيها واعتديتُ

فلما بلغه هذا شكاه الى الرشيد، فأمر بإحضاره، وسمع منه القصة والمدحة التي انشدها فيه، وقال يا امير كيف تراها؟ قال الرشيد : ما مُدِحَ الخلفاء بمثلها حسناً، وقد أمر الرشيد له بثلاثين الف درهم وجعله نديما له، وخلع عليه فأعطاه حلتين[3]. ومن خلال ذلك يتبين أن الرشيد قد استحسن أبيات الرقي في مدح العباس، وعبّر عن استحسانه بالقول بطريقة معنوية فقال: ما مدح الخلفاء بمثلها حسنا، وبطريقة مادية، فأعطاه ثلاثين الف درهم ثم خلع عليه حلتين، وبالتصرف؛ فأدناه وجعله نديما له. ومرد ذلك يعود الى امرين: اما ان تكون المكانة الثقافية للمتذوق اكبر من ثقافة الممدوح، وإما أن يكون الممدوح لايرغب المديح الكاذب من الشعراء الذين لا هم لهم الا الحصول على الدراهم ودليل ذلك أن الشاعر مدحه ثم هجاه فهو غير صادق في مدحه. وهذا أحد العوامل المؤثرة في استجابة تلقي المديح.

وذكر أن ابن الاعرابي قال: أمدح بيت قاله مولد قول أبي نواس[1]:

تغطّيتُ من دهري بظل جناحه فعيني ترى دهري وليس يراني
فلو تسأل الاحداث عني ما دَرَتْ واين مكاني ما عرفت مكاني[2]

فقد استجاد ابن الاعرابي هذا المدح، وعبّر عن استجابته له بطريقة لفظية فقال: (أمدح بيت قاله مولد قول أبي نواس...)

وهو بهذا خرج عن المعقول وبالغ بالقول في هذه المدحة.

كما استحسن ابن وهب –بوصفه متذوقا- بيتي ابي نواس السابقين بقوله "ومما اسرف فيه الشاعر حتى اخرجه الى الكذب والمحال وهو مع ذلك مستحسن"[3]. وموقف ابن وهب يدل على أمرين: الأول يدل على ابتعاد الشاعر عن الحقيقة من الناحيتين العقلية والواقعية، أما الثانية فيدل على حس التذوق المرهف واهتمامه بالمجاز وأثره الواضح في جمال الشعر وذلك بادٍ في قوله "وهو مع ذلك مستحسن".

ولما أنشد أبو نواس مدحته في الخصيب في مجلس الرشيد وبلغ قوله[4]:

فإن يكُ باقي إفك فرعون فيكم فإنّ عَصا موسى بكفّ خَصيبِ

قال الرشيد: الاّ قلت: فباقي عصا موسى بكفّ خصيب ، فقال له: هذا أحسن ولم يقع لي[5]. ومن خلال هذا الشعر يتبين أن المتذوق له دراية بالمدح فقد أشار الى المادح بأن يقول "فباقي عصا موسى"، فعبّر عن عدم استجادته بما ذكر في أعلاه، كما يكشف لنا النص أن للمتذوق مكانة ثقافية فاقت مكانة المادح، بدليل تسليمه بوجهة نظر المتذوق (الرشيد)

---

(2) م.ن:67.
(3) ينظر: طبقات الشعراء: 157-158.
(1) ديوان ابي نواس: 214.
(2) ينظر: حلية المحاضرة: 1/ 342، والعمدة: 140/2.
(3) البرهان في وجوه البيان ابن وهب: 185-186.
(4) ديوان ابي نواس:484.
(5) ينظر: الموشح: 426.

بقوله: "هذا أحسن ولم يقع لي" وهذه المكانة الثقافية تُعدّ عاملاً مؤثراً في عملية التلقي والاستجابة.

ويذكر أن عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع قال: ما مدحنا شاعر بشعر أحب الينا من قول أبي نواس[1]:

ساد الملوك ثلاثة ما منهمُ إنْ خُصّلوا الاّ أعز قَرِيعُ
ساد الربيع وساد فضل بَعدهُ وعلت بعباس الكريم فروعُ
عباس عباسُ اذا احتدم الوغى والفضل فضل والربيعُ ربيعُ[2]

فاستحسن عبد الله قول ابي نواس في آبائه. وقد عبّر عن ذلك بطريقة لفظية، فقال: (ما مدحنا شاعر أحب الينا من قول أبي نواس...).

والملاحظ أن أبا نواس عبّر في البيت الثالث عن مدح فريد امتزج بتورية لطيفة بأن أرجع الاسماء الى أصولها فـ(عباس) اسم و(عباس) هو الأسد، والفضل اسم وهو كذلك مصدر هذا الاسم ومعناه كل ما يزاد على مقداره، والربيع هو اسم علم وكذلك الربيع الثانية تدل على الخير، فاشتق الشاعر بفطنته مدحته من معاني اسماء الممدوحين.

وذكر ان الرشيد قال: يعجبني مثل قول مسلم في أبيك واخيك الذي امتدحهما به حيث قال[3]:

أجدّكِ هل تدرين أن رُبّ ليلةٍ كأنّ دجاها من قرونك ينشُر
صبرت لها حتى تجلّت بغرّةٍ كغرّة يحيى حينَ يذكرُ جعفرُ

فاستحسن الرشيد بصفته متذوقاً هذا القول وعبّر عن هذا الاستحسان بطريقة لفظية فقال: أفرأيت ما ألطف ما جعلها معدنا لكمال الصفات ومحاسنها[4].

وقد أنشد ابوالعتاهية مدحته في المهدي يوم تولى الخلافة ، ومنها[5]:

أتته الخلافة منقادة اليه تجرر أذيالها
ولم تكُ تصلح إلا له ولم يك يصلح إلاّ لها
ولورامها أحدُ غيرهُ لزلزلت الارض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلوب لما قبل الله أعمالها

فكان بشار يسمع هذا المدح ويستجيده، وقد أفصح عن استحسانه بطريقة لفظية قائلاً: ويَحْكَمُ انظروا ألَمْ يَطِر الخليفة عن أعواده؟ وبالتصرف فقد اهتزّ طرباً لها[1]. فقد تمكن المادح من اضفاء الصفات التي ترضي الخليفة وتليق بمقامه، فقد راعى منزلة ممدوحه الاجتماعية فجاء بالفاظ ومعان تتناسب وممدوحه. وهي من المواضع المناسبة للمديح، بوصفها تجليات تغير في الصفات المدحية. فنجد أن الشاعر قد شخّصَ الخلافة

---

(1) ديوان ابي نواس: 96.
(2) ينظر: زهر الآداب: 2/ 583.
(3) شرح ديوان صريع الغواني:316.
(4) ينظر: فحولة الشعراء: 75.
(5) ابو العتاهية أشعاره وأخباره: 612.
(1) ينظر: امراء الشعر العربي ، انيس المقدسي: 151.

فجعلها كالحسناء المدللة التي تفتن الناس اعجاباً وتأبى عليهم فتصدّ معرضة، في حين أنها تأتي الى الخليفة المهدي طائعة في دلال وجمال تجرر أذيالها تيهاً وخيلاءً.

وقد أنشد علي بن جبلة حميد الطوسي قصيدته المدحية التي سرّ بها ومنها:[2]

دمن الدار دثور لـيس فيهن مجيـرُ
بليت منها المغانـي مثل مـا تبلى السطّورُ
قسم البين عليهـ ن رواح و بكــور
وليــال ساجيات نـام عنهـن السميـرُ
فطوت أحبيةُ الحي كمـا يطوى الحبيـرُ
[...]
بنواجٍ حـزّ منهـنّ النجـاء المستطيـرُ
لحميدٍ وحميــدُ قمـر الارض المنير

فلما بلغ هذا المدح أبا العباس استحسنه كثيراً وقد كشف عن استحسانه له بقولـه: مـا سمعت أحسن من هذا التخلص، من النسيب الى المدح مع جودة هذه المعاني[3].

ولما أنشد ابو تمام بيته المشهور، الذي اختلف الناس فيه، بين مستحسن ومستهجن له وهو:[1]

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه بكفيّك ما ماريت في أنه بُـرْد

لم يستحسن ابن عمّار – بصفته متذوقاً- هذا البيت معبّراً عن عدم استحسـانه قـائلاً: هذا الذي اضحك الناس مذ سمعوه الى هذا الوقت، وان لفظة (بكيفك) فـي غايـة السـخف[2]. وقد جاء عدم الاستحسان لهذا المدح لأن المـادح أتـى بأوصـاف غير مألوفـة فوصـف الحلم بالرقة. وذكر ابو هلال: ومن الغلط قول أبـي تمـام... ومـا وصـف احد من اهل الجاهليـة والاسلام (الحلم) بالرقة، انما بالرجحان[3] وبهذا خالف من سبقه. ولكن النقـاد المعاصـرين رأوا أنهُ أقام علاقات جديدة بين الالفاظ وابتدع سياقاً لغويـاً مملـوءاً بالايحـاءات الجديـدة[4]، وأتى بما يخالف المألوف وبما ليس معتاداً كتشبيه الخال بالبرق[5]. وهذا يكشف لنـا عن أن الشـاعر اسـتخدم سـياقاً لغويـاً جديداً عكسـه تطـور البيئـة والـزمن، فـأدى الـى تطـور عقليـة الشاعر، وهذا عامل مؤثر فـي تلقـي المدح. ثمـة تجليـات تغير اذاً فـي صـفات المدح التـي اضفاها ابو تمام على ممدوحه وهي صفات جديدة لـم يسبق اليهـا اذ وجد صـفات الرجحـان والزرانةّ وما شاكل ذلك ثقيلـة علـى الممـدوح المتـرف الـذي صـقلته الحضـارة الجديـدة ممـا

---

[2] شعر علي بن جبلة: 120.
[3] ينظر: طبقات الشعراء: 179-181.
[1] ديوان ابي تمام:121.
[2] ينظر: الوساطة: 69/1، والموازنة: 2/ 128 وتاريخ النقد الادبي عند العرب- من العصر الجاهلي الى القرن الرابع الهجري: 165.
[3] ينظر: كتاب الصناعتين:1/ 125.
[4] ينظر: النقد اللغوي: 14، والنقد الادبي، سهير القلماوي:67، وأبو العلاء المعري ناقداً: 200، والمجاز وأثره في الدرس اللغوي، د. محمد بدري عبد الجليل: 140.
[5] ينظر: نقد الشعر: 74، والنقد الجمالي: 127.

ادى الى اختلاف خطاب ابي تمام الشعري على وفق ذلك فأدرك بحسّه المرهف أهمية اختلاف الذائقة الأدبية للممدوحين باختلاف النظام الحضاري.

وقال أبو تمام:[1]

بيمن أبي اسحق طالت يد العلا وقامت قناة الدين واشتد كاهله
هو البحر من أي النواحي أتيته فلجّته المعروف و الجود ساحله
تَعوّد بسطَ الكفّ حتى لو أنه دعاها لقبضٍ لَم تُطعْهُ أناملُهْ
ولو لمْ يكن في كفّه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائلـــه

والناس هنا هم المتذوقون وقد استحسنوه. وعُبّر عن استحسانهم عن ذلك بالقول: "ومن الغلو المستفيض الذين قبله الناس واستحسنوه وَرَووهُ بكل لسان قول أبي تمام في المعتصم"[2] وربما لا يخفى على المتلقي أن المادح قد بالغ وغالى وافرط في هذا المديح مما يُعَدّ عاملاً مؤثراً في الاستجابة والتلقي للمديح لكنه مع هذا تمكن من اختيار الالفاظ الموافقة للمعاني والمناسبة لمنزلة الممدوح الاجتماعية.

وأنشد أبو تمام قوله[3]:

لمست بكفي كفّه أبتغي الغنى ولم أدر أن الجود من كفّه يُعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعداني فأتلفت ماعندي

فاستجاد هذه الأبيات المتذوق أبو عمرو بن العلاء (ت254هـ) وعبر عن استجادته بقوله لما سأله أحد الرواة عن أمدح بيت فقال: الذي يقول: لمست بكفي كفّه[4]...

ولما سمع اسحق بن ابراهيم (235هـ) أبا تمام ينشد أحمد بن داود قوله[5]:

المجد لا يرضى بأن ترضى بأن يرضى المؤمّل منك إلاّ بالرضا

لم يستحسن منه هذا المدح وقد أفصح عن عدم استحسانه له بقوله: يا هذا لقد شققت على نفسك، والكلام اذا كان بهذه المثابة كان مذموما[6]. وقيل: إن الشعر أسهل من هذا[1]. وهذا يدل على أن ذائقة أبي تمام غير ذائقة اسحق اللغوية مما يُشكل عائقاً في استجابة تلقي المدح. كما أن سياق القصيدة غير السياق الذي تعوده الناس وهذا يُعدّ تجليا من تجليات تغير السياق والالفاظ وقد أظهر التعجرف وتشبه بالبدوي فتكرار حرف الضاد في الكلمات سلبه الانسياب السهل، فصار ثقيلاً على اللسان فجاء بالفاظ لاتوافق عصر المتذوق. وتكرار هذه الكلمات التي حملت حرف الضاد يُعدّ تغيراً في سياق الالفاظ مما يُعّد عائقاً في الاستجابة والتلقي.

---

(1) ديوان ابي تمام:38.
(2) الموازنة: 74/1، وينظر: ابو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، د. بدوي طبانة: 152.
(3) ديوان ابي تمام: لم أجده في الديوان ونسب لابن الخياط.
(4) ينظر: الأغاني: 26/3،وكتاب الصناعتين:206/1،وتاري الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري:343
(5) ديوان ابي تمام: 187.
(6) ينظر: كتاب الصناعتين:52/1.
(1) ينظر: الوساطة:64/1-65 ، والموشح: 87.

وعاب ابو العميثل (ت240هـ) قول أبي تمام في مدحه أحمد بن أبي طاهر[2] (ت280هـ):

هُنّ عوادي يوسف وصواحبه [فعزماً فقدماً أدرك الثأر طالبه]

واسترذل هذا الابتداء واسقط القصيدة كلها، لأن هذا الابتداء فيه خرم ويجب أن يكون الابتداء حسنا لأنه أول ما يقرع الاسماع وفيه تتجلى دلائل البيان ويستدل منه على باقي القصيدة[3]. ويعد هذا الافتتاح من المواضع غير المناسبة لذا يُعدّ عائقاً من معوقات الاستجابة.

وقيل أن أبا تمام عاتب أبا سعيد الضرير وأبا العميثل وسألهما الاستتمام والنظر فيها ولولا أنهما مرّا ببيتين استحسناهما فعرضا القصيدة على عبد الله بن طاهر واخذا الجائزة له لكان قد افتضح وخابت سفرته. والبيتان هما:

وركب كأطراف الأسنّة عرسّوا على مثلها والليلُ تسطو غياهبُهْ

لأمر عليهم أنْ تتم صُدُورُهُ وليس عليهم أن تتِمّ عواقبُهْ

ولما أوصلا الجائزة له قالوا له لِمَ لا تقول ما يفهم؟ فقال: ولِمَ لاتفهمون ما يقال؟[4].

وقد احتّج الكندي (255هـ) على قول ابي تمام في مدحه المعتصم:[1]

إقدام عَمْرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس[2]

فلم يستحسن الكندي هذا المديح وكان حاضراً فعبّر عن عدم استحسانه بقوله: الأمير فوق ما وصفت[3].

وقيل إنه قال: تُشَبّه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب وقيل إنه قال: ما صنعت شيئاً، شبهت ابن أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين بصعاليك العرب! ومن هؤلاء الذين ذكرتهم؟ وما قدرهم[4]؟ فأطرق قليلاً وقال:

لاتنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباسِ

فالله قد ضرب الأقلَّ لنوره مثلاً من المشكاة و النبراسِ

وقيل ان الكندي قال: إنّ هذا الفتى قليل العمر لأنه ينحت من قلبه وسيموت قريباً[5].

وفي رواية اخرى انه قال للممدوح: أي شيء يطلبه فأعطه فإنه لا يعيش اكثر من اربعين يوماً لأنه قد ظهر في عينيه الدم من شدة التفكير[6]. فلم يستحسن الكندي في بادئ الامر صفات مدح شاعر يعيش في القرن الثالث وهو يمدح بصفات لاتتفق وتطور العصر

---

(2) ديوان ابي تمام: 43.
(3) ينظر: كتاب الصناعتين: 454/2، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 2/ 237.
(4) ينظر: الموازنة :20/1، وشرح ديوان الحماسة، التبريزي:5-6.
(1) ديوان ابي تمام:188.
(2) ينظر: البديع في نقد الشعر: 197.
(3) ينظر: شرح الصولي: 522/1.
(4) ينظر:الموشح: 500-501 و326،والعمدة: 1/ 192، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 2/ 364.
(5) ينظر: العمدة: 192/1، ووفيات الاعيان: 179.
(6) ينظر: اخبار أبي تمام: 231-232.

وما صاحبه من تطور في النظام الفكري والحضاري مما أثّر في مستوى الاستجابة عند تلقي المدح لكنه عندما زاد البيتين عجب من سرعة بديهته وفطنته وقد اعتذر عن تشبيهه، معبراً عن ذلك بقوله للممدوح: أي شيء يطلبهُ فأعطه.

وسرعة البديهة هذه تُعدّ مكانة ثقافية امتاز بها المادح نتجت عن مواكبة تطور العصر. اما عدم استحسان المتذوق للبيت الأول فكان لاختلاف الذائقة النقدية لكل منهما مما يُعدّ معوقاً لاستجابة التلقي، فالمتذوق حمل البيت على أنه لايليق بمكانة ممدوحه في حين يرى المادح خلاف ذلك.

واعجب ابن وهب بمدح ابي تمام للمعتصم حين قرأ قصيدته[1]:

فتح الفتوح تعالى أن يحيط بـه نظم من الشعر أو نثر من الخطب

وأفصح عن اعجابه قائلاً: "واما الشعر فلا اعرف-مع كثرة مدحي له وشغفي به في قديمه ولا حديثه- أحسن من قول أبي تمام في المعتصم ولا أبدع معاني ولا أكمل مدحاً ولا أعذب لفظاً... هل وقع في لفظة من هذا الشعر خلل؟ كان يمر للقدماء بيتان يستحسنان في قصيدة فيجلّونها بذلك وهذا كلّه بديع"[2].

وقد جاء هذا الاستحسان لأن الشاعر قد اختار المعاني والالفاظ التي تليق بالممدوح فراعى منزلته الاجتماعية من خلال مكانته الثقافية التي تطورت مع التطور الزمني والبيئي.

والنص يشير إلى قدرة الشاعر في انتقاء الفاظ المدح وصفاته وذلك يُعدّ من تجليات التغير في القصيدة المدحية.

وذكر ان بعض الناس اعترض على قول أبي تمام[3]:

للجودِ بابُ في الأنامِ وَلَم تزلْ مُذ كنتَ مفتاحاً لذاك البـاب

"بحضرة بعض أصحابنا، وقال: أتى الى ممدوحه فجعله مفتاحاً، فهلا قال كما قال ابن الرومي:

قبّل أنامله فلسنَ أنـاملاً لـكنهنَّ مفاتـحُ الأرزاق

فقـال لـه الآخـر: عجبـت منـك تعيـب أن يجعـل ممدوحـه مفتاحـاً وقـد جعـل ربـه كذلك.."[4]. ولم يستحسن المتذوق هذا المدح لانه جاء بالالفاظ التي لاتتفق ومنزلة الممدوح وهي موضع غير مناسب وهذا يُعدّ عائقاً من معوقات الاستجابة. زد على ذلك أن المادح له ذائقة مختلفة عن ذائقة المتذوق.

وفي رواية عن المهلبي قال: كنا في حلقة دعبل فجرى ذكر أبي تمام فقال دعبل كان يتتبع معانيّ فيأخذها . فقال رجل في مجلسه ما من ذلك أعزك الله؟ فقال قلت[1]:

وإنّ امـرَأً أسـدى اليَّ بشافعٍ اليْـه و يَرجُو الشّكر منّي لأحْمَقُ

---

(1) ديوان ابي تمام: 7.
(2) اخبار ابي تمام: 108، وشرح الصولي:1/ 60.
(3) ديوان ابي تمام: 85.
(4) العمدة: 1/ 273.
(1) شعر دعبل:30، وينظر: الموازنة :62/1، وكتاب الصناعتين:1/ 219.

شفِيعَكَ فاشكر في الحوائج؛ إنّهُ يصونُك عن مكرُوهِها وهوَ يخلُقُ

وقال وهو يمدح يعقوب بن ابي ربعي[2]:

إنّ الأميرَ بلاك فـي أحوالـه فرآك اهزَعَه غداة نضالهِ
فمتى أقوم بحق شكرك إذْ جَنَتْ بالغيب كفّك لي ثمارَ نوالـهِ
فلقيتُ بيـن يديْكَ حُلـوَ عطائِه ولقيت بين يديَّ مرَّ سؤالـه
وإذا امرؤ اسدى اليك صنيعـةً مِن جاهه فكأنّها مِن مالـهِ

فاستحسن الرجل ذلك وعبّر عن استحسانه بقوله: (أحسَنَ والله)، وهذه طريقة لفظية للاستجادة. فقال دعبل كذبت قبحك الله. قال لئن كان سبق بهذا المعنى فتبعته لما احسنت، وإن كان اخذه منك لقد أجاد فصار أولى به منك. فغضب دعبل وقام[3].

وَمردّ هذا البون في التقدير الفني بين دعبل وذلك الرجل احد أمرين: اما الحسد من جانب دعبل، واما التفوق النقدي من جانب الرجل الآخر.

وانشد تمام ابن ابي تمام شعراً يهنئ فيه طاهر بن عبد الله ويمدحه عندما تولى خراسان فقال[4]:

هنّـاك رب النـاس هنّاكـا ما مـن جزيل الملك أعطاكـا
قرّت بما اعطيت يا ذا الحجى والبأس و الانعـام يمناكـــا
اشرقت الارض بما نلتَـــهُ وأورق العـود بجـدوا كـا

فاستضعف الجماعة شعره ولم يستحسنوه وقد اعربوا عن عدم استحسانهم بطريقة لفظية بقولهم: يا بُعدَ ما بينه وبين أبيه. وقد أشار طاهر الى بعض الشعراء ليجيبه فقال:

حيّاك ربُ النـاس حيّاكـا إنّ الذي أملـت أخطاكـا
فقلت قـولاً فيـه مـازانه لو أن رأى مدحاً لآساكـا
فهاك إن شئت بهـا مدحة مثل الذي اعطيت اعطاكا

فقال تمام: إن الشعر بالشعر رِبـا أعز الله الامير فليجعل بينهما شيئاً من الدراهم فأعطي ثلاثة الاف درهم لظرفه[1]. ويبدو من النص أن المكانة الثقافية التي يتمتع بها تمام أدنى من المكانة الثقافية التي يتمتع بها الشاعر الذي أجابه بشعر كشف فيه عن عدم استحسانه له، وقد وجهه فيه الى المديح الجيد. فالمكانة التي يتمتع بها تمام والشاعر الذي اجابه تعد من العوامل المؤثرة في عملية استجابة تلقي المديح. ومثل هذا الاعراب عن عدم الاستجادة لم نألفه من قبل عند الممدوحين والنقاد والمتذوقين ، ومثله ماجاء في خبر مفادهُ أن ابن الجهم (249هـ) مدح المتوكل فقال[2]:

الله اكبـــر والنبي محمدُ والحق أبلـج والخليفة جعفر

---

[2] ديوان ابي تمام: 240.
[3] ينظر: الموازنة:62/1 ، وكتاب الصناعتين : 219/1.
[4] ينظر: زهر الآداب: 2/ 430.
[1] ينظر: زهر الآداب: 2/ 430-431.
[2] ديوان علي بن الجهم: 43.

وقد عاب مروان بن أبي الجنوب هذا القول الذي استحسنه ابن المعتز وقد عبّر عن عدم استجادته له بطريقة لفظية شعراً، فقال[3]:

أراد ابن جهم أن يقول قصيدة بمدح أمير المؤمنين فأذّنا

فقلتُ له لاتعجلن بأقامةٍ فلست على طهر فقال ولا أنا[4]

وقد جاء عدم استحسان مروان للشعر لأنه لم يكن مدحاً على الحقيقة ويكشف ذلك أن ثمة اختلافاً في الذائقة اللّغوية والنقدية بين المادح والمتذوق، فكان ذلك من معوقات استجابة التلقي.

وقد روي أن الشعراء قصدوا الخليفة المستعين (252هـ) ومنهم الشاعر البلاذري، فقال الخليفة –بوصفه متذوقاً- للشعراء لست أقبل إلا مِن الذي يقول مثل قول البحتري (284هـ) في مدح المتوكل[1]:

فلو أن مُشتاقاً تكلّفَ فوق ما في وسعه لسَعى اليكَ المنبرُ

فقد استحسن الخليفة قول البحتري وعبّر عن هذا الاستحسان بقوله: لست أقبل[2]... فقد راعى المادح المنزلة الاجتماعية لممدوحه، التي تُعدّ من العوامل المؤثرة في استجابة تلقي المدحة.

وعاب ابن جني (392هـ) على المتنبي قوله[3]:

قد شرّف الله أرضا أنتَ ساكنها وشرّف الناس إذ سواك انسانا

فقد أعرب ابن جني –بصفته متذوقاً- عن عدم استجادته بطريقة لفظية فقال: لايعجبني (سواك إنساناً) لأنه لا يليق بشرف الفاظه ولو قال (أنشاك) ونحو ذلك لكان أليق بالحال[4].

وقد جاء المتنبي ببيت وصفه ابن جني بأنه أفرط فيه جداً وقد جاءت الفاظه مخالفة لمعانيه وهو قوله[5]:

تقاصر الافهام عن إدراكه مثل الذي الأفلاك فيه والدُنا

وقد اعرب المتذوق عن عدم استجادته بطريقة لفظية فقال: لقد أفرط المتنبي جداً لأن الذي فيه الأفلاك والدّنا هو علم الله تعالى[6]. فشكل الإفراط الزائد عائقاً أمام الاستجابة للمديح.

كما علّق ابن جني على قول المتنبي[1]:

نَهَبتَ مِنَ الاعمارِ مالَو حوَيتَهُ لهنئت الدّنيا بأنك خالد

---

[3] ديوان مروان بن ابي الجنوب:
[4] ينظر: الموشح: 257.
[1] ديوان البحتري: 212.
[2] ينظر: وفيات الاعيان: 71.
[3] ديوان المتنبي: 801/3.
[4] ينظر: يتيمة الدهر: 1/ 237.
[5] ديوان المتنبي:لم أجده في الديوان.
[6] ينظر: الكشف عن مساوئ المتنبي: 240.
[1] ديوان المتنبي: لم أجده في الديوان.

معرباً عن استحسانه له بقوله: "لَوْ لَمْ يَمدْحَ ابو الطيب سيف الدولة الاّ بهذا وحده لكان بقي منه ما لا يخلقه الزمان وهذا هو المدح الموجّه لأنه بنى البيت على ذكر كثرة ما استباحه من أعمار أعدائه ثم تلقاه من آخر البيت بذكر سرور الدنيا ببقائه واتصال أيامه"[2] فقد تمكن الشاعر من اختيار الالفاظ والمعاني التي تليق ومنزلة ممدوحه الاجتماعية. وهذا دليل على علو قدره وسعة اطلاعه ومكانته الثقافية التي تُعدّ عاملاً مؤثراً في استجابة تلقي المديح. وقد عسكتها البيئة المترفة والتبدل الحضاري والفكري. وجدير بالذكر أن هذه الصورة المدحية الطريفة هي مما تفرّد بها المتنبي دون غيره فهو يُفاجئ المتذوق بصور لا تخطر على بال أحد، ولعل هذا من أسرار خلود شعر المتنبي الى يومنا هذا. فقد أحسن اتباع طرائق المديح المعهودة، وابتكر طرائق جديدة ملأ بها الدنيا وشغل الناس. وهذه الطرائق أثارت طرائق استجابة مختلفة من المتذوقين وهذا هو تجلي تغير الصفات الذي رُمنا الكشف عنه.

وقد مدح المتنبي أبا الشجاع (فاتكاً) في قصيدة أولها[3]:

لا خيل عندك تُهديها ولا مالُ فليُسْعدُ النطقُ إن لَمْ يُسعد الحالُ

فلم يستحسن العكبري (456هـ) –بصفته متذوقاً- هذا المدح وعبّر عن عدم استحسانه بطريقة لفظية قائلاً: "وهذا الابتداء يكرهه السامع بأن يقول للممدوح لا خيل عندك تهديها ولا مال، وهو أول ما يقوله له، إذ أن هذا البيت هو مستهل القصيدة التي يمدح بها أبا الشّجاع"[4].

فينبغي للشاعر أن يجوّد ويُحسّن "ابتداء شعره فانّه أول ما يقرع السمع ويستدلّ به على ما عنده من أول وهلة..."[1].

ولعل من المفيد أن يذكر تعليل ابن رشيق لوقوع الشعراء في شرك الاستهلالات غير الموفقة. فقد جعله من الغفلة في الطبع أو من استغراق الصنعة وشغل هاجس بالعمل يذهب مع حسن القول اين يذهب[2]. ولذا فإن هذا الابتداء يُعَدُّ من المواضع غير المناسبة للمدح مما يشكل عائقاً في استجابة التلقي.

أما ابو الفتح (583هـ) فقد احتج على الحاتمي عندما عاب على المتنبي قوله[3]:

فإن كان بعض الناس سيفاً لدولة

ففي الناس بوقات لها وطبولُ

وقد دافع له بقوله: عاب عليه من لا مخبرة له بكلام العرب جمع بوق على بوقات والقياس يعضده إذ له مظاهر كثيرة مثل حمام –حمامات، وسرادق – سرادقات، وهو كثير في جمع ما لا يعقل من المذكر إذ لايوجد له مثال القلة[4].

---

[2] يتيمة الدهر: 1/ 200-201.
[3] ديوان المتنبي : 2/ 704.
[4] الابانة: 165.
[1] البديع في نقد الشعر: 400.
[2] ينظر: العمدة: 1/222-223.
[3] ديوان المتنبي : 2/521 وقد ورد فيه (اذا كان) بدلاً من (فإن كان ...).
[4] ينظر: الرسالة الحاتمية ضمن كتاب الإبانة : 256.

وقد نلحظ اختلاف الذائقة اللغوية والنقدية بوصفها عائقاً من معوقات استجابة تلقي المديح واضحة جلية بين الشاعر والمتذوق من جهة وبين الحاتمي من جهة اخرى.

وبعد التجوال بين الوقائع والمرويات والنصوص التي تكشف عن استجابة وتلقي المتذوق للمديح العباسي اتضّح لنا أن المتذوق كان يعرب عن استجابته للمديح العباسي بالقول مرة، وبالتصرف أخرى وبالمال أحياناً. فمن طرائق الاعراب عن الاستجادة قول المتذوق متعجباً: (لمن هذا الشعر –أصلحك الله- فما سمعت أحسن منه). وقوله (ما مدحنا شاعر بشعر أحب الينا من قول...) وكقول احد المتذوقين: (أفرأيت ما ألطف ما جعلها معدنا لكمال الصفات ومحاسنها).

أما عن عدم استجابة المتذوق للمديح فقد أعرب بالقول أيضاً من مثل قول عمارة ابن عقيل لأبي دلامة: (ما زدت على أن وصفته بعجوز في يدها مسباحها)، وكقول الآخر: (الأمير فوق ما وصفت تشبهه بأجلاف العرب)، وكذلك قولهم: (ألا قلت: فباقي عَصَا موسى بكف خصيب). هذا من جهة الاعراب بالقول. وقد تم التقاط طريقة جديدة للاعراب عن عدم الاستجادة شعراً، فقد عاب مروان بن أبي الجنوب شعراً لابن الجهم في المتوكل واعرب عن عدم استجادته له بقوله:

(أراد ابن جهم أن يقول قصيدة بمدح امير المؤمنين فأذّنا
فقلت له لاتعجلن بإقامةٍ فلست على طهر فقال ولا أنا)

وقد أعرب المتذوق عن استجادته للمديح بالتصرف فقد ذُكِر أن المعتصم –بوصفه متذوقاً- قال للشعراء (من كان منكم يحسن أن يقول كقول منصور النمري في الرشيد... فليدخل). إذ أن المعتصم تصرف بدخول الشعراء عليه شريطة أن يقولوا مثل قول النميري. وقد اهتز بشار الشاعر –بوصفه متذوقاً- طرباً لما سمع ابو العتاهية ينشد مادحاً المهدي، وقال: (ويحكم انظروا ألَمْ يَطرِ الخليفة عن أعواده).

وقد وجدنا أن الرشيد –بوصفه متذوقاً- يأمر بثلاثين ألف درهم وبخلع حلّتين على ربيعة الرقي استجابة لأبيات مدح بها العباس بن محمد بن عبد الله بن العباس.

وقد تجلّت لنا في اثناء التجوال عوائق وقفت حاجزاً في طريق استجابة وتلقي المتذوق للمديح العباسي. فقد أشكل مديح على (عافية) قاضي المنصور مدحه به أبو دلامة وغضب عليه وقال (لأشكونك لأمير المؤمنين لأنك هجوتني فقال له أبو دلامة إذن والله يعزلك. قال لِمَ يعزلني؟ قال: لأنك لاتعرف المديح من الهجاء). فكان شعر ابي دلامة هو:

فَمنْ خِفْتُ مِن جَورِهِ في القضاءِ فَلستُ أخافكَ يا عافِيهْ

فكان الشاعر يريد من هذا القول أن القاضي عادل فلا يخافه، في حين فهمه المتذوق على أنّه استخفاف بالممدوح وهذا موضع اشكال بين المدح والهجاء مما يُعَدُّ عائقاً لاستجابة تلقي المدحة.

ومن العوائق الاخرى اختلاف الذائقة، فقد أنكر عمارة قول مروان بن ابي حفصة في المأمون فكان يرى أن الشاعر وصف المأمون بصفة عجوز في يدها مِسبْحة. ومرّد ذلك يعود الى اختلاف الذائقة على أنها عائق لاستجابة تلقي المديح. ومن المواضع غير

المناسبة –بوصفها عائقاً- الاستهلال غير الموفق، ومن ذلك عدم استحسان العكبري مدح المتنبي لفاتك بقوله: لا خيل عندك تهديها...

فقد أعرب العكبري عن عدم استجادته بقوله: (وهذا الابتداء الذي يكرهه السامع بأن يقول للممدوح: لأخيل عندك تهديها ولا مال). ومثل هذا الابتداء غير الموفق يشكل عائقاً لاستجابة المتلقي.

ولاشك أن استجابة المتذوق وتلقيه للمديح يتأثر بعوامل منها: المكانة الثقافية للمتذوق والمادح فقد استحسن العتبي قول السيد الحميري بقوله: (أحسن والله هذا هو الشعر الذي يهجم على القلب بغير حجاب) فقد تمكن الشاعر من اعطاء الممدوح حقه ومراعاة منزلته الاجتماعية بفضل درايته ومكانته الثقافية التي مكنته من ذلك.

هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن مراعاة المنزلة الاجتماعية للممدوح تُعَدُّ عاملاً في الاستجابة والتلقي. ومن العوامل المؤثرة الاخرى تطور النظام الفكري والحضاري كما حصل مع الكندي في قول لابي تمام في مدح المعتصم. وقد اشار المتذوق الى أن الشاعر شبه الامير بأجلاف العرب او بصعاليك العرب وهم ليسوا كذلك في ذلك الزمان ومردّ ذلك تبدّل النظام الفكري والحضاري مما أثر في مستوى الاستجابة والتلقي. وقد استحسن ابن جني قول المتنبي في سيف الدولة بقوله: (لو لَمْ يمدح أبو الطيب سيف الدولة الا بهذا وحده لكان بقي منه ما لايخلقه الزمان) وإن هذه الصورة المدحية التي فاجأبها المتنبي المتذوق ناتجة من التطور الفكري والحضاري الذي عكسته البيئة العباسية المترفة.

أما من حيث التجليات فقد كشفت لنا النصوص عن تجليات تغير في الصفات وفي السياق، فقد استحسن ابو العباس مدحاً لعلي بن جبلة معرباً عن استحسانه بقوله: (ما سمعت أحسن من هذا التخلص من النسيب الى المدح مع جودة هذه المعاني). ومثل هذا التخلص يُعدّ عاملاً مؤثراً في قوة الاستجابة للمديح، ومن التجليات ايضاً تغير السياق اللغوي فقد أقام ابو تمام علاقات جديدة بين الالفاظ وابتدع سياقاً لغوياً جديداً مملوءاً بالايحاءات وقد خالف المألوف وجاء بما ليس معتاداً في مثل قوله: رقيق حواشي الحلم... فقد جمع في هذا البيت التغير في السياق اللغوي وتغير الصفات.

وفي ضوء ما تقدم نجد أن استجابة وتلقي المتذوق للمديح الجاهلي والمديح الأموي ثم المديح العباسي، كان مُتّفقةً في أحيان كثيرة ومختلفة بعض الشيء في أحيان أخرى. وتلقانا أحياناً استجاباتُ متفردةُ. وسنقف على تلك المواقف جهد الامكان من خلال عقد موازنةٍ بَيْنَ تلقي المتذوق في العصور الثلاثة، خلا العصر الأسلامي الذي كاد يخلو من متذوق لمديحه.

لقد اتفق المتذوقون على الاعراب عن استجابتهم للمديح أو عدمها ، بطرائق لفظية وكما هو موضح في نهاية كل عصر. وقد برزت لنا طريقة لفظية لم نألفها فيما سبق عند الممدوح والناقد والمتذوق الجاهلي والاموي في الفصلين السابقين والمتذوق الجاهلي والأموي في الفصلين السابقين وهي : الاعراب عن عدم الاستجادة شعراً.

وقد تصرف بعض المتذوقين مُعربين عن قبولهم المديح أو رفضه كالضرب بالرجل طرباً، أو جعل المادح نديماً للمتذوق، أو التبسم وهز الرأس رفضاً.

أما الاعراب عن الاستجابة وتلقي المديح بالطريقة المادية (التصرف بالمال) فوجدناه في استجابة تذوق المديح الاموي والعباسي، في حين خلت استجابة تذوق المديح الجاهلي منها.

أما فيما يخص المعوقات التي كانت تحول دون استجابة المتذوق للمديح فكانت متشابهة الى حدّ ما في اغلبها كاختلاف الذائقة والمواضع غير المناسبة، وكان ما يسمى بالاشكال بين المدح والهجاء، عائقاً في استجابة تلقي المديح لدى المتذوق للمديح العباسي.

وقد لا تخفى على أحدٍ العوامل التي كانت تؤثر في الاستجابة والتلقي ايجاباً وسلباً. فكانت المكانة الثقافية للمادح والمتذوق من أبرزها، في جميع العصور. وكذلك التطور الفكري والحضاري الذي كان واضحاً جليّا في تذوق المديح الجاهلي والعباسي. في حين يكاد يخلو منه المديح الأموي.

أما تجليات التغير في الاستجابة والتلقي، فقد خلا منها المديح الجاهلي، وتجلت في المديح الاموي على شكل تجليات تغير في الصفات المدحية وزيدت عليها تجليات تغير السياق في المديح العباسي.

بعد الوقوف على استجابة وتلقي المتذوق للمديح الاموي، تبين لنا أن المتذوق كان يعرب عن استجابته لذلك المديح بطرائق لفظية منها؛ افصاح المتذوق (الحطيأة) عن اعجابه لمدحة الفرزدق في سعيد بن العاص: (هذا والله الشعر لا ما تُعلّل به اليوم أيها الأمير). وقول ابي عمرو بن العلاء: (بيت جرير اسير ما قيل في المدح واسهلهُ)، عند سماعه مدحة جرير في عبد الملك.

وقد أعرب المتذوق أيضاً عن عدم استجادته لبعض المديح بطريقة لفظية أيضاً من مثل عدم استحسان المتذوقين لقول الأحوص في مدح الملوك: (إنّ الملوك لا تُمدح بما يلزمها فعله كما تُمدح العامة، وانما تمدح بالاغراق والتفضيل). ومثل اعراب الفتى المتذوق عن عدم استحسانه لمدحة الأخطل في سماك (أردتَ أن تمدح سماكاً فهجوته).

وقد اعرب المتذوق عن عدم استجادته للمديح بالتصرف حينا، فقد ابتسم اعرابي وهزّ رأسه معرباً عن عدم استحسانه لشعر رجل مدح به مسلمة بن عبد الملك.

ومن متابعة النصوص المدحية ومواقف المتذوقين منها، لم نلتقط إلا طريقة استجادة مادية واحدة للمتذوق يُعربُ بها عن استحسانه للمديح. فقد تصرف أسير بوصفه متذوقاً بشطر المال الذي أمر له به مصعب بن الزبير بعد أن أطلق سراحه، لعبيد الله بن قيس الرّقيات لقوله: إنما مصعب...

وهذا دليل واضح لاعرابه عن استجادة هذا الشعر بطريقة ماديّة. وقد تبين لنا أيضاً أن ثمة معوقات حالت دون استجابة المتذوق لشعر المديح الأموي. فكان من بينها اختلاف الذائقة اللّغوية والنقدية بين المادح والمتذوق، كما هو بيّن في عدم استجادة المتذوق بيت الفرزدق في مدح وكيع بن سويد، وقد يرى المتذوق غير ما يراه الشاعر من حيث إنه أساء القسمة وأخطأ الترتيب وكان يجب عليه القول؛ أبصرته سامياً واعناق الملوك خضوع أو ابصرتهُ مضيئاً واعناق الكماة كاسفة. ومردّ ذلك التباين في وجهتي نظر الشاعر والمتذوق اختلاف الذائقة اللغوية والنقدية لكل منهما.

ومن المعوقات الاخرى التي وقفت عائقاً في استجابة التلقي للمتذوق المواضع غير المناسبة فلم ينل بيت الأحوص إعجاب المتذوقين لورود لفظة (مذق) وهي من الفاظ الذم جاء بها في موضع المدح مما جعلها عائقاً في استجابة المتذوق.

وقد كشفت لنا النصوص التي تم استعراضها عن عوامل كانت وراء استجابة وتلقي المتذوق للمديح المموه فكان منها المكانة الثقافية للمتذوق والمادح، فمن ذلك مثلا تنبّه الطرماح للمديح الممسوه الذي أجازهُ كثيّر على عبد الملك، معلقاً على البيت أن الشاعر موّه على ممدوحه في الظاهر وعنى في الباطن أنه السابع من الخلفاء في حين جاز هذا الشعر على عبد الملك فظنه مدحاً وهذا يكشف عن المكانة الثقافية للمادح والمتذوق بوصفها عاملاً مؤثراً في الاستجابة والتلقي. ومنها أيضاً عدم استحسان كثيّر –بوصفه متذوقاً- شعر الأحوص في الأمويين، وان عدم الاستحسان هذا ناتج عن علمه الواسع بالشعر وسعة باعه وذكائه المفرط ومكانته الثقافية بوصفها عاملاً مؤثراً في استجابة المتذوق وتلقيه لغرض المديح. ولم تكشف لنا النصوص عن عوامل أخرى مؤثرة في استجابة التلقي.

أما فيما يخص تجليات تغير الاستجابة في التلقي للمديح فقد كشفت لنا النصوص عن تجليات تغير صفات مدحية، فلم يستحسن الاعرابي بوصفه متذوقاً الشعر الذي رواه الأصمعي في مدح مسلمة، وذكر أن خطأ الشاعر اكثر من صوابه لكن حسن الروي ورواية المنشد غطّت على عيوب الشعر ثم يضيف قائلاً يشبهون الملك بالأسد والأسد أبخر شتيم المنظر وربما طرده شرذمة من الإماء، وإن مثل هذه الصفات كتشبيه الملك بالاسد، لا تدل على عظم مكانة الممدوح ومنزلة كخليفة لله في الارض. ومما يدعم ما ذهب اليه المتذوق رفض ملوك بني أمية تلك الصفات فقد وجّه عبد الملك الشعراء حين قال لهم: تشبهوني بالأسد مرة وبالصقر أخرى وبالباز ثالثة الا قلتم كما قال أيمن بن خريم في بني هاشم:

نهاركم مكابدة وصومُ وليلكم صلاة واقتراءُ

تلقي المتذوق للمديح العباسي

عرفنا ان العصر العباسي كان زاخراً بالعطاء الفكري والثقافي في جميع مستوياته. فقد كانت المنافذ متعددة الثقافة للنقاد والشعراء، وقد أصبح اكثر تخصصا حتى صار من الشعراء من له باع في اصدار الاحكام النقدية. وسنتبين من خلال المرويات والاخبار كيفية تلقي المتذوق للمدحة العباسية، موضحين كيفية تعبيرهم عن الاستجابة لهذه المدحة بالطرائق اللفظية وغيرها قبولاً أو رفضاً واهم العوامل المؤثرة وتجليات التغير وكذلك المعوقات التي تحول دون الاستجابة لتلقي المديح.

يروى ابن المعتز أن أبا دلامة (ت161هـ) أنشد أبا جعفر المنصور مديحاً فاستحسنهُ وقد جعل مَنْ عندَهُ مِنْ ندمائه يستحسنه أيضاً، ولكن الندماء أفرطوا في الاستحسان. وقد تنبه الشاعر على ذلك، فأشار للمنصور بأن الندماء لايعرفون الجيد من الرديء من الشعر، انما جاء استحسانهم هذا من استحسان الممدوح للشعر فخاطب الشاعر المنصور قائلاً: إنْ شئت اثبت لك ذلك. فقال؛ افعل، فأنشده[1]:

أنعتُ مهراً كاملاً في قَدْره مُركباً عجانُه[*] في ظهره

فلما فرغ منها، استحسنوها فقال أبو دلامة: ألم اخبرك يا أمير؟ فقال المنصور: صدق والله أبو دلامة كيف يكون عجانه في ظهره[2]؟

وقيل اختصم أبو دلامة مع رجل الى (عافيةْ) قاضي أبي جعفر المنصور فادعى ((الرجل عليه فقال له القاضي ما تقول؟ قال اسمع أولاً وأنشأ يقول[3]:

لقد خاصَمَتْني دُهاة الرّجال و خاصمْتها سنّة وافيهْ
فما أدحض اللهُ لي حجّةً ولاخيب اللهُ لي قافيهْ
فمن خِفتُ من جوره في القضاء فلستُ أخافك ياعافيهْ

---

[1] ديوان ابي دلامة:
[*] عجانه=العنق تحت الذقن أو القضيب الممتد الى الدبر.
[2] ينظر: طبقات الشعراء: 59.
[3] ديوان ابي دلامة:

فغضب وقال: لأشكونك الى أمير المؤمنين. قال أبو دلامة: وَلِمَ تشكوني؟ قال: لأنك هجوتني . قال: اذن والله يعزلك. قال عافية: وَلِمَ يعزلني؟ قال: لأنك لاتعرف المدح من الهجاء))[1].

وهذا النص يكشف عن مكانة الشاعر الثقافية التي فاقت مكانة الممدوح بوصفها عاملاً مؤثراً في تلقي المديح وذلك بيّن من خلال عدم الاستجابة لهذا المدح، لأنه لَمْ يفرّق بين المدحة والهجاء. وهذا موضع إشكال بين المدح والهجاء مما يُعد عائقاً في الاستجابة والتلقي. إلا أن هذا الاشكال يمكن أن يتبدد حين نفهم أن الشاعر أراد أن يقول لممدوحه إنك عادل فلا أخافك، في حين فهمها المتذوق على أنها استخفاف بالممدوح.

وقد استحسن العتبي قول السيد الحميري قصيدته التي منها[2]:

أقسمُ باللــه وآلائــه والمرءُ عما قــال مسؤولُ
إنّ علي بن أبي طالـب على التقى والبّر مجبــولُ

وقد أفصح المتذوق (العتبي) عن هذا الاستحسان لمديح السيد الحميري بطريقة لفظية قائلاً: ((أحسن والله، هذا هو الشعر الذي يهجم على القلب بلا حجاب))[3]وقد جاء استحسان العتبي له لأن الشاعر لم يبالغ في شعره بل أضفى صفات مدح واقعية كانت في الممدوح حقاً، وقد تمكن الشاعر من اعطاء الممدوح حقّه بفضل درايته ومكانته الثقافية التي عرف من خلالها كيف يراعي منزلته الاجتماعية.

وأنشد مروان بن أبي حفصة عمارة بن عقيل (ت239هـ) بيته في المأمون[4]:

أضحى إمامُ الهدى المأمونُ مشتغِلاً بالدين والنـاس بالدنيـا مشاغيلُ

فقال له: ((ما زدته على أن وصفته بصفة عجوز في يدها مسباحُها؛ فهلا قُلت كما قال جدي في عمر بن عبد العزيز:

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبهُ ولا عرض الدنيا عن الدين شاغلُه))[1]

فعمارة لم يستحسن هذا الشعر، وقد أفصح عن عدم استحسانه بقوله: ((مازدته على أن وصفته بصفة عجوز في يدها مسباحها..))

فأراد المتذوق (عمارة) أن الممدوح فوق هذا المستوى. وبعبارة أخرى ان الشاعر لَمْ يراع منزلته الاجتماعية على الرغم من الصفات الدينية التي أطلقها الشاعر لممدوحه وهي بيّنة جليّة، واخيراً فإن عدم مراعاة الممدوح يُعدّ عائقاً مؤثراً في استجابة وتلقي المديح.

وانشد مروان قصيدته التي يقول فيها[2]:

بنـو مطر يـوم اللقاء كأنّهم أسودُ لها في غيل خفّان أشْبلُ

---

[1] طبقات الشعراء: 58.
[2] ديوان السيد الحميري: 295 وقد ورد فيه (اشهد بالله) بدلاً من (أقسم بالله).
[3] ينظر: الاغاني: 7/ 10-11 وذكرت الابيات في مفاتيح الجنان، عباس القميّ: 383.
[4] ديوان مروان:
[1] الموازنة: 63، وينظر: الصناعتين: 1/ 125.
[2] ديوان مروان:

هم يمنعون الجارَ حتّى كانّما لجارهم بين السماكين منـزلُ
بهاليل في الاسلام سادوا ولم يكن كـأولهـم في الجاهليـة أولُ
هم القوم إن قالوا أصابوا،وان دعوا أجابوا، وإن أُعطوا أطابوا واجزلوا
ولا يستطيع الفاعلـون فعالهُم وإن أحسنـوا في النائبات واجملوا

فقد استحسن ابو يوسف القاضي هذه المدحة وكشف عن استحسانه بطريقة لفظية بقوله: لمن هذا الشعر أصلحك الله فما سمعت أحسن منه –وكان يسأل يحيي بن خالد- فقال يحيى : يقوله ابن ابي حفصة في أبي هذا الفتى، وأومأ الى شرحبيل بن معن بن زائدة، فكان قوله أسر اليّ من جليل الفوائد[3]، وهذا يَنِمُ عن مكانة الشاعر الثقافية التي بوساطتها تمكن من أن يجيء بصفات ومعاني مدح تليق بمنزلة الممدوح الاجتماعية، بوصفها عاملاً مؤثراً في استجابة تلقي المديح، وتدفع المتذوق الى السؤال عن قائله.

وقيل لشرحبيل انشدني اجود ما قاله ابن أبي حفصة في أبيك فأنشده[4]:

نعمَ المناخُ لراغبٍ ولراهبِ مما تصيبُ جوانح الأزمانِ
معنُ بن زائدةَ الذي زيدتْ به شرقاً على شرق بنو شيبانِ
إن عُدَّ أيامُ اللقاء فَإنّما يوماه يوم ندى ويوم طعانِ
يكسو الأسرة والمنابرَ بهجةً و يزينُها بجهارة وبيانِ
تمضي اسنتّه ويُسفر وجهُهُ في الحرب عندَ تغيّر الألوانِ
نفسي فدَاك أبا الوليد إذا بدا رَهَجُ السنابك والرماح دوانِ[1]

وهذا يكشف عن استحسان شرحبيل مدحة مروان في معن بن زائدة. ولكن يحيى (المتذوق الآخر) قال : أنت لاتدري جيد ما مدح به أبوك، أجود من هذا قوله[2]:

تشابه يوماه علينا فأشكلا فلا نحن ندري أيّ يوميه أفضل
أيومُ نداه الغمر،أم يومُ بأسِهِ؟ وما منهما الاّ أغرّ، محّجلُ[3]

وهذا يعني أن يحيى استحسن هذه المدحة وفضلها على غيرها في أبي شرحبيل (معن) وأفصح عن هذا الاستحسان بقوله: أنت لاتدري جيد ما مدح به ابوك، اجود من هذا قوله: تشابه يوماه...

وذكر أن الشعر اجتمعوا بباب المعتصم فبعث اليهم، مَنْ كان منكم يحسن أن يقول كقول أبي منصور النميري في الرشيد[4]:

إنّ المكارمَ والمعروف أوديةُ أحلك الله منها حيث تجتمعُ
فليدخل[5].

---

(3) ينظر: العمدة: 2/ 142، والصناعتين: 109.
(4) ديوان مروان:
(1) ينظر: العمدة: 2/ 142.
(2) ديوان مروان:
(3) ينظر: العمدة: 2/ 142.
(4) ديوان ابي منصور:
(5) ينظر: العمدة : 139، وزهر الاداب: 66/3.

فقد استحسن المعتصم –بصفته متذوقاً- شعر ابي منصور النميري وأعرب عن استحسانه بطريقة لفظية قائلاً: ((من كان منكم يحسن أن يقول كقول منصور النميري في الرشيد: إنّ المكارم... فليدخل)).

وقد ذكر ابن المعتز أن الشاعر ربيعة الرقي (ت198 هـ) مدح العباس ابن محمد بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب فقال[1]:

لو قيل للعباس يا ابن محمد قل لا وأنت مخلّد ما قالها
ماإن اعدّ من المكارم خصلة الاّ وجدتك عمها أو خالها
واذا الملوك تسايروا في بلدة كانوا كواكبها وانت هلالها
إنّ المكارم لم تزل معقولة حتى حللت براحتيك عقالها

وقد اغتاض الرقي لأنه بعث اليه بأقل مما كان يؤمل: فكتب اليه رقعة وطلب من حاجبه أن يضعها في أدواته ففعل الحاجب، وقد كتب في الرقعة[2]:

مدحتك مدحة السّيف المحلّى لتجري في الكرام كما جريتُ
فهبها مدحة ذهبت ضياعاً كذبت عليك فيها واعتديتُ

فلما بلغه هذا شكاه الى الرشيد، فأمر بإحضاره، وسمع منه القصة والمدحة التي انشدها فيه، وقال يا امير كيف تراها؟ قال الرشيد : ما مُدِحَ الخلفاء بمثلها حسناً، وقد أمر الرشيد له بثلاثين الف درهم وجعله نديما له، وخلع عليه فأعطاه حلتين[3]. ومن خلال ذلك يتبين أن الرشيد قد استحسن أبيات الرقي في مدح العباس، وعبّر عن استحسانه بالقول بطريقة معنوية فقال: ما مدح الخلفاء بمثلها حسنا، وبطريقة مادية، فأعطاه ثلاثين الف درهم ثم خلع عليه حلتين، وبالتصرف؛ فأدناه وجعله نديما له. ومرد ذلك يعود الى امرين. اما ان تكون المكانة الثقافية للمتذوق اكبر من ثقافة الممدوح، وإما أن يكون الممدوح لايرغب المديح الكاذب من الشعراء الذين لا هم لهم الا الحصول على الدراهم ودليل ذلك انه الشاعر مدحه ثم هجاه فهو غير صادق في مدحه. وهذا أحد العوامل المؤثرة في استجابة تلقي المديح.

وذكر أن ابن الاعرابي قال: أمدح بيت قاله مولد قول أبي نواس[4]:

تغطّيتُ من دهري بظل جناحه فعيني ترى دهري وليس يراني
فلو تسأل الاحداث عني ما دَرَتْ واين مكاني ما عرفت مكاني[1]

فقد استجاد ابن الاعرابي هذا المدح، وعبّر عن استجابته له بطريقة لفظية فقال: أمدح بيت قاله مولد قول أبي نواس...

وهو بهذا خرج عن المعقول وبالغ بالقول في هذه المدحة.

---

[1] ديوان: ربيعة الرقي:
[2] م.ن:
[3] ينظر: طبقات الشعراء: 157-158.
[4] ديوان ابي نواس: 214.
[1] ينظر: حلية المحاضرة: 1/ 342، والعمدة: 140/2.

كما استحسن ابن وهب –بوصفه متذوقا- بيتي ابي نواس السابقين بقوله ((ومما اسرف فيه الشاعر حتى اخرجه الى الكذب والمحال وهو مع ذلك مستحسن))[2]. وموقف ابن وهب يدل على أمرين: الأول يدل على ابتعاد الشاعر عن الحقيقة من الناحيتين العقلية والواقعية، أما الثانية فيدل على حس التذوق المرهف واهتمامه بالمجاز وأثره الواضح في جمال الشعر وذلك بادٍ في قوله ((وهو مع ذلك مستحسن)).

ولما أنشد أبو نواس مدحته في الخصيب في مجلس الرشيد وبلغ قوله[3]:

فإن بكُ باقي إفك فرعون فيكم فإنّ عَصا موسى بكفّ خَصيبِ

قال الرشيد: الاّ قلت: فباقي عصا موسى بكفّ خصيب ، فقال له: هذا أحسن ولم يقع لي[4]. ومن خلال هذا الشعر يتبين أن المتذوق له دراية بالمدح فقد أشار الى المادح بأن يقول ((فباقي عصا موسى))، فعبّر عن عدم استجادته بما ذكر في أعلاه، كما يكشف لنا النص أن للمتذوق مكانة ثقافية فاقت مكانة المادح، بدليل تسليمه بوجهة نظر المتذوق (الرشيد) بقوله: ((هذا أحسن ولم يقع لي)) وهذه المكانة الثقافية تُعدّ عاملاً مؤثراً في عملية التلقي والاستجابة.

ويذكر أن عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع قال: ما مدحنا شاعر بشعر أحب الينا من قول أبي نواس[5]:

ساد الملوك ثلاثة ما منهمُ إنْ حُصّلوا الاّ أعز قَرِيعُ
ساد الربيع وساد فضل بَعدهُ وعلت بعباس الكريم فروعُ
عباس عباسُ اذا احتدم الوغى والفضل فضل والربيعَ ربيعُ

فاستحسن عبد الله قول ابي نواس في آبائه. وقد عبّر عن ذلك بطريقة لفظية[1]. فقال ، ما مدحنا شاعر أحب الينا من قول أبي نواس...

والملاحظ أن أبا نواس عبّر في البيت الثالث عن مدح فريد امتزج بتورية لطيفة بأن أرجع الاسماء الى أصولها فـ(عباس) اسم (وعباس) هو الأسد، والفضل اسم وهو كذلك مصدر هذا الاسم ومعناه كل ما يزاد على مقداره، والربيع هو اسم علم وكذلك الربيع الثانية تدل على الخير، فاشتق الشاعر بفطنته مدحته من معاني اسماء الممدوحين.

وذكر ان الرشيد قال: يعجبني مثل قول مسلم في أبيك واخيك الذي امتدحهما به حيث قال[2]:

أجدّكِ هل تدرين أن رُبّ ليلةٍ كأنّ دجاها من قرونك ينشُر
صبرت لها حتى تجلَّت بغسّرةٍ كغرّة يحيى حينَ يذكرُ جعفرُ

فاستحسن الرشيد بصفته متذوقاً هذا القول وعبّر عن هذا الاستحسان بطريقة لفظية فقال: أفرأيت ما ألطف ما جعلها معدنا لكمال الصفات ومحاسنها[3].

---

[2] البرهان في وجوه البيان: 185-186.
[3] ديوان ابي نواس:
[4] ينظر: الموشح: 426.
[5] ديوان ابي نواس: 96.
[1] ينظر: زهر الآداب: 2/ 583.
[2] شرح ديوان مسلم:316.

وقد أنشد ابوالعتاهية مدحته في المهدي يوم تولى الخلافة ، ومنها[4]:

أتته الخلافة منقادة اليه تجرر أذيالها
ولم تكُ تصلح إلا له ولم يك يصلح إلاّ لها
ولورامها أحدُ غيرهُ لزلزلت الارض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلوب لما قبل الله أعمالها

فكان بشار يسمع هذا المدح ويستجيده، وقد أفصح عن استحسانه بطريقة لفظية قائلاً: ويَحْكَمُ انظروا ألَمْ يُطِر الخليفة عن أعواده، وبالتصرف فقد اهتزّ طرباً لها[1]. فقد تمكن المادح من اضفاء الصفات التي ترضي الخليفة وتليق بمقامه، فقد راعى منزلة ممدوحه الاجتماعية فجاء بالفاظ ومعان تتناسب وممدوحه. وهي من المواضع المناسبة للمديح، بوصفها تجليات تغير في الصفات المدحية. فنجد أن الشاعر قد شخّصَ الخلافة فجعلها كالحسناء المدللة التي تفتن الناس اعجاباً وتأبى عليهم فتصدّ معرضة، في حين أنها تأتي الى الخليفة المهدي طائعة في دلال وجمال تجرر أذيالها تيهاً وخيلاءً.

وقد أنشد علي بن جبلة حميد الطوسي قصيدته المدحية التي سرّ بها ومنها:[2]

دمن الدار دثور ليس فيهن مجيرُ
بليت منها المغاني مثل ما تبلى السطّورُ
قسم البين عليهن رواح و بكـــور
وليال ساجيات نام عنهن السميرُ
فطوت أحبيةُ الحي كما يطوى الحبيرُ
[...]
بنواجٍ حزّ منهنّ النجاء المستطيرُ
لحميد وحميدُ قمر الارض المنير

فلما بلغ هذا المدح أبا العباس استحسنه كثيراً وقد كشف عن استحسانه له بقوله: ما سمعت أحسن من هذا التخلص، من النسيب الى المدح مع جودة هذه المعاني، وانها أحبّ اليَّ من جميع ما أهدي[3].

ولما أنشد ابو تمام بيته المشهور، الذي اختلف الناس فيه، بين مستحسن ومستهجن له وهو:[4]

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه بكفيّك ما ماريت في أنه بُرْد

لم يستحسن ابن عمار – بصفته متذوقاً- هذا البيت معبّراً عن عدم استحسانه قائلاً: هذا الذي اضحك الناس مذ سمعوه الى هذا الوقت، وان لفظة بكيفك في غاية السخف[1].

---

[3] ينظر: فحولة الشعراء: 75.
[4] ابو العتاهية أشعاره وأخباره: 612.
[1] ينظر: امراء الشعر العربي ، انيس المقدسي: 151.
[2] ديوان علي بن جبلة:
[3] ينظر: طبقات الشعراء: 179-181.
[4] ديوان ابي تمام:121.
[1] ينظر: الوساطة: 69، الموازنة: 2/ 128 و58.

وقد جاء عدم الاستحسان لهذا المدح لأن المادح أتى بأوصاف غير مألوفة فوصف الحلم بالرقة. وذكر ابو هلال؛ ومن الغلط قول أبي تمام... وما وصف احد من اهل الجاهلية والاسلام (الحلم) بالرقة. انما بالرجحان[2]وبهذا خالف من سبقه. ولكن النقاد المعاصرين رأوا أنهُ أقام علاقات جديدة بين الالفاظ وابتدع سياقاً لغوياً مملوءاً بالايحاءات الجديدة[3]، وأتى بما يخالف المألوف وبما ليس معتاداً كتشبيه الخال بالبرق[4]. وهذا يكشف لنا عن أن الشاعر استخدم سياقاً لغوياً جديداً عكسه تطور البيئة والزمن، فأدى الى تطور عقلية الشاعر، وهذا عامل مؤثر في تلقي المدح. ثمة تجليات تغير اذاً في صفات المدح التي اضفاها ابو تمام على ممدوحه وهي صفات جديدة لم يسبق اليها اذ وجد صفات الرجحان والزرانةّ وما شاكل ذلك ثقيلة على الممدوح المترف الذي صقلته الحضارة الجديدة مما ادى الى اختلاف خطاب ابي تمام الشعري على وفق ذلك فأدرك بحسّه المرهف أهمية اختلاف الذائقة الأدبية للممدوحين باختلاف النظام الحضاري.

وقال أبو تمام:[5]

بيمن أبي اسحق طالت يد العلا وقامت قناة الدين واشتد كاهله
هو البحر من أي النواحي أتيته فلجّته المعروف والجود ساحله

تَعوّد بسطَ الكفّ حتى لو أنه دعاها لقبضٍ لَم تُطعْهُ أناملُهْ
ولو لمْ يكن في كفّه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائلـــه

فالناس هنا هم المتذوقون وقد استحسنوه. وعبّروا عن استحسانهم عن ذلك بقولهم: ((ومن الغلو المستفيض الذين قبله الناس واستحسنوه وَرَووهُ بكل لسان قول أبي تمام في المعتصم))[1] وربما لا يخفى على المتلقي أن المادح قد بالغ وغالى وافرط في هذا المديح مما يُعَدّ عاملاً مؤثراً في الاستجابة والتلقي للمديح لكنه مع هذا تمكن من اختيار الالفاظ الموافقة للمعاني والمناسبة لمنزلة الممدوح الاجتماعية.

وأنشد أبو تمام قوله[2]:

لمست بكفي كفّه أبتغي الغنى ولم أدر أن الجود من كفّه يُعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعداني فأتلفت ماعندي

فاستجاد هذه الأبيات المتذوق أبو عمرو بن العلاء (154هـ) وعبر عن استجادته بقوله لما سأله أحد الرواة عن أمدح بيت فقال: الذي يقول: لمست بكفي كفّه[3]...

ولما سمع اسحق بن ابراهيم (235هـ) أبا تمام ينشد أحمد بن داود قوله[4].

---

[2] ينظر: الصناعتين: 125.
[3] ينظر: النقد اللغوي: 14، وقضايا النقد الادبي والبلاغة: 15-16، والنقد الادبي، سهير القلماوي:67، وأبو العلاء المعري ناقداً: 200، والمجاز وأثره في الدرس اللغوي، د. محمد بدري عبد الجليل: 140.
[4] ينظر: نقد الشعر: 74، والنقد الجمالي روز غريب: 127.
[5] ديوان ابي تمام:38.
[1] ينظر: الموازنة: 74/1، وينظر: ابو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، د. بدوي طبانة: 152.
[2] ديوان ابي تمام:
[3] ينظر: الاغاني : 3/ 26، وينظر: الصناعتين: 206.
[4] ديوان ابي تمام 187، 122.

المجد لا يرضى بأن ترضى بـأن يرضى المؤمّل منك إلاّ بالـرضا

لم يستحسن منه هذا المدح وقد أفصح عن عدم استحسانه له بقوله: يا هذا لقد شققت على نفسك، والكلام اذا كان بهذه المثابة كان مذموما[5]. وقيل إن الشعر أسهل من هذا[6]. وهذا يدل على أن ذائقة أبي تمام غير ذائقة اسحق اللغوية مما يُشكل عائقاً في استجابة تلقي المدح. كما أن سياق القصيدة غير السياق الذي تعوده الناس وهذا يُعدّ تجليا من تجليات تغير السياق والالفاظ وقد أظهر التعجرف وتشبه بالبدوي فتكرار حرف الضاد في الكلمات سلبه الانسياب السهل، فصار ثقيلاً على اللسان فجاء بالفاظ لاتوافق عصر المتذوق. وتكرار هذه الكلمات التي حملت حرف الضاد يُعدّ تغيراً في سياق الالفاظ مما يُعّد عائقاً في الاستجابة والتلقي.

وعاب ابو العميثل (240هـ) قول أبي تمام في مدحه أحمد بن أبي طاهر[1] (280هـ):

هُنّ عوادي يوسف وصواحبه [فعزماً فقدماً أدرك الثأر طالبه]

واسترذل هذا الابتداء واسقط القصيدة كلها. لأن هذا الابتداء فيه خرم ويجب أن يكون الابتداء حسنا لأنه أول ما يقرع الاسماع وفيه تتجلى دلائل البيان ويستدل منه على باقي القصيدة[2]. ويعد هذا الافتتاح من المواضع غير المناسبة لذا يُعدّ عائقاً من معوقات الاستجابة.

وقيل أن أبا تمام عاتب أبا سعيد الضرير وأبا العميثل وسألهما الاستتمام والنظر فيها ولولا أنهما مرّا ببيتين استحسناهما فعرضا القصيدة على عبد الله بن طاهر واخذا الجائزة له لكان قد افتضح وخابت سفرته. والبيتان هما:

وركب كأطراف الأسنّة عرسّوا على مثلها والليلُ تسطو غياهبُهْ

لأمر عليهم أنْ تتم صُدُورُهُ وليس عليهم أن تتِمّ عواقبُهْ

ولما أوصلا الجائزة له قالوا له لِمَ لا تقول ما يفهم؟ فقال: ولِمَ لاتفهمون ما يقال؟[3].

وقد احتّج الكندي (255هـ) على قول ابي تمام في مدحه المعتصم:[4]

إقدام عَمْرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس[5]

فلم يستحسن الكندي هذا المديح وكان حاضراً فعبّر عن عدم استحسانه بقوله: الأمير فوق ما وصفت[1].

---

[5] ينظر: الصناعتين: 52.
[6] ينظر: الوساطة: 64-65 ، والموشح: 87.
[1] ديوان ابي تمام: 43.
[2] ينظر: الصناعتين: 454/2.
[3] ينظر: الموازنة :20، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي:6/5.
[4] ديوان ابي تمام: 5، 114.
[5] ينظر: البديع في نقد الشعر: 197.
[1] ينظر: شرح الصولي: 522.

وقيل إنه قال: تُشَبّه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب وقيل إنه قال: ما صنعت شيئاً، شبهت ابن أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين بصعاليك العرب! ومن هؤلاء الذين ذكرتهم؟ وما قدرهم[2]؟ فأطرق قليلاً وقال:

لاتنكروا ضربي لـه من دونـه مثلاً شروداً في الندى والباسِ
فالله قد ضرب الأقلَّ لنـوره مثلاً من المشكـاة و النبراسِ

وقيل ان الكندي قال: إنّ هذا الفتى قليل العمر لأنه ينحت من قلبه وسيموت قريباً[3].

وفي رواية اخرى انه قال للممدوح: أي شيء يطلبه فأعطه فإنه لا يعيش اكثر من اربعين يوماً لأنه قد ظهر في عينيه الدم من شدة التفكير[4]. فلم يستحسن الكندي في بادئ الامر صفات مدح شاعر يعيش في القرن الثالث وهو يمدح بصفات لاتتفق وتطور العصر وما صاحبه من تطور في النظام الفكري والحضاري مما أثّر في مستوى الاستجابة عند تلقي المدح لكنه عندما زاد البيتين عجب من سرعة بديهته وفطنته وقد اعتذر عن تشبيهه، معبراً عن ذلك بقوله للممدوح: أي شيء يطلبهُ فأعطه.

وسرعة البديهة هذه تُعدّ مكانة ثقافية امتاز بها المادح نتجت عن مواكبة تطور العصر. اما عدم استحسان المتذوق للبيت الأول فكان لاختلاف الذائقة النقدية لكل منهما مما يُعدّ معوقاً لاستجابة التلقي، فالمتذوق حمل البيت على أنه لايليق بمكانة ممدوحه في حين يرى المادح خلاف ذلك.

واعجب ابن وهب بمدح ابي تمام للمعتصم حين قرأ قصيدته[5]:

فتح الفتوح تعالى أن يحيط بـه نظم من الشعر أو نثر من الخطب

وأفصح عن اعجابه قائلاً: ((واما الشعر فلا اعرف-مع كثرة مدحي له وشغفي به في قديمه ولا حديثه- أحسن من قول أبي تمام في المعتصم ولا أبدع معاني ولا أكمل مدحاً ولا أعذب لفظاً... هل وقع في لفظة من هذا الشعر خلل؟ كان يمر للقدماء بيتان يستحسنان في قصيدة فيجلّونها بذلك وهذا كلّه بديع))[1].

وقد جاء هذا الاستحسان لأن الشاعر قد اختار المعاني والالفاظ التي تليق بالممدوح فراعى منزلته الاجتماعية من خلال مكانته الثقافية التي تطورت مع التطور الزمني والبيئي.

والنص يشير إلى قدرة الشاعر في انتقاء الفاظ المدح وصفاته وذلك يُعدّ من تجليات التغير في القصيدة المدحية.

وذكر ان بعض الناس اعترض على قول أبي تمام[2]:

للجودِ بابُ في الأنامِ وَلَم تزلْ مْذ كنتَ مفتاحاً لذاك البـاب

---

[2] ينظر: الموشح: 500-501 و 326، والعمدة: 1/ 192.
[3] ينظر: العمدة: 192/1، ووفيات الاعيان: 179.
[4] ينظر: اخبار أبي تمام: 231-232.
[5] ديوان ابي تمام: 156.
[1] اخبار ابي تمام: 108، وشرح الصولي: 60.
[2] ديوان ابي تمام: 85.

((بحضرة بعض أصحابنا، وقال: أتى الى ممدوحه فجعله مفتاحاً، فهلا قال كما قال ابي الرومي:

قبّل أنامله فلسنَ أنـاملاً لـكنهنَّ مفاتـحُ الأرزاق

فقـال لـه الآخـر: عجبـت منـك تعيـب أن يجعـل ممدوحـه مفتاحـاً وقـد جعـل ربـه كـذلك..))[3]. ولـم يستحسـن المتـذوق هـذا المـدح لانـه جـاء بالالفـاظ التـي لاتتفـق ومنزلـة الممدوح وهي موضع غير مناسب وهذا يُعدّ عائقاً من معوقات الاستجابة. زد على ذلك أن المادح له ذائقة مختلفة عن ذائقة المتذوق.

وفي رواية عن المهلبي قال: كنا في حلقة دعبل فجرى ذكر أبـي تمـام فقـال دعبـل كان يتتبع معانيّ فيأخذها . فقال رجل في مجلسه ما من ذلك أعزك الله؟ فقال قلت[4]:

وإنّ امـرَأً أسـدى اليَّ بشافعٍ اليْـه و يَرجُو الشّكر منّي لأحْمَقُ

شفِيعَكَ فاشكر في الحوائج؛ إنّهُ يصونُك عن مكرُوهِها وهوَ يخلُقُ

وقال هو يمدح يعقوب بن ابي ربعي[1]:

إنّ الأميرَ بلاك فـي أحوالـه فرآك اهزَعَه غداة نضالهِ

فمتى أقوم بحق شكرك إذْ جَنَتْ بالغيب كفّك لي ثمارَ نوالـهِ

فلقيتُ بيـن يديْكَ حُلـوَ عطائِه ولقيت بين يديَّ مرَّ سؤالـه

وإذا امرؤ اسدى اليك صنيعـةً مِن حامعه فكأنّها مِن مالـهِ

فاستحسن الرجل ذلك وعبّر عن استحسانه بقولـه: (أحسَنَ والله)، وهذه طريقة لفظية للاستجادة. فقال دعبل كذبت قبحك الله. قال لئن كان سبق بهذا المعنى فتبعته لما احسنت، وإن كان اخذه منك لقد أجاد فصار أولى به منك. فغضب دعبل وقام[2].

وَمردّ هذا البون في التقدير الفني بين دعبل وذلك الرجل احد أمرين: اما الحسد من جانب دعبل واما التفوق النقدي من جانب الرجل الآخر.

وانشد تمام ابن ابي تمام شعراً يهنئ فيه طاهر بن عبد الله ويمدحه عندما تولى خراسان فقال[3]:

هنّـاك رب النـاس هنّاكـا ما مـن جزيل الملك أعطاكـا

قرّت بما اعطيت يا ذا الحجى والبأس و الانعـام يمناكـــا

اشرقت الارض بما نلتَـــهُ وأورق العـود بجـدوا كـا

واستضعف الجماعة شعره ولم يستحسنوه وقد اعربوا عن عدم استحسانهم بطريقة لفظية بقولهم: يا بُعدَ ما بينه وبين أبيه. وقد أشار طاهر الى بعض الشعراء ليجيبه فقال:

حيّاك ربُ النـاس حيّاكـا إنّ الذي أملـت أخطاكـا

---

[3] العمدة: 1/ 273.

[4] ديوان دعبل: وينظر: الموازنة : 62، والصناعتين: 219.

[1] ديوان ابي تمام: 240 و 153.

[2] ينظر: الموازنة: 62 ، والصناعتين : 219.

[3] ينظر: زهر الآداب: 2/ 430 – 431.

فقلت قولاً فيه مازانه لو أن رأى مدحاً لآساكا
فهاك إن شئت بها مدحة مثل الذي اعطيت اعطاكا

فقال تمام: إن الشعر بالشعر رِبا أعز الله الامير فليجعل بينهما شيئاً من الدراهم فأعطي ثلاثة الاف درهم لظرفه. ويبدو من النص أن المكانة الثقافية التي يتمتع بها تمام أدنى من المكانة الثقافية التي يتمتع بها الشاعر الذي أجابه بشعر كشف فيه عن عدم استحسانه له، وقد وجهه فيه الى المديح الجيد. فالمكانة التي يتمتع بها تمام والشاعر الذي اجابه تعد من العوامل المؤثرة في عملية استجابة تلقي المديح. ومثل هذا الاعراب عن عدم الاستجادة لم نألفه من قبل عند الممدوحين والنقاد والمتذوقين ، ومثله ماجاء في خبر مفادهُ أن ابن الجهم (249هـ) مدح المتوكل فقال[1]:

الله اكبـــر والنبي محمدُ والحق أبلج والخليفة جعفر

وقد عاب مروان بن أبي الجنوب هذا القول الذي استحسنه ابن المعتز وقد عبّر عن عدم استجادته له بطريقة لفظية شعراً، فقال[2]:

أراد ابن جهم أن يقول قصيدة بمدح أمير المؤمنين فأذّنا
فقلتُ لـه لاتعجلن بأقامةٍ فلست على طهر فقال ولا أنا[3]

وقد جاء عدم استحسان مروان للشعر لأنه لم يكن مدحاً على الحقيقة ويكشف ذلك أن ثمة اختلافاً في الذائقة اللّغوية والنقدية بين المادح والمتذوق، فكان ذلك من معوقات استجابة التلقي.

وقد روي أن الشعراء قصدوا الخليفة المستعين (252هـ) ومنهم الشاعر البلاذري، فقال الخليفة –بوصفه متذوقاً- للشعراء لست أقبل إلا مِن الذي يقول مثل قول البحتري (284هـ) في مدح المتوكل[4]:

فلو أن مُشتاقاً تكلّفَ فوق ما في وسعه لسَعى اليكَ المنبرُ

فقد استحسن الخليفة قول البحتري وعبّر عن هذا الاستحسان بقوله: لست أقبل[1]... فقد راعى المادح المنزلة الاجتماعية لممدوحه التي تُعدّ من العوامل المؤثرة في استجابة تلقي المدحة.

وعاب ابن جني (392هـ) على المتنبي قوله[2]:

قد شرّف الله أرضا أنتَ ساكنها وشرّف الناس إذ سواك انسانا

فقد أعرب ابن جني –بصفته متذوقاً- عن عدم استجادته بطريقة لفظية فقال: لايعجبني (سواك إنساناً) لأنه لا يليق بشرف الفاظه ولو قال (أنشاك) ونحو ذلك لكان أليق بالحال[3].

---

[1] ديوان علي بن الجهم: 43.
[2] ديوان مروان بن ابي الجنوب:
[3] ينظر: الموشح: 257.
[4] ديوان البحتري: 212.
[1] ينظر: وفيات الاعيان: 71.
[2] ديوان المتنبي:
[3] ينظر: يتيمة الدهر: 1/ 237.

وقد جاء المتنبي ببيت وصفه ابن جني بأنه أفرط فيه جداً وقد جاءت الفاظه مخالفة لمعانيه وهو قوله[4]:

تقاصر الافهام عن إدراكه مثل الذي الأفلاك فيه والدُنا

وقد اعرب المتذوق عن عدم استجادته بطريقة لفظية فقال: لقد أفرط المتنبي جداً لأن الذي فيه الأفلاك والدّنا هو علم الله تعالى[5]. فشكل الإفراط الزائد عائقاً أمام الاستجابة للمديح.

كما علّق ابن جني على قول المتنبي[6]:

نَهَبتَ مِنَ الاعمارِ مالَو حوَيتَهُ لهنئت الدّنيا بأنك خالد

معرباً عن استحسانه له بقوله: ((لَوْ لَمْ يَمدْحَ ابو الطيب سيف الدولة الاّ بهذا وحده لكان بقي منه ما لا يخلقه الزمان وهذا هو المدح الموجّه لأنه بنى البيت على ذكر كثرة ما استباحه من أعمار أعدائه ثم تلقاه من آخر البيت بذكر سرور الدنيا ببقائه واتصال أيامه))[1] فقد تمكن الشاعر من اختيار الالفاظ والمعاني التي تليق ومنزلة ممدوحه الاجتماعية. وهذا دليل على علو قدره وسعة اطلاعه ومكانته الثقافية التي تُعدّ عاملاً مؤثراً في استجابة تلقي المديح. وقد عسكتها البيئة المترفة والتبدل الحضاري والفكري. وجدير بالذكر أن هذه الصورة المدحية الطريفة هي مما تفرّد بها المتنبي دون غيره فهو يُفاجئ المتذوق بصور لا تخطر على بال أحد، ولعل هذا من أسرار خلود شعر المتنبي الى يومنا هذا. فقد أحسن اتباع طرائق المديح المعهودة، وابتكر طرائق جديدة ملأ بها الدنيا وشغل الناس. وهذه الطرائق أثارت طرائق استجابة مختلفة من المتذوقين وهذا هو تجلي تغير الصفات الذي رُمنا الكشف عنه.

وقد مدح المتنبي أبا الشجاع (فاتكاً) في قصيدة أولها[2]:

لا خيل عندك تُهديها ولا مالُ فليُسْعدُ النطقُ إن لَمْ يُسعد الحالُ

فلم يستحسن العكبري (456هـ) –بصفته متذوقاً- هذا المدح وعبّر عن عدم استحسانه بطريقة لفظية قائلاً: ((وهذا الابتداء يكرهه السامع بأن يقول للممدوح لا خيل عندك تهديها ولا مال، وهو أول ما يقوله له، إذ أن هذا البيت هو مستهل القصيدة التي يمدح بها أبا الشّجاع))[3].

فينبغي للشاعر أن يجوّد ويُحسّن ((ابتداء شعره فانّه أول ما يقرع السمع ويستدلّ به على ما عنده من أول وهلة...))[4].

ولعل من المفيد أن يذكر تعليل ابن رشيق لوقوع الشعراء في شرك الاستهلالات غير الموفقة. فقد جعله من الغفلة في الطبع أو من استغراق الصنعة وشغل هاجس بالعمل

---

[4] ديوان المتنبي:
[5] ينظر: الكشف عن مساوئ المتنبي: 240.
[6] ديوان المتنبي:
[1] يتيمة الدهر: 1/ 200-201.
[2] ديوان المتنبي : 2/ 704.
[3] الابانة: 165.
[4] البديع في نقد الشعر: 400.

يذهب مع حسن القول اين يذهب[1]. ولذا فإن هذا الابتداء يُعَدُّ من المواضع غير المناسبة للمدح مما يشكل عائقاً في استجابة التلقي.

أما ابو الفتح (583هـ) فقد احتج على الحاتمي عندما عاب على المتنبي قوله[2]:

فإن كان بعض الناس سيفاً لدولة

ففي الناس بوقات لها وطبولُ

وقد دافع له بقوله: عاب عليه من لا مخبرة له بكلام العرب جمع بوق على بوقات والقياس يعضده إذ له مظاهر كثيرة مثل حمام –حمامات، وسرادق – سرادقات، وهو كثير في جمع ما لا يعقل من المذكر إذ لايوجد له مثال القلة[3].

وقد نلحظ اختلاف الذائقة اللغوية والنقدية بوصفها عائقاً من معوقات استجابة تلقي المديح واضحة جلية بين الشاعر والمتذوق من جهة وبين الحاتمي من جهة اخرى.

وبعد التجوال بين الوقائع والمرويات والنصوص التي تكشف عن استجابة وتلقي المتذوق للمديح العباسي اتضّح لنا أن المتذوق كان يعرب عن استجابته للمديح العباسي بالقول مرة، وبالتصرف أخرى وبالمال أحياناً. فمن طرائق الاعراب عن الاستجادة قول المتذوق متعجباً: (لمن هذا الشعر –أصلحك الله- فما سمعت أحسن منه). وقوله (ما مدحنا شاعر بشعر أحب الينا من قول...) وكقول احد المتذوقين: (أفرأيت ما ألطف ما جعلها معدنا لكمال الصفات ومحاسنها).

أما عن عدم استجابة المتذوق للمديح فقد أعرب بالقول أيضاً من مثل قول عمارة ابن عقيل لأبي دلامة: (ما زدت على أن وصفته بعجوز في يدها مسباحها). وكقول الآخر: (الأمير فوق ما وصفت تشبهه بأجلاف العرب)، وكذلك قولهم: (ألا قلت فباقي عَصَا موسى بكف خصيب). هذا من جهة الاعراب بالقول. وقد تم التقاط طريقة جديدة للاعراب عن عدم الاستجادة شعراً، فقد عاب مروان بن أبي الجنوب شعراً لابن الجهم في المتوكل واعرب عن عدم استجادته له بقوله:

(أراد ابن جهم أن يقول قصيدة بمدح امير المؤمنين فأذّنا

فقلت له لاتعجلن بإقامةٍ فلست على طهر فقال ولا أنا)

وقد أعرب المتذوق عن استجادته للمديح بالتصرف فقد ذُكِر أن المعتصم –بوصفه متذوقاً- قال للشعراء (من كان منكم يحسن أن يقول كقول أبي منصور النميري في الرشيد... فليدخل). إذ أن المعتصم تصرف بدخول الشعراء عليه شريطة أن يقولوا مثل قول النميري. وقد اهتز بشار الشاعر –بوصفه متذوقاً- طرباً لما سمع ابو العتاهية ينشد مادحاً المهدي. وقال: (ويحكم انظروا ألَمْ يَطرِ الخليفة عن أعواده).

وقد وجدنا أن الرشيد –بوصفه متذوقاً- يأمر بثلاثين ألف درهم وبخلع حلّتين على ربيعة الرقي استجابة لأبيات مدح بها العباس بن محمد بن عبد الله بن العباس.

---

[1] ينظر: العمدة: 223/1.

[2] ديوان المتنبي : 521/2 وقد ورد فيه (اذا كان) بدلاً من (فإن كان ...).

[3] ينظر: الرسالة الحاتمية ضمن كتاب الإبانة : 256.

وقد تجلّت لنا في اثناء التجوال عوائق وقفت حاجزاً في طريق استجابة وتلقي المتذوق للمديح العباسي. فقد أشكل مديح على (عافية) قاضي المنصور مدحه به أبو دلامة وغضب عليه وقال (لأشكونك لأمير المؤمنين لأنك هجوتني فقال له أبو دلامة إذن والله يعزلك. قال لِمَ يعزلني؟ قال: لأنك لاتعرف المديح من الهجاء). فكان شعر ابي دلامة هو:

فَمنْ خِفْتُ مِن جَورِهِ في القضاءِ فَلستُ أخافكَ يا عافِيهْ

فكان الشاعر يريد من هذا القول أن القاضي عادل فلا يخافه. في حين فهمه المتذوق على أنّه استخفاف بالممدوح وهذا موضع اشكال بين المدح والهجاء مما يُعَدُّ عائقاً لاستجابة تلقي المدحة.

ومن العوائق الاخرى اختلاف الذائقة، فقد أنكر عمارة قول مروان بن ابي حفصة في المأمون فكان يرى أن الشاعر وصف المأمون بصفة عجوز في يدها مِسبْحة. ومرّد ذلك يعود الى اختلاف الذائقة على أنها عائق لاستجابة تلقي المديح. ومن المواضع غير المناسبة –بوصفها عائقاً- الاستهلال غير الموفق، ومن ذلك عدم استحسان العكبري مدح المتنبي لفاتك بقوله: لا خيل عندك تهديها...

فقد أعرب العكبري عن عدم استجادته بقوله: (وهذا الابتداء الذي يكرهه السامع بأن يقول للممدوح: لأخيك عندك تهديها ولا مال). ومثل هذا الابتداء غير الموفق يشكل عائقاً لاستجابة المتلقي.

ولاشك أن استجابة المتذوق وتلقيه للمديح يتأثر بعوامل منها: المكانة الثقافية للمتذوق والمادح فقد استحسن العتبي قول السيد الحميري بقوله: (أحسن والله هذا هو الشعر الذي يهجم على القلب بغير حجاب) فقد تمكن الشاعر من اعطاء الممدوح حقه ومراعاة منزلته الاجتماعية بفضل درايته ومكانته الثقافية التي مكنته من ذلك.

هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن مراعاة المنزلة الاجتماعية للممدوح تُعَدُّ عاملاً في الاستجابة والتلقي. ومن العوامل المؤثرة الاخرى تطور النظام الفكري والحضاري كما حصل مع الكندي في قول لابي تمام في مدح المعتصم. وقد اشار المتذوق الى أن الشاعر شبه الامير بأجلاف العرب او بصعاليك العرب وهم ليسوا كذلك في ذلك الزمان ومردّ ذلك تبدّل النظام الفكري والحضاري مما أثر في مستوى الاستجابة والتلقي وقد استحسن ابن جني قول المتنبي في سيف الدولة بقوله: (لو لَمْ يمدح أبو الطيب سيف الدولة الا بهذا وحده لكان بقي منه ما لايخلقه الزمان) وإن هذه الصورة المدحية التي فاجأبها المتنبي المتذوق ناتجة من التطور الفكري والحضاري الذي عكسته البيئة العباسية المترفة.

أما من حيث التجليات فقد كشفت لنا النصوص عن تجليات تغير في الصفات وفي السياق، فقد استحسن ابو العباس مدحاً لعلي بن جبلة معرباً عن استحسانه بقوله: (ما سمعت أحسن من هذا التخلص من النسيب الى المدح مع جودة هذه المعاني). ومثل هذا التخلص يُعدّ عاملاً مؤثراً في قوة الاستجابة للمديح، ومن التجليات ايضاً تغير السياق اللغوي فقد أقام ابو تمام علاقات جديدة بين الالفاظ وابتدع سياقاً لغوياً جديداً مملوءاً

بالايحاءات وقد خالف المألوف وجاء بما ليس معتاداً في مثل قوله: رقيق حواشي الحلم... فقد جمع في هذا البيت التغير في السياق اللغوي وتغير الصفات.

وفي ضوء ما تقدم نجد أن استجابة وتلقي المتذوق للمديح الجاهلي والمديح الأموي ثم المديح العباسي، كان مُتّفقةً في أحيان كثيرة ومختلفة بعض الشيء في أحيان أخرى. وتلقانا أحياناً استجاباتُ متفردةُ. وسنقف على تلك المواقف جهد الامكان من خلال عقد موازنةٍ بَيْنَ تلقي المتذوق في العصور الثلاثة، خلا العصر الأسلامي الذي كاد يخلو من متذوق لمديحه.

لقد اتفق المتذوقون على الاعراب عن استجابتهم للمديح أو عدمها ، بطرائق لفظية وكما هو موضح في نهاية كل عصر. وقد برزت لنا طريقة لفظية لم نألفها فيما سبق عند الممدوح والناقد والمتذوق الجاهلي والاموي في الفصلين السابقين والمتذوق الجاهلي والأموي في الفصلين السابقين وهي : الاعراب عن عدم الاستجادة شعراً.

وقد تصرف بعض المتذوقين مُعربين عن قبولهم المديح أو رفضه كالضرب بالرجل طرباً، أو جعل المادح نديماً للمتذوق، أو التبسم وهز الرأس رفضاً.

أما الاعراب عن الاستجابة وتلقي المديح بالطريقة المادية (التصرف بالمال) فوجدناه في استجابة تذوق المديح الاموي والعباسي، في حين خلت استجابة تذوق المديح الجاهلي منها.

أما فيما يخص المعوقات التي كانت تحول دون استجابة المتذوق للمديح فكانت متشابهة الى حدّ ما في اغلبها كاختلاف الذائقة والمواضع غير المناسبة، وكان ما يسمى بالاشكال بين المدح والهجاء، عائقاً في استجابة تلقي المديح لدى المتذوق للمديح العباسي.

وقد لا تخفى على أحدٍ العوامل التي كانت تؤثر في الاستجابة والتلقي ايجاباً وسلباً. فكانت المكانة الثقافية للمادح والمتذوق من أبرزها، في جميع العصور. وكذلك التطور الفكري والحضاري الذي كان واضحاً جليّا في تذوق المديح الجاهلي والعباسي. في حين يكاد يخلو منه المديح الأموي.

أما تجليات التغير في الاستجابة والتلقي، فقد خلا منها المديح الجاهلي، وتجلت في المديح الاموي على شكل تجليات تغير في الصفات المدحية وزيدت عليها تجليات تغير السياق في المديح العباسي.

الخاتمة

بعد هذه الجولة في ميدان من القول في تلك المرويات والوقائع في تاريخ النقد الأدبي العربي القديم، نرجو أن نكون قد وفقنا الى ما نصبو اليه من الدراسة الاستقرائية التصنيفية التحليلية لتلقي غرض المديح. وقد حاولنا اظهار معالمه التي تجلت لنا فيه.

ولا نزعم اننا قد أتينا على كل ما يمكن ان يقال فيه، اذ أن فيه من الصعاب وتشابه القول الشيء الكثير، ولكن شعورنا بأهمية هذا الموضوع ورغبتنا في أن نكون من السباقين لدراسته دعانا لان نمضي فيه وان كان بمسيرة شاقة. وقد اعتقدنا ان هذه الدراسة ستمهد السبيل لعدد من الدراسات امام الباحثين في الاغراض الاخرى. فاذا كان في هذه الدراسة من جدة فانها فاتحة توجه نقدي جديد يمكن ان يطرق ابواب الاغراض الاخرى كدراسة مستقلة في تلقي أي غرض آخر.

وعلينا أن نشير في ختام هذه الدراسة الى انها نتاج صحبة طويلة كشفت عن قضايا جديدة ونتائج مفيدة لذا فهي دراسة نتمنى لها ان تنال قسطاً من اهتمام الباحثين فيما بعد.

لقد حاولنا في فصول رسالتي هذه وبالقدر الذي سمحت به المصادر والمراجع التي اطلعت عليها ان اجمع وادرس طائفة ليست بالقليلة من المرويات والنصوص الشعرية، وقد بذلت جهداً من أجل دراسة ظاهرة التلقي للمدح من العصر الجاهلي حتى 656هـ من خلال طرائق الاستجابة اللفظية والمعنوية، واهمية العوامل المؤثرة المتمثلة بالمكانة الثقافية وتطور النظام الفكري والثقافي للمتلقي والمادح، ثم كشف تجليات التغير في الالفاظ والصفات والسياق وبنية القصيدة، واخيراً المعوقات التي تؤثر في الاستجابة بشقيها: اختلاف الذائقة بين المادح والمتلقي، والمواضع غير المناسبة للمدح.

وكان من اهم النتائج التي كشفت عنها فصول هذه الرسالة ما يأتي:

1. كشفت الرسالة عن أن مردّ التباين الواضح في الاستجابة بين الممدوح والناقد، هو التباعد بين عصري الناقد والنص في حين ان الممدوح لم تفصله عن المادح فاصلة زمنية. لكن ذلك لايطرد على عصور الدراسة كلها.
2. نبهت الرسالة على أن الزام عددٍ من النقاد ومنهم قدامة على وجه الخصوص، الشاعر بالمدح بالصفات النفسية ادّى الى تفاوت الاستجابة بين المتلقين فضلاً عن تفاوت الصفات المهتم بها كذلك.
3. نبهت الرسالة على ان الاحكام والاراء النقدية التي صدرت عن عدد من الشعراء كانت ذات اثر فاعل في تشكيل بنية النقد الادبي العربي فضلاً عن بنية الشعر العربي نفسه.
4. ظهرت من الرسالة خطورة بعض الاحكام النقدية الصادرة من الشعراء فيما يخص الافراط بالغلو الذي قارب الكفر .
5. رصدت الدراسة البون الشاسع بين تلقي المادح للمدحة وبين تلقي الناقد والمتذوق، فكان الصنف الاول يعبر عن الاستجابة بطرائق لفظية ومادية او بكليهما معاً

احياًنا، في حين لم نلمس في الصنف الثاني الا الطرائق اللفظية في الاكثر. لانه لايعيش الحدث الشعري.

6. اوضحت الرسالة بان سبب ما عيب على بعض الشعراء كأبي تمام، هو ميل الشاعر الى الذوق الجديد والفلسفة التي يروم من خلالها أن يرقى المتلقي الى منزلته الثقافية لا أن يتدنى هو الى مرتبة المتلقي.
7. اسهم في اختلاف بنية القصيدة في الجاهلية عنها في العصور الاخرى، كل من الشاعر والممدوح والناقد والمتذوق من خلال تحسس السياق الفكري المناسب.
8. اغلب شعر المديح كاذب واكثره ملق لا يبغي قائله الا الطمع.
9. كشفت الرسالة عن الاثر المنهجي الذي تركه قدامة الذي وضع قواعد مفصلة للمديح وطبقها بشكل علمي.
10. ان مردّ الاستجابات الجديدة التي ظهرت في العصر الاسلامي ولم تألفها عند الممدوح الجاهلي هو اختلاف النظام الفكري والحضاري.
11. ظهور استجابات طريفة وجديدة من عصر لآخر مثل (الرد على المادح) بالشعر كما رد طاهر بن عبد الله على (تمام) و (مروان) على علي بن الجهم.
12. ان عدداً من النقاد والمتذوقين والمادحين لايعربون عن الاستجابة فحسب وانما يوجهون المتلقي الى المدح الصحيح ويعللون سبب عدم الاستجابة.

هذه هي اهم النتائج التي توصلنا اليها في هذا البحث وهي من أسس ما دار حوله الكلام فيه بمقدمته وفصوله. وقيمة هذه النتائج في أنها حصيلة الاطلاع والسهر الطويل والصبر الجميل على المتاعب والعوائق . كما ان قيمتها في انها تسعى الى ان تتبوأ مكاناً بين الدراسات النقدية اذ ان كل فصل منها يصلح لان يكون موضوعاً لبحث مستقل او نقطة انطلاق لدراسات نقدية اخرى.

ولا نقول ان هذه آخر كلمة في تلقي غرض المديح عند العرب في مدة حددناها ولكنها -كما نرى- اكثر ما ينبغي ان يقال فيه. فأسأل الله أن يوفقنا الى خير منها في دراسة متممة لميدان فتحناه. وفقنا الله لخدمة هذا الموضوع الذي بحثنا فيه ودرسناه واهتدينا الى ما نراه أوجه المعرفة فيه والى ما رجحناه من رأى . فإن كنا قد اصبنا فبعون الله وإلاّ فحسبنا أننا لم نتعمد الخطأ.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابو دلامة الأسدي- الرجل الشاعر والناقد الساخر، علي عبد عيدان الخزاعي، منشورات المكتبة العلمية، بغداد، ط1، 1965.
- أبو العتاهية- أشعاره وأخباره، تحـ: شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، 1965.
- أبو العلاء المعري.. ناقداً، وليد محمود خالص، دار الرشيد للنشر والتوزيع، 1982.
- أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، د. بدوي طبانة، مطبعة الرسالة، 1960.
- اتجاهات النقد خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، عبد المطلب مصطفى، دار الأندلس، بيروت، 1984.
- أثر القرآن في تطور النقد الى آخر القرن الرابع الهجري، محمد زغلول ، دار المعارف، مصر، 1952.
- أخبار أبي تمام، ابو بكر الصولي، تحـ: خليل محمد عساكر، و د. محمد عبدة عزام، المكتب التجاري للطباعة ، بيروت، د.ت.
- أختيار من كتاب الممتع في علم الشعر وعمله، عبد الكريم النهشلي، تحـ: د. منجي الكعبي، الدار العربية للكتاب، تونس، 1977.
- استقبال النص عند العرب، محمد رضا مبارك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1999.
- الاستهلال- فن البدايات في النص الأدبي، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1993.
- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحـ: هـ.ريتر، مطبعة وزارة المعارف 1954.
- الأسس الجمالية في النقد العربي-عرض وتفسير ومقارنة، عز الدين إسماعيل دار الفكر العربي، ط2، 1968.
- أسس النقد الأدبي عند العرب، أحمد أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، ط2، 1960.
-اشعار ابي الشيص الخزاعي واخباره، جمع وتحقيق، عبد الله الجبوري، مطبعة الآداب، النجف الاشرف، 1967.
- الأغاني، ابو الفرج الاصفهاني، تحـ: عبد الستار فراج، دار الثقافة ، بيروت، 1961.
- أمالي المرتضى، غرر الفوائد ودرر القلائد، الشريف الرضي، تحـ:محمد ابو الفضل ابراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، القسم الاول، 1967.
- أمراء الشعر العربي في العصر العباسي ، انيس المقدسي،
- البديع في نقد الشعر، اسامة بن منقذ، تحـ: عبد آل علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1987.
- البرهان في وجوه البيان، ابن وهب، تحـ: احمد مطلوب وخديجة الحديثي، بغداد، 1967.
- البيان والتبيين، الجاحظ، تحـ: عبد السلام محمد هارون، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ط3، د.ت.
- تاريخ الادب العربي- العصر العباسي الثاني، وشوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط2.
-تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري، د.محمد نجيب البهبيتي، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ط2، 1961.

- تاريخ النقد الادبي عند العرب، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة، بيروت، ط3، 1974.
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي الى القرن الرابع الهجري، طه احمد ابراهيم ، دار الحكمة، بيروت، لبنان، 1937.
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني الهجري حتى القرن الثامن، د. احسان عباس، دار الثقافة بيروت ، ط1، 1971.
- تاريخ النقد العربي الى القرن الرابع الهجري، د. محمد زغلول سلام، القاهرة، 1964.
- تراثنا الأدبي، صور في روائعه وملامحه، د.ابراهيم علي ابو الخشب ومحمد عبد المنعم خفاجي، دار الطباعة المحمدية بالازهر، القاهرة، د.ت.
- التطور والتجديد في الشعر الأموي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مكتب الدراسات الأدبية، ط8، د.ت.
- التكسب بالشعر، جلال الخياط، دار الآداب، بيروت، 1970.
- جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، د. ماهر مهدي هلال، دار الحرية، بغداد، ط1، 1980..
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، د.ت.
- جمهرة اشعار العرب، أبو زيد القرشي، دار احياء الكتب، بيروت.
- جمهرة نسب قريش واحبارها، شرح وتحقيق: محمد محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، 1383.
- حلية المحاضرة في صناعة الشعر، الحاتمي، تحـ: د.جعفر الكناني، دار الرشيد للنشر، 1979.
- الحيوان، الجاحظ ، تحـ: عبد السلام هارون ، القاهرة.
- خزانة الأداب ولب لسان العرب، الشيخ عبد القادر بن عمر البغدادي، دار صادر ، بيروت، د.ت.
- دراسات في الأدب الاسلامي والاموي- الشعراء نقاداً، عبد الجبار المطلبي، بغداد، ط1، 1986.
- دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية الى نهاية القرن الثالث، د.بدوي أحمد طبانة، مكتبة الانجلو المصرية، ط4، 1965.
- ديوان ابن الخياط ، تحـ: خليل مردم بك، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1958.
- ديوان ابن الرومي، تحـ: د. حسين نصار، مطبعة دار الكتب، 1973.
-ديوان ابن مطير، ضمن كتاب: الحسين بن مطير الأسدي، جمعه وحققه: د. محمد غياض، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1971.
- ديوان ابن هرمة ، تحـ: محمد جبار المعيبد، مطبعة الأدب، النجف الأشرف، 1969.
- ديوان ابي تمام، شرح الخطيب القزويني، تحـ: محمد عبده عزام، دار المعارف ، مصر، 1951.
- ديوان أبي دهبل الجمحي، تحـ: عبد العظيم عبد المحسن، مطبعة القضاء في النجف الاشرف، ط1، 1972.

- ديوان ابي نواس، تحـ: أحمد عبد المجيد الغزالي، بيروت، لبنان، 1953.
- ديوان اسحق الموصلي، جمع وتحقيق: ماجد أحمد الغري، مطبعة الايمان، بغداد، 1970.
- ديوان الاعشى، شرح وتعليق: د.م محمد حسين، المكتبة النموذجية ، الأسكندرية، 1950.
-ديوان ايمن بن خريم، صنعة وتحقيق: الطيب العشاش، مؤسسة المواهب للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط ، 1969.
- ديوان البحتري، طبعه وعلف حواشيه، رشيد عطية، المطبعة الأدبية، بيروت، 1911.
- ديوان بشار، شرح أحمد الطاهر بن عاشور، تعليق محمد رفعت، فتح الله ومحمد شوقي، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1954.
- ديوان جرير، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت، 1960.
- ديوان حسان، تحـ: سيد حنفي حسنين، مطابع الهيئة المصرية للكتاب ، 1974.
- ديوان الخريمي، جمع وتحقيق: د.علي جواد الطاهر ومحمد جبار المعيبد ، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبان، ط1، 1971.
-ديوان الخنساء، منشورات مكتبة الفرزدق للطباعة والنشر والتوزيع، ط5، منقحة.
- ديوان ذي الرمة ، تحـ: كارليل هنري، كلية كيمبردج، 1916.
- ديوان زهير بن ابي سلمى، تحقيق وشرح: أكرم البستاني ، مكتبة صادر، بيروت، 1953.
- ديوان السيد الحميري، جمع وتحقيق وشرح عليه، شاكر هادي شكر، منشورات مكتبة دار الحياة ، بيروت.
- ديوان الشماخ بن ظرار، تحـ: صلاح الدين الهادي، دار المعارف، مصر، القاهرة ، 1919، القاهرة.
- ديوان شيخ الاباطح أبي طالب، جمع أبي هفان عبد بن أحمد، صححه وعليق عليه: محمد صادق آل بحر العلوم، المكتبة المرتضوية ومطبعتها الحيدرية، النجف الاشرف، 1356.
- ديوان الصاحب بن عباد، تحـ: الشيخ محمد حسن آل ياسين، مكتبة النهضة، بغداد، ط1، 1965.
- ديوان طرفة بن العبد، تحـ: علي الجندي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1958.
- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، تحقيق وشرح: محمد يوسف النجم، دار صادر، بيروت، 1958.
- ديوان علقمة، شرح الأعلم الشمنتري تحـ: لطفي الصقال، دار الكتاب العربي، حلب، ط1، 1969.
- ديوان علي بن الجهم، تحـ: خليل مردم بكَ، المجمع العلمي، بيروت، 1949.
-ديوان كعب بن زهير، مراجعة نخبة من الادباء، دار القاموس الحديث، بيروت، 1968.
- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق وشرح: اكرم البستاني، دار بيروت، 1960.
- الرسالة الحاتمية، الحاتمي (ضمن كتاب الأبانة) عن سرقات المتنبي، العميدي، تحـ:ابراهيم الدسوقي البساطي، دار المعارف ، مصر، 1961.
- الروضة المختارة، شرح القصائد الهاشميات، المكيت بن زيد الأسدي، مؤسسة النعمان، بيروت، لبان، د.ت.
- زهر الآداب وثمر الالباب، الحصري القيرواني، شرح: زكي مبارك، تحـ: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط4، د.ت.

- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، شرح د. مصلح عبد المتعال الصعيدي، مكتبة محمد علي صبح وأولاده، مصر، 1969.
- الشاعر الأسلامي تحت نظام سلطة الخلافة، داود سلوم، بيروت، لبنان، 1978.
- شرح ديوان امرئ القيس، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1969..
- شرح ديوان الحماسة، التبريزي، طبعة بولاق، 1296.
- شرح ديوان صريع الغواني، مسلم بن الوليد، عني بتحقيقه: د. سامي الدهان، دار المعارف ، مصر.
- شرح ديوان الفرزدق، ضبط معانيه وشروحه واكملها، ايليا الحاوي، منشورات دار الكتاب اللبناني، ط2، 1983.
- شرح ديوان كثير عزة، تحـ: د. رحاب عكاوي، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1996.
- شرح الصولي لديوان ابي تمام، دراسة وتحقيق: خلف رشيد نعمان، وزارة الاعلام، ط1، د.ت.
- شعراء وادباء العصر العباسي في سامراء، عبد الرزاق البدري، دار القادسية، بغداد، 1985.
- شعر ابن ميادة، جمع وتحقيق: محمد نايف الدليمي، مطبعة الجمهور، الموصول.
- شعر الاحوس، حمع وتحقيق د. ابراهيم السامرائي ، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، 1969.
- شعر الأخطل، صنعة السمكري، تح: فخر الدين قباوة، دار الاصمعي، حلب،1970.
- شعر الحطيأة، تحـ: عيسى سابا، مكتبة دار صادر، بيروت، 1951.
- شعر دعبل بن علي الخزاعي، صنعه: د. عبد الكريم الأشتر، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، 1964.
- شعر ربيعة الرقي، جمعه وقدم له: د. يوسف حسين بكار، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1980.
- شعر علي بن جبلة المعروف بالعكوك، تحـ: احمد نصيف الجنابي، مطبعة الآداب ، النجف الاشرف، 1971.
- شعر النابغة الجعدي، منشورات المكتب الاسلامي ، دمشق، 1964.
- شعر نصيب بن رباح، جمع وتقديم: د. داود سلوم، مطبعة الارشاد، بغداد، 1967.
- الشعر والشعراء أو طبقات الشعراء، ابن قتيبة، تحـ: د. مفيد قميحة، راجعه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1985.
- الصراع بين القديم والجديد، د. محمد حسين الاعرجي، المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت، د.ت.
- طبقات الشعراء، ابن المعتز، تحـ: عبد الستار فراج، دار المعارف، مصر، ط3، 1956.
- طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، تحـ: محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، 1952.
- العقد الفريد، ابن عبد ربه، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1370هـ.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحـ: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط4، 1992.

- عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي، تحـ: طه الحاجري ود.محمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1956.
- فحولة الشعراء، الأصمعي، تحـ: محمد عبد المنعم خفاجي وطه محمد الزيني، القاهرة، ط1، 1953.
- فن التقطيع الشعري والقافية، صفاء خلوصي، دار الكتب، بيروت، ط4، 1974.
- فن المديح وتطوره في الشعر العربي، احمد أبو حاقة، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت، ط1، 1962.
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي، شوقي ضيف، مكتبة الأندلس ، بيروت، ط3، 1956.
- القاضي الجرجاني والنقد الأدبي، د. عبدة قليقلة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1973.
- قضايا النقد العربي قديمها وحديثها، داود غطاشة وحسين راضي، الدار العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الاردن، ط1، 2000.
- قواعد الشعر، ثعلب، تحـ: رمضان عبد التواب، دار المعرفة، القاهرة، 1966.
- الكامل في اللغة والادب، المبّرد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، د.ت.
- كتاب الامالي . ابو علي القالي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
- كتاب البديع، ابن المعتز، نشر وتعليق: اغناطيوس كراتشكوفسكي، دار المسيرة ، بيروت، ط3، 1982.
كتاب ذيل الامالي-أبي علي القالي، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة، ط2، 1936.
- كتاب الصناعتيين، الكتابة والشعر، ابو هلال العسكري، تحـ: محمد علي البجاوي، ومحمد ابو الفضل ابراهيم، دار الفكر العربي ط2، د.ت.
- الكشف عن مساؤى شعر المتنبي، الصاحب بن عباد، تحـ: الشيخ محمد حسن ال ياسين، بغداد، 1965.
-المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر، تحـ: د. احمد الحوفي ود. بدوي طبانة، ط1، 1959.
- المجاز وأثره في الدرس اللغوي ، د. محمد بدري عبد الجليل، دار الجامعات المصرية، الاسكندرية، 1975.
- محاضرات في تاريخ النقد عند العرب، ابتسام مرهون الصفار وناصر حلاوي، د.ت.
- المديح، سامي الدهان، دار المعارف، مصر، ط2، د.ت.
- مروان بن ابي حفصة وشعره، قحطان رشيد التميمي، مطبعة النعمان، النجف الاشرف، 1972.
- مسائل الانتقاد، ابو عبد الله القيرواني، تحـ: شارل بلا، الجزائر، 1953.
- مسند أحمد، أحمد بن حنبل، دار صادر ، بيروت، د.ت.
- مفاتيح الجنان، عباس القمي ، مؤسسة الفكر الاسلامي، لبنان، بيروت، ط1، 2003م.
- مفهوم الشعر- دراسة في التراث النقدي والبلاغي، جابر عصفور، المركز العربي للثقافة، 1982.
- مقالات في تاريخ النقد العربي، د. داود سلوم ، دار الرشيد للطباعة والنشر ، بغداد، 1981.
- مقالات في تاريخ النقد الأدبي، محمد مصطفى هوارة، دار القلم، 1964.
- الموازنة بين ابي تمام والبحتري، الآمدي تحـ: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ط4، 1944.

- الموازنة بين ابي تمام والبحتري- تحليل ودراسة، قاسم المومني، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1985.
- الموازنة بين الشعراء- ابحاث في اصول النقد واسرار البيان، زكي مبارك، مطبعة الحلبي واولاده، مصر، ط2، 1936.
- مواقف في الادب والنقد، عبد الجبار المطلبي، دار الرشيد للنشر، 1980.
- الموشح- مآخذ العلماء على الشعراء في عدة انواع من صناعة الشعر، المرزباني، تحـ: محمد علي البجاوي، دار النهضة، مصر، 1965.
- نشأة النقد الادبي حتى نهاية القرن الاول الهجري، د. احمد يوسف، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، الفجالة، ط1، 1983.
- النظرية النقدية عند العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري، هند حسين، دار الرشيد، بغداد، 1981.
- النقد الادبي، احمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط4، 1967.
- النقد الادبي، اصوله ومناهجه، سيد قطب، دار الفكر العربي، 1947.
- النقد الادبي، سهير القلماوي، دار المعرفة، القاهرة، ط2، د.ت.
- النقد الادبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1973.
- النقد الادبي وأثره في الشعر العباسي، ناصر الحاني، بغداد، 1955.
- النقد الجمالي واثره في النقد العربي، روز غريب، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1952.
- نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحـ: كمال مصطفى، مطبعة الخانجي، القاهرة، ط3، د.ت.
- النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري، نعمة رحيم العزاوي، منشورات وزارة الثقافة، دار الحرية للطباعة ، بغداد، 1978.
- النقد المنهجي عند العرب ، محمد مندور، الفجالة، القاهرة، مصر، 1948.
- الوساطة بين المتنبي وخصومه، عبد العزيز الجرجاني، شرح وتصحيح: احمد عارف الزين، مطبعة العرفان، صيدا، 1331هـ.
- وفيات الاعيان، وانباء ابناء الزمان، تحـ: د. احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1968..
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي، تحـ: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، 1956.

Abstract

The Arab took care abort criticism which came gradually. Because the criticism treats any nation's life rapture and every thing was wrote by their literates or poets, So it's try to search behind the causes to analysis that literature. So it was an important subject to know tasting, beauty and the power of that life rapture. I took a subject in the Arabic criticisa which was very important in my opinion therefore I wanted to explain the invisible sides in it.

The subject is : {Having the perpuse of laudation in the old books of Arabic literary criticism until the year of 656 for Hijrah}. There search was divided into three parts preseded by an introduction and followed by a conclusion. For the sake of presenting aclear idea about this subject the researcher tried to reach every thing which was said by the men of criticism, through using their books for explaning their points of view. The major cause which pushed to study this subject (ie, having the laudation) is that J wanted to prove it's roots in the old Arabic literature, there more I didn't find any independent study talking about it. I wanted to study the sitnations of the Arabic critics and tasters about it in details, which explains their critical visions to ward "having the praise" according to their point of view. The first part studies "having a praise" and the perpnse of praise from the side of the one who praised with explanation to his point of view in making a judgment which is either positives or negative. Also, it contains the Islamic , Ummayian and Abbasian periods.

The third part was devoted for the people who taste praise through their tasting for praise in the period of "Jahilia", Islam, Ummaya and Abbasiay. After that we made abalance between these three parts. We reached an important result which is that this study

discovered, there were a contrast in the response of the one who praised and the critic men. This contrast came as a result to the big gap in time between the time of the poet and the men of criticism from one side and the poem itself from the other side there is'nt a period of time between the one who praised and the praiser. But we saw the opisite from that the anen of criticism point of view, some criticism-men proffered the psychological conditions in the praise, furthermore they obliged the poet to be stick with it and they said that the one who use it is right and every one didn't use it was wrong or shameful not to use them. So there was a clear result for his culture in that. The research was built on the dangerous result for some judgments which was made by some poets as a criticism-men, especially what was related with proud, exaduration in the praise which reached the digree of Plasphemy , and we tonched from this study that there were abig gap between haring a praise and between the men of criticism. S the first one her expresses about his response for the ballad with the way of pronouncing or with an abstract way, or by both. But we didn't find this with the second one. Also, we saw what was considered as a shameful thing in the poetry of some poets like "ABi-Taman" which returns to his new tasting and to his philosophy by which he wanted the one who praised to leave up to him, not to go down (ie, he himself the poet) to the level of the one who praised. Also his using for the far replacement and un natural respect, Although most of the poetry of praise was made for the "exadurating in respecting some people" but part of it was said to those who made good deeds.

We ask our God to make a better study in the subject that we discussed so, if we were right that was by the he/pof God and if we were not so, our idea is that we didn't depended on wrong dates. God is our grid, light to discover more and more.